DR. MUTASEM TAWFIQ AL- KHADER

من روائع القصص الأمريكي الحديث

ترجمة: د. معتصم توفيق الخضر

من روائع القصص
الأمريكي الحديث

من روائع القصص الأمريكي الحديث/ قصص
ترجمة : د. معتصم توفيق الخضر / شاعر وأديب فلسطيني
الطبعة الأولى، 2015

حقوق الطبع محفوظة

المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي:
المصيطبة - شارع ميشال أبي شهلا - متفرع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانية الدولية LIU - بناية النجوم - مقابل أبراج بيروت
ص.ب.: 11/5460 الرمز البريدي 1107-2190
تلفاكس: 707892 1 00961 - 707891 1 00961
بـيـروت - لبـنـان
E-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الألكترونيّ: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان، ص. ب. 9157، هاتف: 5605432 6 00962، هاتفاكس: 5685501 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com

تنفيذ الغلاف : ديمو برس / بيروت، لبنان
الصفّ الضوئيّ: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر/ بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ : ديمو برس / بيروت، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أونقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر.

ISBN: 978-614-419-579-6

SHORT STORY

من روائع القصص الأمريكي الحديث

ترجمة : د. معتصم توفيق الخضر

الترجمةُ ليستْ أنْ تُترجمَ كلمةً بكلمة ، ولكنَّ الترجمةَ هي المحافظةُ على الأسلوبِ العامِّ وقوّةِ اللغةِ في النصِّ المُترجَم .

الفيلسوفُ الرومانيُّ ماركوس سيسرو ١٠٦-٤٣ ق .م .

الإهداءُ

أُهدي هذا العملَ المتواضعَ إلى المُعتزّين بلُغَتِهمُ العربيةِ الخالدةِ والمؤمنينَ بأنَّ هذهِ اللغةَ التي اصْطَفاها البديعُ لتكونَ لغةَ آخِرِ كتبِهِ وخاتَمِ أنبيائهِ، هي لغةٌ حيّةٌ ولا يُعْجِزُها استيعابُ علمٍ أو أدبٍ، ويؤمنونَ كذلكَ بالانفتاحِ على آدابِ غيرِهم وثقافاتِهم مِنْ غيرِ خوفٍ أو وَجَلٍ.

المُترجم

الفِهْرِسْت

الإهداءُ 7

المقدمةُ 11

القَصَصُ المُترجمةُ

١- حادثةٌ عرضيةٌ في الحربِ — ستيفن كرين 19

Stephen Crane — An Episode of War

٢- حالةُ بول — ويلا كاثر 29

Willa Cather — Paul's Case

٣- التطور: مِنْ عِتباتِ الطُّفولةِ إلى عالمِ النضوجِ 76

شيرود أندرسون

Sherwood Anderson — Sophistication

٤- وردةٌ إلى إميلي — ويليم فوكنر 93

William Faulkner — A Rose for Emily

٥- مكانٌ نظيفٌ ومُضاءٌ جيداً — إرنِسْت هيمنجواي 119

Ernest Hemingway — A Clean, Well-Lighted Place

٦- قائدُ الجَماهير — جون ستاينبك — 129

The Leader of the People — John Steinbeck

٧- الحياةُ السريَّةُ لوتر متي — جيمس ثيربر — 163

The Secret Life of Walter Mitty — James Thurber

٨- اليانصيبُ — شيرلي جاكسون — 177

The Lottery — Shirley Jackson

المقدِّمةُ

لقدْ قمتُ في السابقِ بترجمةِ نصوصٍ شعريةٍ وقصصٍ قصيرة ونشرتُها في مجلاتٍ وصحف ، وقد رأيتُ أنْ أنشرَ كتاباً يضُمُّ ترجَمتي لقَصَصٍ من روائعِ الأدبِ الأمريكيِّ الحديثِ ، تتيحُ للقارئِ العربيِّ نافذةً للاطِّلاَعِ على جانبٍ مِنْ هذا الأدبِ . وقدْ رتَّبتُ هذه القَصَصَ المترجمةَ تصاعُدياً على أساسٍ زمنيٍّ ، فالأقدمُ أولاً . وقد وضعْتُ بعضاً مما يُساعِدُ القارئَ على الفهمِ الأدقِّ للقصَّةِ ، وفسَّرْتُ بعضَ الكلماتِ في حاشيةِ الصفحاتِ . وقدْ التزمتُ بكتابةِ أسماءِ الأَعْلامِ كما وردَ لفظُها في لُغتِها وليستْ تعريباً لحروفِ الكلمة .

وهناكَ كلماتٌ يقولُها الناطقونَ بالإنجليزيةِ حشواً في كلامِهمْ ، وليس لها معنى في بعضِ الأحيانِ مثلَ كلمةِ «Well» والتي أقربُ ترجمةٍ لها في العربيةِ هي «حسناً» فقمتُ بترجمتِها إن كانتْ مناسبةً للسياق ، وأما إذا كانَ وجودُها شاذاً في الترجمةِ أسقطْتُها . وإذا شعرتُ أنَّ السياقَ مُبْهَمٌ ، فسَّرتُه حتى لا يَتُوهَ القارئُ ، فمثلاً في قصَّةِ «حالة بول» وردتْ العبارةُ التاليةُ : وبدأَ يقولُ لنفسِه مرَّةً تلوَ مرَّةٍ : لقد دُفعتُ الأثمانَ . ففسرْتُها ومِنْ خلالِ سِياقِ القصَّةِ

هكذا : وبدأ يقولَ لنفسهِ مرةً تلوَ مرةٍ ، وقد شعرَ أنَّ نهايتَهُ قدْ اقتربتْ ، لقد دُفعتْ الأثمانُ .

أعتقدُ أنَّ هناكَ عقد شرفٍ ما بينَ المُترجمِ والقارئِ ، يقومُ على أساسِ ثقةِ القارئِ بأمانةِ المُترجِمِ ومَقْدِرَتهِ ، فعلى المُترجِمِ أنْ يحملَ هذه الأمانةَ ويُؤَديها كاملةً غيرَ منقوصةٍ . وأولُ ركائزِ هذهِ الأمانةِ هي ثقةُ المترجم ثقةً تامةً بكفاءَتهِ ومقدرتِهِ التي لا لُبْسَ فيها على الترجمةِ وامتلاكِهِ لكلِّ مقوّماتِها ، وفي مقدمتِها إتقانُ المُترجِمِ للُّغتين : لُغةِ النصِّ الأصليِّ أو ما يُسمى بلُغةِ المَصدرِ ، واللغةِ المترجمِ إليها ، أو ما يُسمى بلغَةِ الهدفِ .[1] وعليه أن يبذلَ كلَّ طاقتهِ ، ويستخدمَ كلَّ مهاراتهِ وقدراتهِ في أداءِ مَهمتِهِ ، وأن يختارَ الموضوعَ الذي يرى بأنهُ متميِّزٌ فيه لترجمتهِ ، فلا يعقلُ له أنْ يتصدَّى مثلاً لترجمةِ الشعرِ وليسَ له باعٌ فيه . وعليه معرفةُ الرسالةِ التي يريدُ كاتبُ النَّصِّ الأصليِّ إيصالَها ، والتي تُساعِدُ المترجِمَ كثيراً في ترجمتِهِ الأمينةِ لنقلِ مزاجِ كاتبِ النصِّ الأصليِّ .

تحتاجُ الترجمةُ الأمينةُ إلى صبرٍ ومثابرةٍ وتأمُّلٍ ورويَّةٍ ، فالترجمةُ ليستْ بالأمرِ السهلِ ، فقدْ تحتاجُ إحدى العباراتِ إلى وَقْفةٍ قد تطولُ لساعاتٍ أو حتى لأيامٍ ليهتديَ المترجمُ إلى الترجمةِ

(١) وهذان المصطلحان مأخوذان من اللغة الإنجليزية ، فلغة المصدر Source Language ولغة الهدف Target Language .

التي يعتبرُها ، عن علم ، صادقةً .

إنَّ مِنَ الخطأِ القولَ بأنَّ الترجمةَ خيانَةٌ للنصِّ ، كما يحلو للبعضِ القولُ ، وهذا التعبيرُ «خيانةُ النصِّ» ترجمةٌ خاطئةٌ في سياقِ الحديثِ عن الترجمةِ لكلمةِ Unfaithfullness في الإنجليزيةِ ، هذهِ الكلمةُ تعني ، فيما تعنيه ، الخيانةَ ، مثلَ خيانةِ الزوجِ لزوجتهِ ، أما في سياقِ الحديثِ عن الترجمةِ فالمقصودُ هو مَدى الالتزامِ بالقربِ مِنَ النصِّ المُترجَم أو البُعدِ عنه ، وليس خيانةَ النصِّ . والحقيقةُ الواضحةُ أنه لا يمكنُ أنْ يُنقلَ نصٌ أدبيٌّ مِنْ أيةِ لغةٍ في العالمِ إلى لغةٍ أخرى ، وفي الوقتِ نفسه يُحافَظُ عليه حرفيّاً ؛ لأنَّ هذا يَحرمُ النصَّ المترجمَ من الخصائصِ الجماليةِ للُّغةِ المُترجمِ إليها ويكونُ المُترجِمُ كالآلةِ ناقلاً للنصِّ ، ولا يُسَمَّى عندها مُترجِماً . الخيانةُ في الترجمةِ في نظري تكونُ مثلاً بعدمِ إعطاءِ الوقتِ الكافي والجهدِ اللازمِ للترجمةِ ، أو القفزِ عن عباراتٍ لمْ يستطعْ المترجمُ ترجمتَها ، أو أنْ يُدرِكَ المترجمُ أنَّ ترجمتَه خاطئةٌ من خلالِ السياقِ ويثبتُها .

الحقيقةُ أنَّ الترجمةَ الأدبيةَ هي فنٌ كالرسمِ والموسيقى وتأليفِ الشعرِ ، فالنَّصُّ المُترجَمُ يجبُ أنْ يتمتعَ بالجمالِ ، وأن تبرزَ فيه مقدرةُ المترجِمِ على إيجادِ توازنٍ ما بينَ النصِّ الأصليِّ ، وما يجبُ على المترجِمِ أنْ يُدركَهُ من جمالِ النصِّ في اللغةِ الهدفِ لإمتاعِ القارئِ ، بحيثُ لا يبدو على النصِّ أيُ شذوذٍ أو غرابةٍ ، وهذا يصدقُ على كلِّ ترجمةٍ .

فالترجمةُ يجبُ أن تمتازَ بالإتقانِ والجمالِ . أما الإتقانُ فمعناهُ في نظري ، هو المحافظةُ في الترجمةِ على معنى النصِّ المترجَمِ حتى لا يضيعَ معناهُ ، وفي الوقتِ نفسه يكونُ جميلاً باختيارِ المُفردةِ الدقيقةِ ، وأنْ يكونَ النصُّ المُبدَعُ جميلاً ، فيشعرُ القارئُ العربيُّ ، مثلاً بأنَّ هذا النصَّ عربيٌّ أصيلٌ ويظهرُ في ثناياهُ جمالُ اللغةِ العربية ، فلا يكونُ النصُّ جامداً . ومن هنا ، فالترجمةُ الأدبيةُ الراقيةُ تحتاجُ إلى مُتذوِّقٍ للنصوصِ الأدبيةِ . وأنا لا أوافقُ من يشتطُّ فيقولُ بأنَّ المترجِمَ للنصوصِ الأدبيةِ يجبُ أنْ يكونَ أديباً في النوعِ الأدبيِّ الذي يترجمُهُ ، فمثلاً إذا كان النصُّ شعراً فالأفضلُ أنَ يكونُ شاعراً ، وإذا كانَ عملاً مسرحيّاً أن يكونَ المترجِمُ كاتباً للنصوصِ المسرحيَّةِ ، ولكنَّ هذا الادِّعاءَ يدحضه الواقعُ .

علينا النظرُ للترجمةِ على أنَّها عملٌ إبداعيٌّ ، لأنَّه مِنَ المستحيلِ نقلُ نصٍّ منْ لغةٍ إلى لغةٍ أخرى حرفياً ، كما هو بقدِّهِ وقديدِهِ ، وذلكَ لأنَّه ، وببساطة ، لا يُمكنُ فعلُ ذلكَ إلا بنقلِ كلمةٍ مقابلَ كلمة ، وهذهِ الترجمةُ ستكونُ شاذةً وغيرَ مفهومة ، ولنْ تنقلَ حقيقةُ النصِّ ولا جمالياتُهُ ولا رسالتُهُ . وهنا يظهرُ دَوْرُ المترجمِ المُبدعِ الذي يحافظُ على ما في النصِّ الأصليِّ من معانٍ بأنْ تكونَ عينُه على النصِّ الأصليِّ ، وفي الوقتِ نفسه يشعرُ بأنَّ له هامشاً من الحريةِ والإبداعِ ، وهذا التوازنُ هو اللمسةُ السحريةُ في العملِ الأدبيِّ المُترجَمِ ، وهو سرُّ نجاحِ الترجمةِ ، ومفتاحُ

التفاضلِ بين المترجمين ، فكلاهما ، أي المحافظة على معاني النصّ والابداع ، حيوي للترجمةِ الناجحة . فالمترجمُ قدْ يذهبُ بعيداً ويجمحُ إذا لمْ تكنْ عينُهُ على النصِّ ، وإذا وضعَ عينَه على النصِّ فقطْ صارتْ ترجمتُه جامدةً لا حياةَ فيها . مع العلمِ أنَّ مِنَ البديهيِّ أنَّه لا يمكنُ لأيةِ ترجمةٍ أن تكونَ بديلاً للنصِّ الأدبيِّ الأصليِّ ، مع أنهُ قدْ يكونُ النصُّ المترجمُ غايةً في الروعةِ والجمالِ .

إن المِحكَّ الذي يُعرَضُ عليه العملُ المُتَرْجَمُ ، مِنْ حيثُ نجاحِه أو غيرِ ذلك ، أو ما هي نسبةُ نجاحِ المُترجِم ، هو القارئُ والذي يحددُ مدى نجاحِ العملِ المُترجَم من خلالِ شعورِه بأنَّ العملَ المترجمَ هو عملٌ إبداعيٌّ في لغتِه . هذا القارئُ لمْ يعدْ كالسابقِ متلقياً فقط ، بل هو ، وفي ظل التطوُّرِ التكنولوجيِّ ، مشاركٌ في صناعةِ العملِ المُترجَم بتعليقاته ونصائحه . فالعملُ المترجَمُ ليس فقط ما أرادَه المترجِمُ ، بلْ هو أيضاً نظرةُ القارئِ إليه وما يعنيه بالنسبةِ إليه .

لا شكَّ بأنَّ ترجمةَ النصِّ الأدبيِّ ليست كترجمةِ غيرِه مِنَ النصوصِ ، فهي عمليةٌ فريدةٌ من نوعِها ، لأنَّ ذاتيةَ المترجمِ تتدخلُ وتلعبُ دوراً مهماً . فالترجمةُ الأدبيةُ تتأثرُ بالسماتِ الشخصيةِ للمترجمِ الذي هو شخصٌ مغموسٌ بتاريخ أمتِه وحضارتِها وثقافتِه الشخصيةِ وفكرِه ومشاعرِه وخيالِه الأدبيِّ وخبرتِه ومزاجِه ونظرتِه كقارئٍ للنصِّ وأمورٍ أخرى ، مما يؤثر عليه عند ترجمتِه للنصوصِ الأدبيةِ . فلا يمكنُ للمترجمِ ، ولا يستطيعُ ، أن يكونَ حيادياً . وهذه

الصِّبغةُ الذاتيةُ هي مِنَ الأسبابِ التي تميزُ ترجمةً عن غيرِها من الترجماتِ ، وإلا لما كانت هناك درجاتٌ في الترجمةِ . والترجمةُ تفاعلٌ وعَلاقةُ حبٍّ في المقامِ الأولِ بين المُترجِمِ وما يُترجِمُ حتى تكونَ الترجمةُ متميزةً والابداعُ فيها واضحاً . فالترجمةُ ليستْ مجردَ قوانين ، فلو كانتْ مجرَّدَ معرفةٍ للنظرياتِ والقوانين ، لكانَ المُتخصِّصون في الترجمةِ هم أقدرُ الناسِ على الترجمةِ ، وهذا ما لا يُصدِّقُه الواقعُ . والحقيقةُ أنَّ الترجمةَ العمليةَ سابقةٌ على نظرياتِ الترجمةِ والتي شأنُها في ذلك شأنُ القواعدِ في اللغةِ والتي اشتُقَّتْ من الروائع الأدبيةِ المكتوبةِ في تلكَ اللغةِ . والحقيقةُ أنَّ معظمَ المترجمين لاَ يضعونَ في واردِهم نظرياتِ الترجمةِ والتي لا يعرفُها أصلاً أكثرُهم ولا أكثرُ قرائِهم .

على المترجِم أن يتعرَّفَ على حياةِ الكاتبِ وعصرِه ؛ لأنَّ هذا يساعدُ كثيراً على فهْمِ النصِّ ، ولأنَّ عصرَ الكاتبِ وحياتَه لهما بصماتٌ في عملِه الأدبيِّ . إنَّ الفهمَ العميقَ للنصِّ الأدبيِّ يجعلُ المترجمَ يتمثَّلُ روحَ الكاتبِ ، وهذا ينعكسُ على جمالِ الترجمةِ ويجعلُها أقربَ إلى روحِ النصِّ الأصليِّ . والحالةُ التي تجعلُه قريباً من روحِ النصِّ أُسَمِّيها نشوةَ الترجمةِ ، والتي استعرتُها من النشوةِ الشعريةِ . هذه النشوةُ تمكِّنُ المترجمَ منْ إضفاءِ جمالياتِ اللغةِ على النصِّ المُتَرجَمِ ، مع الابقاءِ على أصالةِ النصِّ .

لا يستطيعُ مترجمُ النصِّ الأدبيِّ أنْ يدَّعيَ أنَّ ترجمتَهُ لا يُخالِطُها نقصانٌ ؛ لأنَّ النصَّ الأدبيَّ غنيٌّ بالمضامينِ التي قدْ لا

يتلمَّسُ بعضَهـا المُترجِمُ ، ولكنَّ المُهمَّ أن تنتهيَ الترجمةُ بوجودِ نصٍّ أدبيٍّ ألوانُهُ بألوانِ اللغةِ المنقولِ إليها النصُّ ، ويشهدُ بجودتِها القارئُ .

والمترجمُ يدركُ أن النصوصَ هي درجاتٌ في صعوبتِها . والحقيقةُ أنني واجهتُ بعضَ الصعوباتِ خلالَ ترجمتي لهذهِ القَصصِ في هذا الكتابِ ، ولكنْ استطعت ، وبفضلِ اللهِ ، التغلبُ عليها . وأنا كمترجم أجريتُ ما رأيتُه ضرورياً مِنْ تعديلات وزيادات وحذف ليجدَ القارئُ العربيُّ النصَّ جميلاً وسلساً ومفهوماً . والحقيقةُ أنني أشعرُ بالرضى لما قمتُ به ، وخصوصاً أنني بذلتُ كلَّ جهدٍ مُستطاع ، ووضعتُ نَصبَ عينيَّ أنْ أقتربَ في ترجمتي مِنَ الكمالِ مستعيناً باللهِ العليم ، ولمْ أتركْ أيةَ كلمة أو جملةٍ دونَ ترجمتِها ، ولكنْ هيهاتَ هيهاتَ أنْ يبلغَ الإنسانُ مَبْلغَ الكمالِ مهما بذلَ مِنْ جهدٍ .

وفي النهايةِ أودُّ مِنَ القارئِ الكريم ، إنْ كانتْ له ملاحظاتٌ ، أنْ يفيدَني برأيِهِ على عنواني الإلكترونيِّ حتى أتداركَ النَّقصَ في المراتِ القادمةِ بإذن الله . وإنني أرحبُ ، وسأكونُ من الشاكرين ، لكلِّ من يكتب تعليقاً على هذه الترجمةِ أو مناقشتِي في أيِّ موضوعٍ يخصُّ هذه الترجمةَ الأدبيةَ .

حادثة عرضية في الحرب

ستيفن كرين

كـانتْ بطّانيّـةُ الملازم ، المصنوعـةُ من المطاطِ ، مـفـروشـةً على الأرض ، وقد أفرغَ فـوقَـها الملازمُ حصـةَ سَرِيَّةِ الجيشِ من التـموينِ من القـهـوةِ . وحـضـرَ عُـرَفـاءُ من الجـيشِ وممثلون آخـرونَ عـن الجنودِ المتـسـخـةِ أجـسـامُـهم وثيـابُهم والمنهكةُ أبدانُهم ، والـذين جـاءوا واصطفُّوا خلفَ التَّحصيناتِ والمتاريسِ المؤقتةِ والمقامةِ على عجَلٍ ؛ ليأخذَ كلٌّ منهم من القهوةِ نصيبَ مجموعتِهِ منَ الجنودِ .

كان الملازمُ عابساً وجاداً في أداءِ مهمتِهِ في توزيعِ القهوةِ . كان زامـاً لشـفتـيـه وهو يخطُّ بسـيـفـهِ ويشقُّ كومـةَ القـهـوةَ ويصنعُ فـيـهـا الفـجـواتِ حـتى تظهـرَ على البطانيـة مكعبـاتٌ من القـهـوةِ البُنِّـيـةِ المتـسـاويةِ الأحـجـام بشكل يُدهشُ ويُذهلُ النـاظرين ، وهذا جـعـل الملازمَ يشعرُ بأنه على شفا تحقيقِ إنجازٍ عظيم في الرياضيات ، وهنا تدفق العـرفـاء وتدافعـوا إلى الأمـام من أجلِ الحـصولِ على إحـدى الكوماتِ الصغيرةِ من مكعباتِ القهوةِ . وفجأةً صرخَ الملازمُ ، ونظر بسـرعـةٍ إلى الرجلِ الواقفِ بجـانبِـه ظانـاً بأن مـا حـدثَ هو اعـتـداءٌ

شخصيٌّ عليه ، وصرخ الآخرون أيضاً عندما شاهدوا الدماءَ على كُمِّ قميصِ بزَّةِ الملازم .

جَفَلَ الملازمُ ، كردَّةِ فعلٍ لما حدثَ وكأنَّه لُسعَ ، وفَقدَ توازنَه وأخذَ يترنَّحُ بشكلٍ خطيرٍ ، ثم استوى واقفاً ، وسُمِعَ صوتُ تنفُّسِه الأجشِّ بوضوح . نظرَ الملازمُ بحزنٍ وبنظراتٍ مُبهمةٍ من فوقِ المتراسِ إلى صفحةِ الغابةِ الخضراءِ حيثُ تخرجُ نفثاتٌ كثيرةٌ ، ولكنَّها صغيرةٌ ، من الدخانِ الأبيضِ من حينٍ لآخرَ بفعلِ إطلاقِ النارِ من البنادقِ في المعركةِ الدائرةِ هناك . وفي هذهِ الأثناءِ حدّقَ به الرجالُ صامتين . وكانت نظراتُهم اتجاهه ثابتةٌ وكأنهم تماثيلُ ، لأنَّهم ذُهِلوا وأُصيبوا بالهلَعِ من هذهِ الكارثةِ غيرِ المتوقعةِ والتي حلَّتْ بالملازم ، وهي كارثةٌ لديهم الوقتُ الكافي لمشاهدةِ فصولِها .

نظر الملازمُ بإمعانٍ إلى الغابة وهي الجهة التي أتت منها الرصاصةُ التي أصابته ، فأدارَ الجنودُ رؤوسَهم إلى تلك الجهة ، وبعد برهة أداروا أيديهم وكانوا لا يزالون صامتين ، وهم يتأمَّلون تلك الغابة البعيدة وقد تركز تفكيرهم على لغزِ هذه الرَّصاصةِ ورحلتِها حتى ضربتْ هذا الملازمَ وأصابَتْهُ .

اضْطُرَّ الضابطُ أنْ يُمسكَ سيفهُ بيدِهِ اليُسرى ، ولمْ يُمسكِهُ منْ مِقْبَضِه ، بلْ أمسَكهُ وبطريقةٍ غيرِ ملائمةٍ منْ منتصفِ نَصْلِه ، ثم تحوّلَ بنظرِهِ عن الغابةِ المعاديةِ حيثُ جاءتْهُ الرصاصةُ ، ونظرَ إلى السَّيفِ الذي يحملُهُ وبدا متحيراً ماذا يفعلُ به وأينَ يضعُهُ .

وباختصار ، أصبح هذا السلاح ، وفجأةً ، شيئاً غريباً بالنسبة

إليه . لقد نظرَ إليه بشيءٍ منَ الذُّهولِ وكأنّما قدْ وُهِبَ هذا السيفُ قوةً خاصةً ، وأصبحَ كالرمحِ بثلاثةِ رؤوسٍ ، والتي تحملُهُ مخلوقاتٌ أسطوريةٌ ، أو صارَ كالصَّوْلجانِ رمزَ السلطانِ ، أو يحملُ رمزَ النبلاءِ .

وأخيراً ، حاول الملازم أن يعيدَ السيفَ لغمدِهِ . وإنَّ هذهِ المحاولةَ لإعادةِ السيفِ إلى غمدِهِ باستعمالِهِ ليدِهِ اليُسرى وهو مُمْسِكٌ بالسيفِ من وسطِ نَصْلِه ، وقِرابُ السيفِ معلقٌ على وِرْكِهِ الأيسر ، لعملٍ فذٍّ يستحقُّ خاتماً مصنوعاً من نشارةِ الخشبِ . انْهَمَكَ الضابطُ الجريحُ بكلِّ ما أوتيَ منْ قوةٍ بمحاولتِهِ اليائسةِ لوضعِ السيفِ في قرابِهِ المُتدلي والمُتأرجِحِ ، وكانَ نَفَسُهُ في هذه الأثناءَ يشبهُ نفَسَ المُصارعِ على الحَلَبَة .

وفي هذهِ اللحظةِ أفاقَ الرجالُ من حولِهِ والمشاهدونَ لما يحدثُ من حالةِ الجمودِ التي أصابتْهُم فتقدَّموا وتجمهروا من حولِهِ وهم متعاطفون معه ومشفقون عليه .

تقدَّم أحدُ الرقباءِ وأخذَ السيفَ ووضعَه بلطفٍ في قِرابِهِ ، وفي ذاتِ الوقتِ أمالَ الرقيبُ جسمَه للخلفِ بطريقةٍ عصبيةٍ ، ولمْ يسمحْ حتى لأصبعِهِ من مسٍّ ومسحِ جسدِ المُلازمِ الجريحِ . فالجرحُ يُعطي صاحبَهُ كرامةً واحتراماً غريبين لا تُفهم أسبابُهما ، ولهذا فالرجالُ من حولِ الضابطِ الجريحِ يشعرونَ وهم أمامَ هذهِ الجلالةِ الجديدةِ ، والتي تملأُ النفسَ رهبةً بالاحتشامِ والحياءِ ، وكأنَّ هذه اليدَ الجريحةَ موضوعةٌ على ستارةٍ معلقةٍ ، وهذه ستارةٌ موجودةٌ قبلَ الكشفِ عن كلِّ وجودٍ وفهمِ حقيقةِ وجودِهِ ، مثلاً ، ما معنى وجودُ

كلٌّ من النملِ ، أو الملوكِ ، أو الحروبِ ، أو المدنِ ، أو نورِ الشمسِ ، أو الثلجِ ، أو ريشةٍ سقطتْ من جناح طائرٍ . إنَّ القوةَ الموجودةَ في هذهِ الستارةِ تجعلُها تَسْكُبُ التألقَ والبهاءَ على هذا الشكلِ النازفِ ، ممّا يجعلُ الرِّجالَ الآخرين يشعرونَ بضآلتِهم في بعضِ الأحيان . نظرَ الرفاقُ إلى الملازمِ بعيونٍ مُتَّسِعةٍ تنمُّ عن تأملٍ وتفكيرٍ عميقين ، بلْ وأكثرُ من ذلك ، فقد شعروا بخوفٍ غامضٍ مِنْ أنَّ مسَّ الملازمِ بإصبعٍ واحدٍ ، فإنَّ وزنَ هذا الإصبعِ قد يدفعُهُ إلى تصرفٍ متهورٍ ، وقد يُعَجِّلُ بالمأساةَ ، فيدفعُه إلى الاندفاعِ فوراً إلى مجاهيلَ لاَ تُحمد عُقباها من القتامةِ والكآبةِ ، ولهذا فإنَّ الرقيبَ أحنى جسمَهُ إلى الوراءِ بعصبيةٍ وهو يغمدُ السيفُ في قِرابهِ .

لقد عرضَ آخرون مساعدةَ الملازمِ ، فتقدمَ أحدهمْ على استحياءٍ وعرضَ كتفَهُ على الملازمِ ، وطلبَ منه ، إنْ كانَ لديه الرغبةُ ، أن يتكئَ عليها ، ولكن الملازمَ لوّحَ له ، وبحزنٍ ، أنْ يبتعدَ ، وبدتْ عليه علاماتُ مَنْ يعلمُ أنه ضحيةٌ لمرضٍ خطيرٍ مرعبٍ ، وأدركَ أنَّه لا حول له ولا قوةٌ . ومرةً أخرى حدَّقَ الملازمُ ببصرهِ منْ فوقِ المتراسِ ونظرَ إلى الغابةِ ، ثم استدارَ متراجعاً للخلفِ ببطءٍ وهو يحملُ بلطفٍ وحنانٍ معصمَ يدهِ اليمنى ، وتراءتْ اليدُ المجروحةُ وكأنَّما صُنعتْ من زجاجٍ شديدِ الهشاشةِ .

وبِصمْتٍ ، أجالَ الرِّجالُ نظرَهُم مرّاتٍ وهم يُحَدّقون تارةً في الغابةِ ، وتارةً في المُلازِمِ المُغادرِ للمكانِ .

وبينما كان الضابطُ الجريحُ يمرُّ منْ خطِّ جبهةِ القتالِ ، استطاعَ

أنْ يشاهدَ أشياءَ كثيرةً لم تكنْ معروفةً لديه ، بالرغم من مشاركتِه في هذهِ المعركةِ . فقدْ رأى عسكرياً برتبةِ فريقٍ (جنرال) وهو يمتطي صهوةَ جوادِه الأسودِ ، وهو يتفرَّسُ بنظَرِه خطَّ جبهةِ القتالِ والتي شغَلَها المشاةُ ذوو البِزَّاتِ الزرقاوات والمتواجدونَ في الغابةِ الخضراءِ والتي تحجبُ مشاكلَهُ ، والمتمثلةُ بوجودِ عدوٍّ يقاتلهُ ويتسترُ بداخلِها . وجاء ضابطٌ معاونٌ وهو يعدو بسرعةٍ وبحدةٍ ، ثم أوقفَ حصانَه فجأةً وأدى التحيةَ العسكريةَ للفريقِ ، وقَدَّمَ له ورقةً تدعو للدَّهشةِ ؛ لأنَّها كانتْ بالضبطِ كَلَوْحَةٍ تاريخيّةٍ .

وكان خلفَ الفريقَ وأركانِ حربِه مجموعةٌ مكونةٌ مِن بوّاقٍ واثنين أو ثلاثةٍ من المرافقين ، وحاملِ علَمَ الفيلقِ العسكريِّ وهم يمتطونَ خيولاً هائجة . وكان هؤلاءِ المرافقونَ يعملونَ كالعبيدِ ، وكانوا يحافظونَ على مواقعِهِم ، ويلتزمونَ بوجودِ مسافةٍ بينهم وبينَ الفريقِ كعلامةٍ على الاحترامِ والتبجيلِ . وفي الوقتِ ذاته كانتْ انفجاراتُ القذائفِ تدوي في الجوِّ مِنْ حولِهم مما جعلَ الخيولَ التي يركبونَها تَقْفِزُ مُرْتَعِشةً وبعنفٍ .

دارت المدفعيةُ ، والتي هي عبارةٌ عن كتلةٍ من المعادنِ اللامعةِ والتي تصدرُ أصواتاً صاخبةً ، نحوَ اليمينِ . جلجلتْ حوافرُ الخيلِ بشكلٍ همجيٍّ ، وسُمعتْ صرخاتُ راكِبي الخيولِ والعرباتِ وهم يحثُّونَ الخيولَ على الإسراعِ ، فكانَ بعضُ صراخهم يوبخُ هذه الخيولَ ، وبعضُهم كان يُثني عليها ، فبعضُهم يهدِّدُها ، وبعضُهم يُشجِّعها ، وذلك وسْطَ استمرارِ ضجيجِ العجلاتِ ، ومشهدِ البنادقِ

التي تلمعُ عندما تُطلَقُ منها النارُ. كلُّ هذه المشاهدِ حملَتْ المُلازِمَ الجريحَ على أنْ يعزمِ على التوقُّفِ. كان قلبُ الناظرِ يخفقُ بشدةٍ وهو يرى بطاريةَ المدفعيةِ تندفعُ بقوةٍ في المنحنياتِ، وعندما تتوقفُ كان توقُّفُها مثيراً كتكسُّرِ موجةٍ في البحرِ على الصخورِ، وعندما تندفعُ إلى الأمامِ فإنَّ مجموعَ مكوناتِ بطاريةِ المدفعيةِ من عجلاتٍ وروافعَ ومحركاتٍ تعملُ بتكاملٍ ووَحْدةٍ جميلةٍ وكأنَّها صاروخٌ، وصوتُها الذي يشبِهُ جوقةً تُنشدُ للحربِ يَصِلُ إلى أعماقِ مشاعرِ الإنسانِ.

ما زالَ الملازمُ يحملُ ذراعَهُ المجروحةَ وكأنَّما صُنعتْ من زجاجٍ، وما زال واقفاً يرقُبُ بطاريةَ المدفعيةِ حتى اختفتْ كلُّ تفاصيلِها عن ناظريْهِ ما عدا شخوصَ الرجالِ الذّين يركبونَها، وهمْ يرتفعونَ تارةً ويهبطونَ تارةً أخرى، وهم يُلوِّحونَ بالسياطِ فوقَ ما يبدو وكأنَّه كتلةٌ سوداءُ.

وبعد هذهِ المشاهدِ وجَّهَ الملازمُ نظَرَهُ إلى حيثُ تدورُ المعركةُ، ومِن هناك كانت تُسمعُ الطلقاتُ، وكانَ صوتُها في بعضِ الأحيانِ يشبهُ صوتَ الفرقعاتِ التي تُصدِرها النارُ وهي تأكلُ الشجيراتِ، وفي بعضِ المراتِ تشتدُّ هذه الفرقعاتُ وبطريقةٍ غيرِ مُنتَظمةٍ، وفي أحيانَ أخرى تُدوي كالرعدِ. لقد شاهدَ الملازمُ الدخانَ يتصاعدُ وينتشرُ إلى الأعلى، ورأى حشداً من الرجالِ وهمْ يركضونَ ويهتفونَ، أو يتوقَّفونَ ويُطلقونَ النارَ بشكلٍ مُتكرِّرٍ، وبدونِ تصويبٍ دقيقٍ على مناطقَ ونقاطٍ ليسَ بها هدفٌ واضحٌ أو مُحدَّدٌ.

اقتربَ الملازمُ الجريحُ من بعضِ الجنودِ المنتشرينَ بدونِ نظام ، وأرشدوهُ إلى كيفيةِ الوصولِ إلى المستشفى الميدانيٍّ ، ووصفوا لَهُ موقِعَهُ بدقةٍ . في الحقيقةِ فإنَّ هؤلاء الرجالَ لمْ يعودوا جزءاً مِن المعركةِ أو المشاركينَ فيها ، وهم ، معَ ذلك ، يعلمونَ عنها أكثرَ من غيرهِمْ . فهمْ يستطيعونَ الإخبارَ عن إنجازاتِ كلٍّ فيلقٍ من فيالقِ الجيشِ ، بلْ وعنْ كلٍّ فرقةٍ في تلكَ الفيالقِ ، وعن الآراءِ عنْ كلٍّ جنرالٍ . تراجعَ الملازمُ الذي يحملُ ذِراعَهُ المصابةَ إلى الخلفِ وهوَ ينظرُ إلى هؤلاءِ الرِّجالِ بدهشةٍ واستغرابٍ .

كانَ هناكَ ضابطٌ برتبةِ لواءٍ موجودٌ على جانبِ الطريقِ يقومُ بتحضيرِ القهوةِ ، وهو يطنطنُ في حديثِهِ ، ويشبهُ طنينُه ما يسمعُهُ الشخصُ من طنينٍ يَخرجُ من مدرسةٍ داخليةٍ للبناتِ . توافدَ على هذا اللواءِ عددٌ من الضباطِ يستفسرونَ منْه عن أشياءَ مهمةٍ ، ولكنَّه لا يعلمُ عنْها شيئاً . رأى أحدُ الضباطِ ذراعَ الملازمِ المصابةِ ، فبدأَ بتوبيخِه قائلاً : ما هذا يا رجلُ؟ إنها ليستِ الطريقةُ للقيامِ بذلك . عليكَ أن تُثبِّتَ هذا الشيءَ ، ثمَّ قامَ بوضعِ الملازمِ ويدَهُ الجريحةُ بوضعيةٍ مناسبةٍ ، ثم قامَ بقصِّ كُمِّ البزةِ العسكريةِ التي تُغطِّي الذراعَ المصابةَ ، فصارتِ الذراعُ عاريةً تماماً ، وكانَ كلُّ عصَبٍ يرتعشُ رعْشاتٍ خفيفةً تحتَ لمساتِ هذا الضابطِ ، ثمَّ لفَّ الجرحَ وعصَّبهُ بمنديلِه وهو يطلقُ توبيخاتِه أثناءَ ذلكَ على الملازمِ ، ونغمةُ صوتِه توحي بأنَّه مُعتادٌ على أنْ يُصابَ بجرحٍ في كلِّ يومٍ . نكَّسَ الملازمُ رأسَهُ وقدْ شعرَ في هذه اللحظةِ أمامَ الضابطِ بأنَّه لا يعلمُ

كيفَ يمكنُ أن يكونَ مجروحاً بشكلٍ صحيح .

كانت خيامُ المستشفى الميدانيِّ البيضاءِ والمنخفضةِ منصوبةً حولَ مبنى مدرسةٍ قديمة . كانَ في هذا المكانِ شيءٌ وحيدٌ يثيرُ الفوضى ، فقد كانت هناكَ في المنطقةِ الأماميةِ للمستشفى عربتا إسعاف قدْ غارَتْ عجلاتُهمَا في الوحلِ وعلقتا فيه . تقاذفَ سائقا سيارتيِّ الإسعافِ فيما بينهما الملامةَ على ما حدثَ ، وفي أثناءَ ذلكَ كانَ كلٌّ منهما يومِئُ للآخرِ وهو يوبِّخُه ويؤنبه ، وفي الوقتِ نفسه كانتْ تُسمعُ الأنَّاتُ من حينٍ لآخرَ من سيارتيِّ الإسعافِ المكدَّستين بالجرحى . كان هناكَ حشدٌ كبيرٌ لا تُحصى أعدادُه من المضمَّدين والذين يتحركون ذهاباً وإياباً ، وكان قسمٌ كبيرٌ منهم يجلسون تحتَ الأشجارِ وهم يقومونَ بإسعافِ وتضميدِ المصابين برؤوسِهِم وأذرُعِهِم وأرجُلِهم . وكان هناك جدلٌ ونزاعٌ من نوعٍ ما يتأججُ على درجاتِ المستشفى . وكان هناكَ رجلٌ يجلسُ ملقىً على ظهرِهِ على جذْعِ شجرةٍ ، وكانَ لونُ وجهِهِ رمادياً كلونِ بطانيةٍ جديدةٍ من بطانياتِ الجيشِ ، وكان هذا الرجل يدخن بهدوء بغليونٍ مصنوعٍ من الجزء الخشبي من عرنوسِ الذرةِ ، وقد تمنَّى الملازمُ لو أنَّه يندفعُ نحوَهُ ويخبرُهُ بأنَّه شخصٌ لا مبالياً .

مرَّ جرَّاحٌ مشغولٌ قريباً من الملازم ، وبادرهُ التحيةَ وبابتسامةٍ لطيفةٍ قائلاً : صباحُ الخيرِ . ثم لاحتْ منه الْتفاتةٌ إلى ذراعِ الملازمِ ، فتغيرَّتْ تعابيرُ وجهِهِ ، وقالَ : حسناً ، دعني أنظرُ إليها . ثم بدا وكأنَّ هذا الجرّاحَ قد تغيَّرَ وبشكلٍ مفاجئٍ ، وقد تملَّكه شعورٌ

بالاحتقارِ الشديدِ لهذا الملازم . فإن هذا الجرحَ قدْ وضعَ الملازمَ بشكلٍ واضحٍ في مستوى اجتماعيٍّ متدنٍ . وصرخَ الطبيبُ صرخةً تدلُّ على نفادِ صبرهِ : مَنْ هذا الأبلَهُ الذي ضمَّدَ هذا الجرحَ وربطَه بهذهِ الطريقةِ وكيفما اتُّفق؟ فأجابَ الملازمُ : إنَّهْ رجل .

ولمَّا كُشفَ عن الجرح ، قامَ الطبيبُ بجسِّهِ بازدراءٍ ، وأصدرَ صوتاً يُعبِّرُ عن الاحتقارِ للمخاطَبِ وقال للملازم : تعالَ معي وأنا سأعتني بكَ . وكانَ صوتُه يحملُ الاحتقارَ للمخاطَبِ وكأنَّهُ يقولُ له : أنت ستذهبُ للمعتقلِ .

وكانتْ تظهرُ على الملازمِ علاماتُ الخنوعِ ، ولكنَّ وجهَهُ احمرَّ في هذه اللحظةِ ، ونظرَ في عينيِّ الطبيبِ ، وقال : في ظنّي أنَّها لنْ تُقطعَ .

فصاحَ الطبيبُ : كلامٌ فارغٌ أيها الرجلُ . هراءٌ! هراءٌ! تعالَ ، الآنَ ، لنْ أقطعَها . تعالَ ، لا تكنْ كالطفلِ .

قال الملازمُ : دعني أذهبُ . قالها وهو يَكْظِمُ غيظَه ، وقد ثبّتَ نظرَهُ على بابِ المستشفى الميدانيِّ وهو ينظرُ إليهِ بتشاؤمٍ وكأنَّه بواباتٌ للموتِ .

هذهِ هي القصةُ عن كيفيةِ فقدانِ الملازم لذراعِهِ . عندما وَصَلَ الملازمُ إلى بيتِه ، أجْهَشَتْ أخواتُه وأمُّه وزوجتُه بالبكاءِ لفترةٍ طويلةٍ عندما رأين كمَّ بزتِهِ الفارغَ بعدَ أنْ بُترتْ ذراعُه . وقفَ الملازمُ ، وقدْ تملَّكهُ الخجلُ ، وسط النسوةِ الباكياتِ والدموعِ المنهمراتِ وقال : أُوهْ ، حسناً . لا أعتقدُ أنَّ هذا الأمرَ يستلزمُ ويستحقُّ كلَّ هذا .

حالة بول

دراسةُ حالةٍ غيرِ اعتياديةٍ لشخصٍ يتمتَّعُ بطبيعةٍ خاصةٍ في مشاعرِهِ ومزاجِهِ وأعمالِهِ مع نفورِهِ من الخضوعِ للتقاليدِ

ويلا كاثر

بعدَ ظهيرةِ أحدِ الأيامِ ، سيمثلُ التلميذُ بول أمامَ هيئةِ التدريسِ في مدرسةِ بيتسبيرج العليا ، وذلك لمساءلتِهِ عن مخالفاته السلوكيةِ المتعدِّدةِ ؛ إذْ تمَّ توقيفُهُ عن الدراسةِ قبلَ أسبوعٍ ، فقامَ والدُهُ بزيارةِ مكتبِ مديرِ المدرسةِ واعترفَ الوالدُ بحيرتِهِ بشأنِ تصرفاتِ ولدِه . دخلَ بول غرفةَ الإدارةِ بشكلٍ مُهذَّبٍ وهو يبتسمُ ، وكانتْ ملابسُهُ غيرَ ملائمةٍ وغيرَ مناسبةٍ ، فحجمُهُ أكبرُ منها ، فهي ضيقةٌ عليهِ ، وأصبحَ المخملُ الضاربُ للسمرةِ الذي خِيْطَ فوقَ ياقةِ معطفِه المفتوحِ مهترئاً ورثّاً ، ونَسلَتْ بعضُ خيوطِه ، وبالرغمِ من كلِّ هذا فقد أحاطتْ به لَمْساتٌ من الأناقةِ ، فقد ثبَّتَ مشبكاً من حجرٍ كريمٍ تتغيرُ ألوانهُ على عقدةِ ربطةِ عنُقِه الأنيقةِ ، وكانتْ عُرى أزرارِ قميصِهِ قرنفليةَ اللونِ ، وقدْ شعرتْ إدارةُ المدرسةِ أن زينةَ

العُرى ليستْ مؤشراً مناسباً لروحِ الندمِ مِنْ طالبٍ مازالَ تحتَ وطأةِ توقيفهِ عن الدراسةِ مؤقتاً .

كان بولُ طويلاً بالنسبةِ لسنِّهِ وأقرانِه ، ولكنهُ كانَ في الوقتِ نفسه نحيلاً جداً ، وصاحبَ أكتاف عاليةٍ وصغيرةٍ وصدر ضيِّق . وقد تميَّزتْ عيناه ببريقٍ ينمُّ عن ألمعيَّةٍ هستيريةٍ ، وقد وظَّفَ هذا البريقَ المُمَيَّزَ بشكلٍ متواصلٍ بطريقةٍ مسرحية وهو مدركٌ للأمر ، وكانت طريقةُ سلوكِهِ عدوانيةً ، وتُعتبرُ غريبةً لفتىً في مثل سنِّه . كانت عيناه واسعتي البؤبؤ بشكلٍ غريبٍ كما لو أنَّه كانَ مُدمناً على البلادونة(٢) ، إلا أنَّ في عينيهِ لَمعاناً كَلَمَعانِ الزُّجاجِ ، وهذا ما لا يكون في عينيٍّ من يتناولُ المُخَدّراتِ .

وعندما سألَ مديرُ المدرسةِ بول عن سببِ وجودهِ هناك ، أي عن سببِ وجودِهِ خارجَ المدرسةِ بسببِ فصلِهِ مؤقتاً ، أجابَ بأدبٍ جمٍّ بأنَّه يرغبُ بالعودةِ إلى المدرسةِ ، وكانت هذه كذبةً ، ولكنَّ بول اعتادَ تماماً على الكذبِ ، لأنَّهُ وجَد أنَّ الكذبَ لا مفرَّ منهُ للتغلُّبِ على الخلافِ . طُلبَ مِنْ مُدرِّسيه أن يُدلوا بتهمهم ضدَّه الواحدةِ تلو الأخرى ، فقاموا بذكرها بطريقةٍ تدلُّ على حقدٍ واضطهادٍ مما يُظهرُ بوضوحٍ أن هذهِ الحالةَ ليست حالةً عاديةً . ذكروا من تجاوزاتِ بول أنَّه مشاغبٌ ووقحٌ ، ومع هذا شعرَ كلُّ مدرسٍ من مُدرِّسيه أنَّه عاجزٌ عن التعبيرِ بالكلماتِ عن السببِ الحقيقيِّ

(٢) البلادونة هي نوعٌ من الحشيشِ .

للمشكلةِ ، والذي يتمثلُ بنمطِ وطريقةِ التَّحدِّي الهستيريِّ لهذا الفتى ، والازدراءِ الذي يشعرُ به بول اتجاهَهم وهم يعلمونَ ذلك ، ويبدو أنَّه لا يَبذلُ أيَّ جهدٍ أو مسعى لإخفائِه . ففي مرةٍ منَ المراتِ مثلاً ، عندما كانَ يحاولُ بول تلخيصَ فقرةٍ على السبورةِ ، تقدمتْ مدرسةُ اللغةِ الانجليزيةِ إلى جانبِه وحاولتْ توجيهَ يدِه وإرشادَها ، وإذا به يبدأُ بالتراجعِ إلى الوراءِ وهو يرتجفُ دافعاً يديه بعنفٍ خلفَه . إن هذا التصرفَ آذى كثيراً هذه المعلمةَ المذهولةَ ، ولن يكونَ الأذى أكبرَ كثيراً لو أنَّه هاجَمها . إن هذه الإهانةَ لا تُنسى لأنَّها كانتْ لا إرادية تلقائيةً وبالتأكيدِ شخصيةً . بطريقةٍ أو بأخرى ، فقد جعلَ بول كلَّ معلميه ، أكانوا رجالاً أو نساءً على حدٍّ سواءٌ ، يشعرونَ ببغضٍ لوجودِه الماديِّ الجسديِّ في الصفِّ . ففي أحدِ الدروسِ كانَ يجلسُ وهو يضعُ يديهِ بطريقةٍ تُظلِّلُ عينَيه ؛ وفي حصةٍ صفيةٍ أخرى كانَ ينظرُ إلى الخارجِ من النافذةِ أثناءَ تسميعِ الدرسِ للتلاميذِ ؛ وفي درسٍ آخر كانَ يقومُ بتعليقٍ مفصَّلٍ على المَحاضرةِ بطريقةٍ تنمُّ عن هدفِه في الاستهزاءِ والتندُّرِ .

لقدْ شعرَ معلمو بول في ظهيرةِ هذا اليوم بالذاتِ بأنَّ كاملَ حالةِ بول يمكنُ أنْ تُختصرَ ، ويُرمزَ إليها بهزّةٍ لكتفيه بطريقةٍ تُظهرُ عدمَ مبالاتِه ، ووضعِه وردةً قرنفليةً حمراءَ بشكلٍ يدلُّ على وقاحتِه وقلةِ احترامِه لمعلميه ، ولهذا فقدْ هاجمهُ معلموُه بلا رحمةٍ ، وقد كانَ على رأسِ مجموعةِ المهاجمين مدرِّسةُ اللغةِ الإنجليزيةِ . إلا أنَّ بول وخلالَ هذه الهجمةِ كانَ مبتسماً ، وكَشفتْ

شفتاهُ الشاحبتان المتباعدتان عن أسنانه البيضاءَ . وكانتْ شفتاه ترتعشانِ باستمرارٍ ، وكانَ مِنْ عادتِه رفعُ حاجبيه بطريقةٍ تعبّرُ عن الازدراءِ وتثيرُ مدرسيه إلى أقصى درجةٍ وأبعدَ حدٍّ . فلو وُضعَ طلابٌ أكبرُ سناً من بول في مثلِ هذا الموقفِ لانهاروا ، ولأجهشوا بالبكاءِ تحتَ هذه المحنة القاسيةِ والهجوم المريرِ ، إلا أنَّ ابتسامتهُ لم تفارقِه للحظة ، إلاّ أنَّ الإشارةَ الوحيدةَ التي تَشِي وتدلُ على قلقه وشعورِه بعدمِ الراحةِ هي الارتعاشُ العصبيُّ لأصابِعِه التي كانتْ تعبثُ بأزرارِ معطفهِ ، وكذلكَ الارتعاشُ العصبيُّ من حينٍ لآخرَ يَظهرُ في يدهِ التي يحملُ بها قبعتَه . لقد كان بول دائمَ الابتسامِ ، ودائماً ما يُلقي بنظراتِه حواليهِ ، وذلك على ما يبدو ، بسببِ شعورِه بأنَّ الناسَ يراقبونَه محاولينَ أن يستبينوا وأن يفتشوا عن شيءٍ ما فيه . إنَّ هذا الأسلوبَ من التصرُّفِ الواعي هو بعيدٌ كلَّ البعدِ عن بواعثِ التصرفاتِ الصبيانيةِ ، ولهذا فإنَّ مثلَ هذه التصرفاتِ عادةً ما تُعزى إلى الغطرسةِ أو في حالاتٍ غيرِ هذهِ الحالةِ إلى النباهةِ .

وبينما استمرَّ استجوابُ بول والتحقيقُ معه ، قامَ أحدُ معلميه بتكرارِ ما قالَه بول في أحد تعليقاتهِ الوقحةِ والنابيةِ ، فسألَ المديرُ بول إنْ كانَ يظنُّ أنَّ التحدُّثَ بطريقةٍ لطيفةٍ ودمثةٍ هو أمرٌ خاصٌ بالمرأةِ . فما كانَ من بول إلاّ أنْ هَزَّ كتفيهِ هزاً خفيفاً وارتعشَ حاجِباهُ وأجابَ : لا أعرفُ . لمْ أقْصِدْ أنْ أكونَ لطيفاً أو عكسَ ذلك؟ كلُّ ما أظنُّه أنَّها طريقةٌ خاصةٌ في التعبيرِ عن الأشياءِ

بغضِّ النَّظرِ عن أيِّ شيءٍ آخَرَ.

المديرُ كانَ شخصاً ودوداً ولطيفاً، وقد سألَ هذا المديرُ بول إنْ كانَ له أنْ يفكِّرَ أنه من الأَجدى والأَفضلِ له التَّخلُّصُ مِنْ هذه الطريقةِ في التصرُّفِ. فابْتَسَمَ بول ابتسامةً عريضةً، وأجابَ بأنَّه يظنُّ ذلك. وعندما قيلَ له بأنَّه يستطيعُ الانصرافَ، انحنى بلُطفٍ وانصرفَ. إنَّ انحناءَه هذا كانَ تكراراً لطريقتِهِ المُثيرةِ في ارتداءِ الوردةِ الحمراءِ القرنفليةِ.

لقد أصيبَ مُدرِّسو بول باليأسِ، وعبَّرَ مدرِّسُ الفنِّ عنْ مشاعرِهِمْ جميعاً عندما صرَّحَ بأنَّ هناكَ أمراً ما يلُفُّ هذا التلميذَ والذي لَمْ يفهمْهُ أحدٌ. وأضافَ قائلاً: لا أعتقدُ أنَّ ابتسامتَهُ نابعةٌ بالكليةِ منَ الاحتقارِ، بل إنَّها مسكونةٌ إلى حدٍ ما بشيءٍ يلفُّها فيجعلُها تبدو كذلك. فالفتى ليسَ عنيفاً، لسببٍ واحدٍ. فقد حصلَ لي أنْ علمتُ أنَّه وُلِدَ في كولورادو قبلَ أشهرٍ قليلةٍ من وفاةِ والدتهِ بعدَ صراعِها مع المرضِ لفترةٍ طويلةٍ. هناكَ أمرٌ ما غيرُ مألوفٍ حَدَثَ في حياةِ هذا الشَّخصِ.

لقد أدركَ مدرسُ الفنِّ، أنَّ منْ ينظرُ إلى بول، فإنَّ ما يجلبُ انتباهَهُ ويراهُ فقطْ هو أسنانَهُ البيضاءُ، وتلك القوةُ الآسرةُ والحيويةُ في عينيْهِ. بعدَ ظهرِ أحدِ الأيام الدافئة، ذهبَ بول للنوم على لوحِ الرسمِ الخاصِّ به، وعندما رآهُ معلمُ الرسمِ وهو نائمٌ، لاحظَ بدهشةٍ وجهَهُ الأبيضَ والشرايينَ الزرقاءَ الموجودةَ فيه، وحولَ عينيهِ جلدٌ متجعِّدٌ ومنكمشٌ يشبهُ ما حولَ عينيِّ الرجلِ الكبيرِ في

السنِ ، وشفتاهُ ترتعشانِ حتى في منامه ، وهما مُنقبضتانِ ومُتَيَبِّستانِ بسببِ التَّوتُّرِ العصبيِّ ، ما جعلَهُما ينكمشانِ للأعلى وأَدَّى إلى انكشاف أسنانه .

غادرَ المدرسونَ مبنى الإدارةِ وهم غيرُ راضينَ وحَزانى ؛ إنَّها إهانةٌ لهمْ أنْ يشعروا بالحقدِ وحبٍّ الانتقامِ اتِّجاهَ ولدٍ ليس إلاَّ ، وأنْ يعبّروا عن مشاعرِهِمْ تلك بعباراتٍ واضحة . لقدْ وضعَ كلٌّ واحدٍ مِنَ المعلمينَ زميلَه ، كما لو كانَ الأمرُ ، في لعبةٍ رهيبةٍ من الإسرافِ في اللومِ للذاتِ . لقدْ تذكرَ بعضُهم ما شاهدوهُ من رؤيتِهم لِقطَّةِ شوارعَ بائسة ، أُحيطتْ بحلقةٍ منَ المعذبينَ لها ، فلمْ تجدْ هذه الهرَّةُ أمامَها في هذا الوضعِ الحرجَ إلا الدفاعَ عنْ نفسِها بضراوة .

أما بالنسبةِ لبول ، فأخذَ يركُضُ نازلاً التلَّ وهو يَعْزِفُ بصفيره مقطوعةَ جوقةِ الجنودِ المأخوذةِ منَ المسرحيةِ الملحَّنة فوست ، وكانَ ينظرُ خلفَهُ من حينٍ لآخَرَ بشكلٍ غريبٍ ليرى أنَّه لا يوجدُ أحدٌ يراهُ من مُدرِّسيه ليبقى يتقلبُ تحتَ وطأةِ جَذَلِه وبهجتِه . وبما أنَّ الوقتَ قد تأخرَ مساءً ، وعلى بول أنْ يقومَ في هذا المساءِ بمهمةِ إرشادِ الحضورِ إلى مقاعدِهِم في صالةِ كارنيجي ، فقدْ عزمَ على عدمِ العودةِ إلى بيتِه لتناولِ العَشاءِ . وعندما وصلَ إلى بابِ القاعةِ التي سيقامُ بها الحفلُ الموسيقي وجدَ البابَ مقفلاً ولم يُفتحْ بعد ، وكانَ الطقسُ في الخارجِ قارسَ البرودةِ ، ولهذا قرَّرَ بول الذهابَ إلى الطابقِ الأعلى حيثُ قاعةُ معرضِ الصورِ والتي تكونُ ، في مثلِ

هذهِ الساعةِ ، مهجورةً وخاليةً منَ الناسِ . يُعرضُ في هذِهِ القاعةِ بعض من دراساتِ رافيلي عن مثليِّي الجنسِ في شوارعِ باريس ، وموجودٌ كذلكَ مشهدٌ أو اثنان بلون أزرق خفيف من مدينةِ البندقيةِ ، وكان هذا المشهدُ يُدخِلُ دائماً على قلبِهِ البهجةَ والسرورَ . لقد كانَ مسروراً لعدمِ وجودِ أحدٍ في المعرضِ ما عدا الحارسِ الذي يجلسُ في إحدى الزوايا ، وكانَ يضعُ صحيفةً على ركبتِهِ ، ويضعُ رقعةً سوداءَ على إحدى عينيْهِ وكانَ يغمضُ الأخرى . لقد شعرَ بول بذاتِهِ وبأنَّه يملكُ نفسَه في هذا الجوِّ من السلامِ ، فمشى بثقةٍ ذهاباً وإياباً ، وهو يصفِّرُ بهدوءٍ صفيراً يُسمعُ بصعوبةٍ . وبعدَ برهةٍ من الوقتِ جلسَ أمامَ لوحةِ ريكو الزرقاءِ ونسيَ نفسَه من الدهشةِ ، وعندما استرجعَ ذاتَهُ وفكرَه بعدَ تلكَ الدهشةِ ، ونظرَ إلى ساعتِهِ فوجدَها قدْ تجاوزتْ السابعةَ ، فنهضَ لتوِّهِ وبدأَ بالركضِ إلى الطابقِ السفليِّ مُلقياً بنظرةِ نفورٍ على لوحةِ أوغسطس ، وأطلَّ خارجاً من غرفةِ التجهيزاتِ والعدةِ ، وأعطى إشارةً تدلُّ على البُغْضِ عندما نظرَ إلى لوحةِ زهرةِ ميلو وهو يمرُّ من أمامَها وهو ينزلُ الدَّرَجَ .

عندما وَصَلَ بول إلى غرفةِ ملابسِ المرشدين ، كانَ يوجد فيها ستةُ فتيةٍ ، وبدأ بول بحماسةٍ وبسرعةٍ يلبسُ البزَّةَ النظاميةَ والموحدةَ لطاقمِ المرشدين ، وكانتْ البزَّةُ التي لبِسَها من البزّاتِ القلائلِ التي كانتْ قريبةً من أنْ تكونَ مناسبةً تماماً له ، واعتقدَ بول أنَّها لائقةٌ ومناسبةٌ بالرغمِ من علمِهِ بأنَّ المِعْطَفَ المشدودَ

والمنسدلَ باستقامةٍ بارزٌ عن صدرِه الضَّيقِ ، وكان بول ينظرُ إلى هذا الأمرِ بحساسيةٍ مفرطةٍ . وكان دائماً يبتهجُ كثيراً عندَ ارتداءِ الملابسِ . وبدأَ العزفَ في غرفةِ الموسيقى ، وبدأتْ تُسمعُ في كلِّ مكانٍ المقطوعاتُ الموسيقيةُ التي تكونُ بالضربِ على الأوتارِ ، وكذلكَ المقاطعُ التمهيديةُ منَ الأبواقِ . وبدا بول أنَّه معَ نفسِه وسجاياها في هذهِ الليلةِ ، وأخذَ بمضايقةِ وإزعاجِ الفتيانِ الآخرين ، حتى نَعَتوهُ بالجُنونِ ، ثمَّ قاموا بطرحِهِ على الأرضِ والجُلوسِ عليهِ .

هدأَ بول إلى حدٍّ ما بعدَ قمعِهِ وإخمادِ حماستِه ، ومع هذا فقدْ انطلقَ مسرعاً ليأخذَ مكانَهُ أمامَ الصالةِ لإرشادِ الذينَ وَفَدوا باكراً إلى الحفلِ . كان بول نموذجاً للمرشدِ المثاليِّ ، فقد كانَ لطيفاً ومهذباً ومبتسماً ، ويركضُ ذهاباً وإياباً في الممرَّاتِ التي بينَ الكراسي ، وكانَ يقومُ بخدماتِه بطريقةٍ مُميَّزة ، فكان ينقلُ الرسائلَ ، ويجلبُ النشراتِ كما لو أنَّ هذا العملَ هو الباعثُ على أعظمِ سعادةٍ في حياتِه ، وقد أخذَ كلُّ الحضورِ الذين كانوا في الجزْءِ من الصالةِ التي يقومُ بول بالخدمةِ فيه ، فكرةً عن بول بأنَّه فتى جذّابٌ ورائعٌ ، وقدْ شعرَ بول بأنَّ الحضورَ قد أُعجبوا به وسيذكرونَه . وكلَّما زادَ امتلاءُ الصالة بالحضورِ ، ازدادَ بول نشاطاً وحيويةً ، وازدادتْ وجنتاهُ وشفتاهُ تورُّداً .

لقد بدا الموقفُ وكأنَّ هناكَ حفلَ استقبالٍ عظيماً وبول هو المُضيف . وفي الوقتِ الذي خرجَ الموسيقيون إلى الصالةِ لأخذِ أماكنِهِم ، وصلتْ مدرِّسةُ اللغةِ الإنجليزيةِ ومعها بطاقاتُ مقاعدٍ

لهذا الموسمِ حصلَ عليها صاحبُ مصنع شهير . إلا أنَّ ما بداخلِها من بعضِ الإحراجِ قد ظهرَ عندما سلّمَتِ التذاكرَ لبول ، وأما ما بداخلِها من عجرفةٍ فقدْ جعلَها تشعرُ في ما بعدُ بأنَّها شديدةُ الحماقةِ . ذُهلَ بول للحظةٍ ، ثم انتابَهُ شعورٌ برغبتِهِ بطردِها . ما شأنُها أن تأتيَ إلى هذا المكانِ بين كلِّ هؤلاءِ الناسِ الرائعينَ وهذهِ المظاهرِ البهيجةِ؟ نظرَ إليها نظرةً ثانيةً وبتفحُّص ، ثم قررَّ بأنَّ ما ترتديهِ من ملابسٍ غيرُ مناسبٍ ، وإنَّه بالتأكيدِ لَمِنَ الحماقةِ أنْ تجلسَ بهذهِ الملابسِ في هذا الدورِ السفليِّ حيثُ يقامُ الحفلُ . ربما أُرسلتْ لها هذه البطاقاتُ منْ قَبيلِ الإحسانِ . فكرَّ في الوضع وهو يُرشِدُها إلى مقعَدِها وينزلُهُ لها ، فإنَّ لها الحقَّ نفسه في الجَلوسِ كما هوَ الحالُ بالنسبةِ إليه .

وعندما بدأتِ السمفونيةُ ، انزوى بول إلى أحدِ المقاعدِ الخلفيةِ وغطسَ فيه وتنفَّسَ الصُعَداءَ ، وفقدَ احساسَهُ بما حولَهُ ، كما حدثَ معه أمامَ لوحةِ ريكو . لمْ تكنْ السمفونياتُ كسمفونيات تعني أي شيءٍ خاصةً لبول ، ولكنْ ، ومعَ أوّلِ نغمةٍ تُحْدِثُها الآلاتُ الموسيقيةُ ، كانَ يتحرَّرُ بعض مما في داخلِ بول مِنْ جذَلٍ وروحٍ قويةٍ تصارعُ للتَّحرُرِ ، مَثَلُه في ذلك مثلُ الجنِّيِّ المحبوسِ في قارورةٍ وجدَها صيادٌ عربيٌّ . شعرَ بول فجأة بمتعةِ الحياةِ ، فقدْ كانتْ الأضواءُ تتراقصُ أمامَ ناظريهِ ، وقاعةُ الحفلةِ الموسيقيةِ متألِّقةٌ بروعةٍ لا يمكنُ تخيُّلُها . وعندما جاءَ الأداءُ المنفردُ بأعلى نبرةٍ صوتيةٍ تؤديها امرأةٌ ، نسيَ كلَّ شيءٍ حتّى كراهيتِهِ لوجودِ معلمتِهِ في هذا المكانِ ،

واستسلمَ بالكليةِ للأثرِ العجيبِ الذي يتركُهُ مثلُ هؤلاءِ الناسِ عليه . واتُفِقَ أنَّ امرأةً ألمانيةً هي التي ستقومُ بهذا الأداءِ المنفردِ . وكانتِ امرأةً لا تَنمُّ ملامحُها بأيٍّ حالٍ منَ الأحوالِ على أنَّها في مقتبلِ شبابِها أو أنَّها أمٌّ لعدَّة أطفال ، ولكنَّها ارتدتْ فستاناً متقناً عُني بكلٍّ تفاصيلِه وَوَضعَتْ على رأسِها تاجاً ، وفوقَ ذلكَ أحاطَ بها جوٌّ يُتَعذَّرُ توصيفُه مِنْ مقدرتِها على الأداءِ وإنجازِ الأدوارِ . إنَّها في عالمٍ يتألقُ حواليها ، مما جعلَها في نظرِ بول ملكةً حقيقيةً في عالمِ الرومانسيةِ .

بعد انتهاءِ الحفلةِ الموسيقيةِ ، عادَ بول كما هو دائماً إلى حالتِه من سرعةِ الانفعالِ والكآبةِ والبؤس حتى ينامَ ، ولكنَّه في تلكَ الليلةِ كانَ شعورُهُ بالقلقِ وضيقِ الصدرِ أكبرَ مما اعتادَه . انتابَهُ شعورٌ بأنَّه ليسَ بمقدورِهِ أنْ يتخلى عن تلكَ النَّشوةِ والإثارةِ اللذيذةِ ، بلْ ومنَ المستحيلِ له أنْ يتركَها ، وهي التي يمكنُ أنْ يُقالَ عنها إنَّها الحياةُ . وخلالَ آخرِ فقرةٍ في الحفلِ انسحبَ بول من الصالةِ ، وبعدَ تغييرِ ملابسِهِ على عُجالةٍ في غرفةِ الملابسِ ، خرجَ خلسةً منَ البابِ الجانبيِّ ، حيثُ وقفتِ العربةُ التي ستُقِلُّ الألمانيةَ صاحبةَ الأداءِ المنفردِ . وبدأَ يذرعُ رصيفَ المشاةِ بخُطًى سريعةً ذهاباً وإياباً وهو ينتظرُ خروجَها ليراها .

هناكَ بعيداً يظهرُ فندقُ شينلي في منطقةٍ فسيحةٍ وخاليةٍ ، وبدا هذا الفندقُ كبيراً ومربعاً من خلالِ المطرِ الخفيفِ ، وكانتْ نوافذُ الفندقِ المكونِ من اثني عشرَ طابقاً تتوهجُ بالأنوارِ ،كما يشعُّ

بيتٌ كرتونيٌّ تحتَ أنوارِ شجرةِ عيدِ الميلادِ . وهذا الفندقُ يؤمُّهُ جميعُ أفضلِ الممثلينَ والمغنينَ ، ويمكثونَ فيه عندما يكونونَ في المدينةِ ، ويأتيهِ عددٌ كبيرٌ منْ كبارِ أربابِ الصناعةِ ويعيشونَ فيه خلالَ فصْلِ الشتاءِ . وغالباً ما يبقى بول يتسكعُ حولَ الفندقِ وهو يراقبُ القادمينَ والخارجينَ منه ، متمنياً أنْ يَدخُلَهُ وأن ينتهيَ منْ مُديري المدارسِ ، وأنْ يتركَ خلفَهُ كلَّ ما يسببُ له الإزعاجَ إلى الأبدِ .

وأخيراً خرجتِ المغنيةُ وبصحبتِها المرشدُ والذي ساعدَها على الصعودِ إلى العربةِ ، ثم أَغلقَ البابَ ملقياً عليها بتحيةٍ حارةٍ باللغةِ الألمانيةِ قائلاً : مع السلامةِ ، حتى نراكم مرةً أخرى . وهذا الأمرُ دعا بول للتساؤلِ عما إذا كانتْ هذه المغنيةُ حبيبةً له ، أي لبول ، في السّابقِ . تبعَ بول العربةَ حتى الفندقِ ، ومشى بسرعةٍ حتى لا يكونَ بعيداً عن مدخلِ الفندقِ عندما تترجلُ المغنيةُ من العربةِ وتختفي خلفَ الأبوابِ الزجاجيةِ المتأرجحةِ ، والتي تُفتحُ بزنجيٍّ يرتدي قبعةً ومعطفاً طويلاً . في اللحظةِ التي فُتحَ فيها البابُ جزئياً ، شعرَ بول بأنّه قدْ دخلَ هو أيضاً . بدا لبول بأنّه شعرَ بنفسِهِ بأنّه يتبعُها وهي تصعدُ الدرجاتِ إلى حيثُ المبنى المُضاءِ والدافئِ ، وإلى مناطقِ العالمِ المداريةِ ، هذا العالمُ الغريبُ المتألقُ والمشرقُ والذي يتلألأُ فيه كلُّ ما تراهُ وسهولةَ التمتُّعِ والشعورِ بالراحةِ فيه . أخذَ يفكّرُ في أطباقِ الطعامِ الغريبةِ التي تُجَلبُ إلى غرفةِ الطعامِ ، بالزجاجاتِ الخضراءِ في دلاءٍ مملوءةٍ بالثلجِ كتلكَ التي رآها في

صورٍ لحفلِ عشاءٍ في مُلحَقِ مجلةِ عالم الأحد . هبتْ عاصفةٌ من الريحِ بسرعةٍ ، وجلبتْ معها نزولَ المطرِ مع شدةٍ مفاجئة ، وأُصيبَ بول بالدهشةِ لأنهُ وجدَ نفسَه مازالَ في العراءِ وفي الوحلِ الطينيِّ لأرضيةِ الشارعِ المفروشِ بالحَصَى ، وهذا الشارعُ هو الطريقُ الخاصُّ للفندقِ والذي يتفرعُ من شارعٍ عامٍّ ، وكان حذاؤُه يُسرِّبُ الماءَ ، والتصقَ معطفُهُ المتواضعُ والخفيفُ ، والذي صارَ مبللاً ، بجسمه . أُطفئتْ الأنوارُ الموجودةُ أمامَ صالةِ الحفلاتِ الموسيقيةِ ، وأخذَ المطرُ النازلُ يُشكِّلُ حواجزَ بينَهُ وبينَ رؤيتِه للأنوارِ البرتقاليةِ المتوهجةَ والآتيةِ من الشبابيكِ فوقَه . هناكَ ، في ذاكَ المكانِ ، ما يرغبُه ويحبُه ، وهو موجودٌ وحقيقةٌ أمامَ ناظريهِ كمثلِ عالمِ الجنِّ في مسرحيةِ عيدِ الميلادِ الإيمائية ، ولكنَّ الأرواحَ الساحرةَ تقفُ حارسةً على الأبوابِ . كانَ بول يفكِّرُ في هذهِ العوالمِ والمطرُ يضربُ وجهَهُ ، وتساءَل بول وهو يبحثُ عن إجابةٍ إنْ كانَ قَدَرهُ دائماً أنْ يرتجفَ من البردِ في العراءِ في هذهِ الليلةِ الظلماءِ .

استدارَ بول ومشى على مضضٍ نحوَ الطرُقِ التي تسلُكُها السيارات . النهايةُ لا بدَّ أنْ تأتي في وقتٍ منَ الأوقاتِ وتتضمنُ : والدَه في ملابسِ النوم يقفُ على رأسِ الدرجِ ، تفسيراتٍ لا تُفسِّرُ شيئاً ، إختلاقَ بول لأحداثٍ خياليةٍ بشكلٍ ارتجاليٍّ تجعلهُ يتلعثمُ باستمرارٍ ، غرفةَ نومِ بول في الطابقِ العلويِّ منَ البيتِ ، وجدرانَها المكسوَّةَ بالورقِ الأصفرِ الكريهِ ، والصريرُ الذي تحدثُه المنضدةُ ، ووجودُ صندوقٍ لِيَاقةِ العنقِ والمصنوعِ منْ نسيجِ البلشِ ذي لونٍ

زيتيٍّ ، وفوقَ سريرِه الخشبيِّ المطليِّ عُلقتْ صورٌ لجورج واشنطن وأخرى لجون كالفن ، ووُضعَ شعارٌ «أطعم حِمْلاني» في إطارٍ عملَتْهُ أمُّه مما نسجتْه من الصُّوفِ الأحمرِ .

وبعد نصفِ ساعة ، ترجَّلَ بول من السيارةِ التي أقلَّتْه ، ومشى ببطءٍ في أحد الشوارعِ الجانبيةِ قبالةَ الطريقِ الرئيسيةِ . هذا الشّارعُ محترمٌ للغايةِ ، فكلُّ البيوتِ فيه لها الشَّكلُ نفسه بالضَّبطِ وبلا استثناءٍ ، ويسْكُنُه رجالُ أعمالٍ متوسطو الدخلِ ينجبونَ ويربون أسراً كبيرةً فيها عددٌ كبيرٌ من الأطفالِ ، وجميعهم يُرسَلونَ إلى مدارسِ السبتيين ، ويدرسونَ هناكَ كُتيباً يحتوي على التعاليمِ الدينيةِ على شكلِ سؤالٍ وجوابٍ ، وكلهم يهتمون بتعلُّم الحسابِ . وكما أنَّ بيوتَهم متشابهةٌ تماماً ، وكذلك كلُّهمْ متناسقونَ ومتناغمونَ بطريقةِ عيشِهم الرتيبةِ . لمْ يحصلْ لبول أن جاءَ إلى شارعِ كورديليا حيثُ يقعُ بيتهم دونَ أنْ يُصابَ برعشةٍ من الكراهيةِ ، وإنَّ بيتهم يقعُ بجانبِ بيتِ كاهنِ كمبرلاند . اقتربَ بول من بيتِه ليلاً وشعور بالهزيمةِ يُفقدهُ أعصابَه . إنه يشعرُ باليأسِ وفقدانِ أيِّ أملٍ . إنه يشعرُ دائماً ، وكلَّما رجعَ إلى بيتِه ، بأنَّه يغرقُ وإلى الأبدِ ، في حياةٍ قبيحةٍ ورتيبةٍ . شعر بول لحظة دخولِه إلى شارعِ كورديليا بأنَّ كل الحزنِ والمصائبِ قد وقعت عليه . فبعدَ كلِّ عربدةٍ وإسرافٍ في الشرابِ أو الجنسِ ، كانَ يقاسي بول من كلِّ أنواعِ الاكتئابِ الجسديِّ ، والذي يعقبُ كلَّ فسقٍ وانغماسٍ في الشّهواتِ والملذاتِ الجسديةِ . كانَ بول يُبغضُ احترامَ فراشِ الزوجيةِ والطعامَ العاديَّ

والبيتَ الذي تتغلغلُ فيه رائحةُ الطعامِ المنبعثةُ من المطبخ. وكانَ بول يرتعدُ اشمئزازاً مما ليسَ له نكهةٌ، أو أي شيءٍ بلا لونٍ ممّا هو موجودٌ في الحياةِ اليوميةِ. وكانتْ لديهِ رغبةٌ غيرُ سويةٍ في الأشياءِ الباردةِ والأضواءِ الخافتةِ والورودِ النّضرةِ.

وكلما اقتربَ بول من بيتِه أكثرَ فأكثرَ، ازدادَ لديهِ الشعورُ بأنَّ كلَّ ما يقعُ تحتَ ناظريْهِ في بيتِه بشعٌ، ولا يُضاهَى على الإطلاقِ. فهناكَ غرفةُ نومِه القبيحةُ، والحمامُ الباردُ وحوضُه الوسخُ المصنوعُ من الزنكِ، والمرآةُ المشقوقةُ، وصنابيرُ المياه التي ينقطُ منها الماءُ بلا توقفٍ، ووقوفُ والدِهِ على رأسِ الدرجِ، وظهورُ شَعْرِ رجليْهِ خارجاً من ملابسِ نومِهِ، وقدماه المغروزتانِ في شبشبٍ ناعمٍ أعلاه مصنوعٍ من الصوفِ أو قماشٍ سميكٍ. لقد تأخرَ بول عن العودةِ إلى البيتِ كثيراً، وأكثرَ منَ المعتادِ، ولذلك سيكونُ هناك، وبالتأكيدِ، استفساراتٌ وتوبيخٌ. توقّفَ بول قليلاً أمام البابِ. شعرَ بول بأنّه لا يمكنُ في هذه الليلِ أنْ يُدنى منه أو أن يُخاطبَ بطريقةٍ عدوانيةٍ من قِبَلِ والدِه. وكذلك لا يمكنُه أن يرميَ بنفسِه مجدداً على ذلك السريرِ المزري. إنّه لنْ يدخلَ. سيقولُ لوالدِه بأنّه لمْ يكنْ معَه أجرةُ راكبٍ، وكانت تمطرُ بغزارةٍ، مما اضطرّه للذهابِ مع أحدِ الفتيةِ والبقاءِ عندَه طوالَ الليلِ.

في ذلكَ الوقتِ المتأخرِ من الليلِ، كان بول مبللاً وبارداً. ذهبَ إلى الجهةِ الخلفيةِ من المنزلِ، وحاولَ فتحَ أحدِ شبابيكِ الطابقِ السفليِّ، فوجدَها مفتوحةً، فرفعَها بحذرٍ، وتسللَ منها إلى

حائط القبْوِ ومن ثمَّ إلى أرضيةِ الطابقِ . وقفَ هناكَ وهوَ يحبسُ أنفاسَهُ ، وشعرَ بالرعبِ من الصوتِ الذي أحدثَه ، ولكنَّ السكونَ كانَ يعمُّ الطابقَ الأعلى ، ولم يكنْ هناكَ أيُّ صوتِ صريرٍ لفتحِ بابٍ أو نحوهُ على الدرجِ . وجدَ بول صندوقَ صابونٍ ، فحملَهُ نحو دائرةِ الضوءِ الخافتِ المنبعثِ من بابِ الفرنِ ، فوضعَ الصندوقَ هناك وجلسَ عليه . لقد كانَ بول يخافُ بشكلٍ مُرعبٍ من الفئرانِ ، ولهذا فلمْ يحاولِ النومَ ، وإنَّما جلسَ ينظرُ بريبةٍ في الظلام ، ولكنَّه مازالَ مرعوباً خشيةً من احتماليةِ أن يكونَ قد أيقظَ والدَه . في مثلِ ردودِ الأفعالِ هذه ، وبعدَ واحدةٍ من تلكَ التجاربِ التي جعلتْ لياليَ بول وأيامَه تخرجُ من قائمةِ تقويمِه الخاويةِ والكئيبةِ ، وعندما تخدرتْ حواسُه بسببِ البردِ القارسِ ، فإنَّ رأسَ بول هو الوحيدُ في جسمِه الذي بقيَ خارجَ التخدُّرِ ومحافظاً على وعيِه باستمرارٍ ، وبدأ يتساءلُ عن افتراضاتٍ تخيَّلَها : افترضَ أنَّ والدَهُ قدْ سمعَه عندما دخلَ من النافذةِ ، ثم نزلَ إلى الطابق السفليِّ ، وأطلقَ النارَ عليْه ظانَّاً أنه لصٌ؟ ثم ، مرةً أخرى ، افترضَ أنَّ والدَه نزلَ إلى الطابقَ السفليِّ وفي يدِه مسدسٌ ، فصرخَ بول في الوقتِ المناسبِ من أجلِ أنْ يُنقذَ نفسَه ، وقد أصيبَ والدُه بالفزعِ من فكرةِ كيفَ أنَّه كانَ قريباً من قتْلِ ابنهِ؟ ثم افترضَ مرةَ أخرى بأنَّه سيأتي يومٌ يتذكَّرُ والدَه تلك الليلةِ ، ثم يتمنَّى الوالدُ لو لمْ تكنْ هناكَ صرخةَ تحذيرٍ كفَّتْ يدَه عن قتْلهِ؟ بهذا الافتراضِ الأخيرِ عَمِلَ بول على تسليةِ نفسِهِ وإلهائِها حتّى طلوعِ الفجْرِ .

كـان يومُ الأحـدِ الذي تلا تلكَ الأحـداثِ يوماً لطيـفاً . فبـردُ تشرينَ الثاني القارسُ والذي ملأَ الشهرَ قد كُسِر بومضةٍ أخيرةٍ من الدفءِ من الأيامِ الصـائفـةِ التي تكونُ في فـصلِ الخـريفِ . في الصباحِ ، كـانَ على بول الذهابَ إلى الكنيسةِ ومدرسةِ السبتيين كما يفعلُ دائماً . اعتاد سكانُ شارعِ كورديليا دائماً ، وبعدَ ظهرِ أيامِ الآحادِ التي يكونُ الطقسُ فيها مناسباً في ذاكَ الفصلِ من السنةِ ، الجلوسَ على مصاطبِ الدرجِ الأمـاميِّ لبـيوتهِم ، ويتـحـدثونَ مع جـيـرانِهـم الذين يجلسـونَ مـثلَهم على درجِـهـم ، أو قـدْ يدعـونَ جيـرانَهم في الجهـةِ المقابلةِ من الشارعِ في الحيِّ الراقي للحـديثِ معهم . يجلسُ الرجالُ عادةً على وسائدَ زاهيةٍ توضعُ على درجاتِ الدرجِ والذي يؤدي إلى رصيفِ المشاةِ ، بينمـا تلبسُ النسـاءُ ثوبَ الأحـدِ[٣] ، وكـنَّ يجلسْنَ على كـراسي هزَّازةٍ على الشـرفـاتِ الضيقةِ ، ويتظاهرْنَ وكأنهنَ مسروراتٌ ومرتاحاتٌ إلى أبعدِ الحدودِ . كانَ الأطفالُ يلعبونَ في الشوارعِ ، وكـانتَ أعدادُهم كـبيرةً ، حتى أصبحتْ تلكَ الشوارعُ الغاصةُ بالأولادِ شبيهةً بالأماكنِ المخصصةِ للعبِ الأطفالِ وتسليتهم في رياضِ الأطفالِ . جلسَ الرِّجالُ على الدَّرجِ ، وجميعهم يلبسونَ القمصانَ ذواتِ الأكمامِ ، وأزرارُ معطفِهم محلولَةٌ ، وكانوا يجلسونَ وقدْ باعدَ كلٌّ منهم ما بينَ ساقيهِ بشكلٍ

(٣) ثوبُ الأحدِ هو عبارةٌ عن ثوبٍ من قطعةٍ واحدةٍ تغطي الجسمَ من الكتفينِ والرقبةِ وحتى الخصر .

كبير ، وكانتْ بطونُهم بارزةً ، وقد أرخَوْها على راحتِها وتحدثوا عن أسعارِ الأشياءِ ، وكانت هناك حكاياتٌ عن حكمةِ عددٍ من رؤسائِهم وأسيادِهم . وبينَ الحين والآخَرِ ، كانوا يلقونَ بنظراتِهم على الأعدادِ الكثيرةِ من الأولادِ المتشاجرين ، ويستمعونَ بحبٍ وحنانٍ إلى الأصواتِ ذاتِ النبرةِ العاليةِ والأصواتِ الأنفيةِ الحادةِ لأولادهم . كانوا يبتسمونَ لرؤيتِهم ميولَهم ونزعاتِهم قدْ أُعيدَ إنتاجُها في ذرِّياتِهم ، ويُرصِّعون حكاياتِهم الأسطوريةَ عن الملوكِ الأشداءِ بإبداءِ ملاحظاتٍ عن تقدُّمِ أولادِهم في التحصيلِ المدرسيِّ ، وذكرِ درجاتِهم في مادةِ الحسابِ ، والمبلغِ الماليِّ الذي وفَّروهُ في حصَّالاتِهم .

في يومِ الأحدِ الأخيرِ من شهرِ تشرينَ الثاني ، جلسَ بول طوالَ فترةِ ما بعدَ الظهرِ على أدنى درجةٍ من درجاتِ بيتِه ومُسرِّحاً بنظرِهِ في الشارعِ ، بينما كانتْ أخواتُه يجلسْنَ على كراسيهنَ الهزازةِ ويتحدثنَ مع جاراتِهِن بناتِ الكاهنِ عن عددِ ما حِكْنَهُ من قمصانٍ نسويةٍ في الأسبوعِ الماضي ، وعن عددِ قطع كعكِ الوفلِ(٤) والتي أكلَها شخصٌ ما في آخرِ عشاءٍ في الكنيسةَ . عندما يكون الجوُّ دافئاً ، ويكونُ والدُ بول في مزاجٍ مرحٍ ، وحالتُه النفسيةُ سعيدةً ، وبشكلٍ واضحٍ ، تقومُ البناتُ بإعدادِ عصيرِ الليمونِ

(٤) كعك الوفل هو كعك مكون من الدقيق والحليب والبيض والتي تُحمَّص في أداة تحميص خاصة .

المحلّى ، والذي يوضعُ دائماً في إبريقٍ زجاجيٍّ أحمرَ اللونِ لتقديمِه ، ومزين بوردة «لا تنساني بتاتاً» بطلاءٍ لونُه أزرق . وكانت البناتُ يعتقدْنَ بأنَّ الإبريقَ يبدو رائعاً ، إلاّ أنَّ الجيرانَ اعتادوا دائماً على التّندُّر على اللون المشبوه للإبريق .

في ذلك اليوم ، جلسَ والدُ بول على أعلى درجةٍ من درجِ البيتِ ، وكانَ يتحدَّثُ مع رجلٍ شابٍ ينقّل طفلاً مضطرباً وغير مرتاحٍ منْ ركبةٍ إلى أخرى . واتفقَ أنَّ هذا الشابَ هو الذي يضَعه بول أمامَهُ كنموذج ومثلٍ أعلى ، وإنَّ مِن أعَزِّ أمنياتِ والد بول أن يتخذ بول هذا الشاب أنموذجاً يُحتذى ويُحاكى . كان وجه هذا الشاب متورداً ، وشفتاه مزمومتينِ وحمراوينِ ، وعيناه باهتتينِ ومصابتين بقِصَرِ النَّظرِ ، فوضعَ فوقَهُما نظاراتٍ سميكة ، وكانَ الجزءُ من إطارِ النظارةِ والذي يتقوسُ فوقَ الأذنِ ذهبيَّ اللونِ . وكانَ هذا الشابُّ يعملُ في مكتبِ شخصٍ ذي مكانةٍ في شركةِ صلبٍ ضخمةٍ ، وكانَ يُنظرُ إليه في شارعِ كورديليا كشابٍ ذي مستقبلٍ واعدٍ . هناك قصةٌ حدثتْ قبلَ خمسِ سنواتٍ ، وعمرُهُ الآنَ يصلُ ، بالكادِ ، إلى السادسةِ والعشرينَ . فقدْ كانَ يبذلُ جهدَه ووقتَه في انغماسهِ بشهواتٍ تافهةٍ ، ولكي يكبحَ جماحَ تلك الشهواتِ ، ويُنقذَ نفسَه مما يضيِّعُه من وقتٍ وطاقةٍ في انغماسهِ في حماقاتِ الشبابِ وشهواتِه ، وما يستتبعُ ذلك ، أخذَ بنصيحةِ رئيسهِ ، والتي يكرِّرُها على مسامع مستخدَميه . لقد تزوجَ بأولِ امرأةٍ وعمرهُ إحدى وعشرون سنةَ ، والتي أقنعَها أن تقاسِمَه نصيبَه في الحياةِ

الدنيا بحلْوِها ومُرِّها ، وقدْ كانتْ نحيلةً وتعملُ كمعلمةٍ ، وكانتْ أكبرَ بكثيرٍ منه ، وتضعُ على عينيْها نظاراتٍ سميكةً ، وحتى تلكَ الفترةِ التي تحدَّثَ فيها عن قصَّتِه ، فقدْ أنجبتْ له هذهِ المرأةُ أربعةَ أولادٍ ، وكلُّهم مثلُها يعانون من قصرٍ في النظرِ .

روى هذا الشابُ كيفَ أنَّ مديرَهُ في العملِ هو الآنَ في رحلةٍ يجوبُ بها مياهَ البحرِ الأبيضِ المتوسطِ ، ومع هذا فهوَ على اتصالٍ دائمٍ بمركزِ عملِه وعلى معرفةٍ تامةٍ بكلِّ التفاصيلِ هناك ، ويقومُ بترتيبِ ساعاتِ أعمالِه في مكتبِه من على يختِه ، كما لو كانَ في بيتِه . وقد كان هذا المديرُ يقومُ بكلِّ أعمالِه وينجزُها ، وكان عملُه كافياً لإشغالِ كاتبيْن على آلتيِّ اختزالٍ . وبدوره فإنَّ والدَ بول أرادَ أنْ يروي قصةً عن خطة أخذتْها الشركةُ التي يعملُ فيها بعينِ الاعتبارِ ، وهي عبارةٌ عن تأسيسِ مُنشأةٍ لمحطةِ سكةِ حديدٍ كهربائيةٍ في القاهرةِ . عند سماعِ بول بذلك ، أطبقَ فكيهِ بحدَّةٍ وخرجتْ طقطقةٌ من أسنانِه . استشرفَ بول أمراً مرعباً سيحدثُ ألا وهو أنَّ هؤلاءِ ربما سيُفسِدون كلَّ شيءٍ قبلَ أنْ يتمكَّنَ من الذهابِ إلى هناكِ . ومع هذا فإنَّه يُحبُّ أنْ يسمعَ لهذهِ الأساطيرِ عن الملوكِ الأشدَّاءِ ، والتي تُروى ثم يعادُ سردُها مرّاتٍ ومرّاتٍ في أيامِ الآحادِ وأيامِ العُطَلِ . هذه الحكاياتُ التي تُسرَدُ تشملُ قصصاً عن قصورٍ في مدينةِ البندقيةِ ؛ عن يخوتٍ في البحرِ الأبيضِ المتوسطِ ؛ عن مسرحياتٍ بهيجةٍ في مونتِ كارلو تسترعي انتباهَه وتجذبُ خيالَه . كان بول مهتماً بنجاحاتِ المراسلين في المتاجرِ

الكبيرةِ للبيع بالتجزئةِ ، والذين ينقلونَ الأموالَ التي يأخذُها موظّفُ المبيعاتِ من الزبائنِ إلى أمينِ الصندوقِ ويعودُ بما تبقّى من الأموالِ للزبائنِ ، وقدْ أصبحَ بعضُ هؤلاءِ مشاهيرَ ، بالرَّغمِ من أنَّ بول ليسَ عندَه أيُّ اهتمام بالمراسلين الذينَ يشتغلونَ في المسرحِ .

بعدَ انتهاءِ العشاءِ ، وبعدَ أنْ قامَ بول بالمساعدةِ على تجفيفِ الأطباقِ ، طلبَ من والدِه بطريقةٍ عصبيةٍ إن كانَ في استطاعتِه أنْ يزورَ جورج ؛ ليحصلَ على مساعدتِه في مادةِ الهندسةِ ، وطلبَ بول وبشكلٍ أكثرَ عصبيةٍ من والدِه أن يعطيَهُ أجرةَ الركوبِ في وسائلِ المواصلاتِ ، وكررَّ طلبَه الأخيرَ ، مع العلمِ أنَّ والدَه ، ومن حيثُ المبدأ ، لا يرغبُ في أنْ يسمعَ الطلباتِ من أجلِ المالِ ، سواءٌ أكانَ المبلغُ المطلوبُ قليلاً أو كثيراً . وسألَ والدُ بول ابنَه ما إذا لمْ يكنْ بإمكانِه الذهابُ إلى أحدٍ من زملائِه والذي بيتُه أقربُ من بيتِ جورج . وقال لبول بأنَّ عليه ألا يتركَ واجباتِه المدرسيةَ حتى يومِ الأحد . ولكنَّه أعطاهُ عُشْرَ دولار . إنَّ والدَ بول ليسَ بالرجلِ الفقيرِ ، ولكن لديه طموحٌ وجيهٌ وهو أن يتطورَ وينمو في هذا العالمِ . وإنَّ السَّببَ الوحيدَ وراءَ سماحِه لابنِه بول بالعملِ كمرشدٍ للحضورِ هو اعتقادُه بأنَّه يَحْسُنُ بالولدِ أن يكسبَ الأموالَ ولو كانتْ قليلةً .

اتجهَ بول نحوَ الطابقِ العلويِّ ، وقامَ بفركِ يديهِ وتنظيفِهما باستخدامِ صابونٍ ذي رائحةٍ مقززةٍ يكرهُها ، وذلك مما عَلِقَ عليهما من رائحةِ الشحمِ الذي أتاهُما من الماءِ الذي غُسلتْ به الأطباقُ ،

ثمَّ قامَ بنثرِ قطرات قليلة من ماءِ البنفسجِ على أصابع يديهِ من زجاجة حفظَها مخبأةً في دُرْج جاروره. خرجَ بول من البيتِ وهو يضعُ كتابَ الهندسةِ تحتَ إبطهِ بشكلٍ بارزٍ وواضحٍ للعيانِ، وفي اللحظةِ التي خرجَ فيها من شارعِ كورديليا، وركبَ في السيارةِ المُتَّجهةِ إلى مركزِ المدينة التجاريِّ، نفضَ عن كاهِلِه يومين من البلادة وفقدانِ الحيويةِ وبدأَ يعيشُ الحياةَ من جديد.

إنَّ الفتى الذي يترأسُ الممثلين لِدَوْرِ الأحداثِ واليافعين في الفرقةِ الدائمةِ للتمثيلِ، والتي تقومُ بالعُروضِ في مسرحٍ وسطَ المدينةِ هو من معارفِ بول. وقد دُعيَ الفتى بول لحضورِ التمارين لاختبارِ الممثلين وجاهزيتهم للتمثيلِ، والتي تقامُ في ليالي الآحادِ، وذلك وقتما يشاءُ، وحينما يستطيعُ إلى ذلك سبيلاً. قضى بول أكثرَ من سنة، وفي أيةِ لحظةٍ متوفرةٍ لديه، وهو يحومُ حولَ غرفةِ شارلي إدوارد لإعدادِ الممثلين للمسرحِ، وقد وجدَ بول مكاناً له كأحدِ أتباعِ شارلي، ليس فقطْ لأنَّ شارلي ذاك الممثلَ الشابَ، والذي لا يملكُ صلاحيةَ توظيفِ مُعدٍّ للمثلين، قد وجدَ بول دائماً مفيداً، ولكنَّه أدركَ أنَّ في بول شيئاً يميِّزُه، وهذا الشيءُ الخاصُّ به يمكنُ وصفُهُ بمصطلح يستعمِلُه رجالُ الكنيسةِ وهو النِّداءُ الباطنيُّ، وهو شعورُ المرءِ بأنَّه مدَّعوٌّ للقيامِ بعملٍ ما.

في هذا المسرحِ وفي صالةِ كارنيجي عاشَ بول حياتَه الحقيقيةَ، وما عدا ذلك فالحياةُ عندَه لا تساوي شيئاً، ولا تعدو أنْ تكونَ إلا سباتاً ونسياناً. هذه قصةُ بول الخياليةُ وهي بالنسبةِ له

تحتوي على كلِّ عناصرِ الإغراءِ والفتنةِ الموجودةِ في قصةِ حبٍ سريٍّ . في اللحظةِ التي يستنشقُ فيها بول روائحَ الغازِ والطلاءِ من أصباغٍ وغيرِها والغبارِ الموجودةِ من وراءِ ستارِ المشاهدِ المسرحيةِ ، فإنَّه يتنفسُ تنفُّسَ الصعداءِ كشخصٍ مسجونٍ أُطلِقَ سراحُه ، ويشعرُ في داخلِه بإمكاناته على عملٍ وقولِ أشياءَ شاعريةٍ تكونُ رائعةً ومتألقةً . وفي اللحظةِ التي تَنْطَلِقُ فيها الفِرْقةُ الموسيقيةُ بالضربِ على آلاتِها الموسيقيةِ باستهلالٍ موسيقيٍّ مأخوذٍ من المسرحيةِ الملحَّنةِ مارثا ، أو عندما يُعزَف اللحنُ العنيفُ والذي يُهَزُّ هزّاً في الليلِ وفي الهواءِ الطلقِ والمأخوذِ من المسرحيةِ الملحَّنةِ ريجوليتيو ، فإن بول يشعرُ بأنَّه يَنفضُ عن نفسِه كلَّ ما يُثقلُ كاهلَه من أمورٍ تافهةٍ وكريهةٍ ، ويشعرُ بكلِّ حواسِّه بالتمتُّعِ والسعادةِ ، بل ويشعرُ بأنَّ أحاسيسَهُ مرهفةٌ وتتَّقد بذلك .

لقد بدا لبول أنَّ وجودَ عنصرٍ اصطناعيٍّ معيّنٍ هو ضروريٌّ للجمالِ . ربما أنَّ سببَ تلكَ الفكرةِ لديه يعودُ إلى اعتقادِه أنَّ كلَّ ما هو طبيعيٌّ في عالمِه ، تقريباً وبشكلٍ دائم ، يرتدي زيّاً من القبحِ . ورُبّما أنَّ سببَ تلكَ الفكرةِ هو تجربتُه في الحياةِ في أماكنَ أخرى ، والتي كانتْ حافلةً بالنزهاتِ في مدرسةِ السّبتيين ، وبأمورٍ اقتصاديةٍ بسيطةٍ وصغيرةٍ ، وبالنصائحِ المفيدةِ عن كيفيةِ النجاحِ في الحياةِ ، وبروائحِ الطبخِ التي لا مناصَّ منها . لهذا وجدَ بولَ أنَّ وجودَه في ذاكَ المسرحِ مُغرٍ وفاتنٌ للغايةِ ، ففيه يلبسُ الرجالُ والنساءُ الملابسَ الأنيقةِ والجذابةِ لأبعدِ الحدودِ ، وقد حرّكهُ من

الداخلِ وأثارَ أحاسيسَهُ بساتينُ التفاحِ المتلألئةِ تحتَ الضوءِ المنبعثِ من المسرحِ والتي تزهرُ بشكلٍ دائمٍ وبلا انقطاع .

وإنَّه من الصعوبةِ بمكانٍ التعبيرُ بطريقةٍ كافيةٍ ومؤثرةٍ عن قناعةِ بول الراسخةِ بأنَّ بوابةَ ذاكَ المسرحِ هي مدخلٌ حقيقيٌّ للحياةِ الرومانسيةِ بما فيها من خيالٍ وعاطفةٍ وحُبٍ . ولم يشكّ أحدٌ من فرقةِ المسرحِ في ذلك ، وكانَ أكثرُهمْ يقيناً بما يكنّه بول لذاك المسرحِ هو شارلي إدوارد . إن ذاكَ المسرحَ وحياةُ بول فيه كانت بالنسبة إليه تشبهُ الحكاياتِ القديمةَ التي كانتْ تُسردُ وتُتَناقَلُ حول لندن وعن وجودِ يهودٍ أثرياءَ بشكلٍ خياليٍّ ، وكانوا يمتلكونَ صالاتٍ وغرفاً تحت الأرضِ ، فيها أشجارُ النخيلِ والينابيع والقناديلِ الخافتةِ والمريحةِ للنظرِ ، ونساءٌ يلبسنَ الملابسَ الأنيقةَ والتي تدلُّ على ترفهنَّ ، وهؤلاء النسوةُ لم يحدث أن شاهدْنَ أضواء نهارِ لندنَ والتي تُذهِبُ كلَّ سحرٍ وفتنةٍ . وهكذا ، ومِنْ وسطِ هذه المدينةِ المغطاةِ بحجابٍ قاتمٍ وكثيفٍ من الدخان ، وما فيها من شخصياتٍ فاتنةٍ وأخرى كادحةٍ وكالحةٍ يكسوها السخامُ ، وجد بول مَعْبَدَهُ السِّرِّيَّ ، وبساطَ ريحِهِ ، وجزءاً صغيراً من شاطئِ البحرِ الأبيضِ المتوسط ذي اللونين : الأزرقِ والأبيضِ ، حيثُ يستحمُّ هناكَ تحتَ أشعةِ الشَّمسِ الدائمةِ .

صارَ عندَ عددٍ من معلمي بول نظريةُ مفادُها أنَّ خيالَ بول قد فسدَ بفعلِ خيالهِ المتوهجِ ، ولكنَّ الحقيقةَ هيَ أنَّ بول نادراً ما كان يقرأ . فالكتب الموجودة في منزلِه ما كانتْ سبباً في إغوائِه أو إفسادِ

عـقلهِ الفتيِّ الغضِ . أما بالنسبةِ لقراءةِ بول للقصصِ التي حثَّه بعضُ أصحابِه على قراءَتها ، فقدْ وجدَ ضالَتَه بشكلٍ أسرعَ وأكثرَ في الموسيقى ، وفي أيٍّ نوعٍ من الموسيقى ، من المسرحيةِ الملحَّنة إلى موسيقى الأرغن اليدويِّ . ما يحتاجُه بول هو الألقُ والبريقُ والإثارةُ التي لا توصفُ والتي تجعلُ لخيالِهِ اليدَ العُليا على ما يدركُه عن طريقِ الحواسِ ، وما يمكِّنُه من صياغةِ حُبَكٍ وتصورات كافيةٍ له وخاصةٍ به . وبقدرٍ مُساوٍ من الحقيقةِ فلَمْ يكنْ بول بتاتاً ، وعلى أيِّ حال ، مهووساً بالمعنى المُتَعَارَفِ عليه لهذا التعبيرِ . لم تكنْ لبول الرغبةُ في أن يصبحَ ممثلاً ، ولم تكن رغبتُه في أن يصبحَ موسيقاراً أكثرَ من رغبتِه في أن يصبحَ ممثلاً ، ولم يشعرْ بضرورةِ القيامِ بأيٍ من هذه الأشياء . ما كانَ يرغبُه بول هو النظرُ والانغماسُ في هذا الجو ، وأنْ يلتصقَ بموجةِ ذاك المسرحِ ، وأن تَأخذَهُ تلك الموجةُ معها فرسخاً بحرياً إِثْرَ فرسخٍ بحريٍّ بعيداً عن كل شيء .

في يومٍ من الأيامِ ، وبعدَ أن قضى بول ليلةً من الليالي في الكواليسِ الخلفيةِ للمسرحِ ، وجدَ في نفسِهِ كراهيةً واشمئزازاً من صفِّه المدرسيِّ بشكلٍ لم يسبقْ له مثيلٌ ، فأرضيتُه غيرُ مفروشةٍ ، وجدرانُه مجردةٌ وخاليةٌ من أي شيءٍ ، وأما الرجالُ في المدرسةِ من أساتذةٍ وطلابٍ فقد صاروا عندَه مبتذلين ومضجرين ، فلم يَرْتَدِ أحدُهم تلك المعاطفَ الرجاليةَ ، ولم يضعوا ورودَ البنفسجِ في عرواتِ أزرارِهم كما يفعلُ من في المسرحِ ، وأما النساءُ من

مدرسات وطالبات فهن يرتدينَ الملابسَ الباهتةَ وأصواتُهُنَّ حادةٌ صاخبةٌ ، والمدرسون يهتمون بشكلٍ جادٍ يُرثى له بحروفِ الجرِّ ، وتحكُّمُها بصيغةِ الجارِّ والمجرور . لم يعدْ بول يتحمَّلُ في أنْ يظنَّ زملاؤُه الطلبةُ ، ولو للحظةٍ واحدة ، بأنَّهُ يأخذُ أولئكَ الناسَ من مُدرِّسيْه على محمَلِ الاهتمام والجدِّ ، بل كانَ يعتقدُ أنه لا بدَّ له مِنْ أنْ يُوصِلَ لهم رسالةً مُفادُها أنَّه يعتبرُ كلَّ ما يتعلقُ بالمدرسةِ تافهاً ، وعلى كلِّ حال ، فإنَّه في ذاك المكانِ ، أي في المدرسةِ ، هو موجودٌ على سبيلِ الفكاهةِ والدعابةِ ليس إلاّ . كان بول يعرضُ على زملائِه في الصفِ صوراً لجميعِ أعضاءِ فرقةِ المسرحِ ممهورةً بتوقيعاتِهم ، وكانَ يُخبرهُم بأكثرِ القَصَصِ البعيدةِ عن التصديقِ المتعلقةِ بمدى علاقتِه الحميميةِ بأولئكِ الناسِ وهم أعضاءُ فرقةِ المسرحِ ، وبمعرفتِه بالعازفين المنفردين على الآلاتِ الموسيقيةِ ، والذين قدموا إلى صالةِ كارنيجي ، وبتناولِه العشاءَ معهم ، وبتقديمِه الورودَ إليهم . وعندما فَقدَت هذه القصصُ تأثيرَها ، وفترَتْ هِمَّةُ سامعي بول ، أصابَ بول اليأسُ والاكتئابُ ، فودَّعَ جميعَ الفتيانِ في مدرستِه معلناً أنهُ سيسافرُ لبعضِ الوقتِ إلى نيبالَ ، والبندقية ، ومصرَ . وفي يومِ الاثنين الذي تلا ذاكَ الوداعِ ، رجعَ إلى المدرسةِ وتملّصَ مما قالَه عن سفرِه وهو مبتسمٌ بعصبيةٍ ومدركٌ لما قامَ به ، وادَّعى أنَّ الذي عطّلَ سفرَه هو مرضُ أختِه ، وأنَّه اضطُرَ لتأجيلِ رحلتِه إلى الربيع .

بدأتْ الأمورُ تزدادُ سوءاً وبشكلٍ مستمرٍ بالنسبةِ لبول في

المدرسةِ . لقد كانتْ لديهِ رغبةٌ جامحةٌ ، ومنْ كلِّ قلبِه ، في جعلِ مُعلميهِ يعلمون عن مدى احتقارِهِ لهمْ ولمحاضراتِهم عن الأخلاقِ ، وكيفَ أنَّه مُحترمٌ ومقدَّرٌ ، وبكلٍّ ما في الكلمةِ من معنى ، في أماكنَ أخرى . وقد ذكرَ بول مرةً أو مرتين بأنَّه لا يملكُ وقتاً ليُخدَعَ بتلك النظرياتِ التي يُدرِّسها معلموه . وكانت تلكَ الحركاتُ كالرعشةِ في حاجبيْه ، وتلك اللمسةُ من تبجُّحِه بانفعالٍ وتوتُّرٍ ، تُحيِّرُ مُدرِّسيهِ . أضاف بول قائلاً بأنَّه يساعدُ الناسَ في فرقةِ المسرحِ الموجودةِ في مركزِ المدينةِ ، وأن أعضاءَ الفرقةِ هم أصدقاءً مقربونَ .

والنتيجةُ في مسألةِ بول وما آلتْ إليه الأمورُ هو أنَّ مديرَ المدرسةِ ذهب إلى والدِ بول ، وخَلُصْا إلى أنَّ بول قد أُخذَ من المدرسةِ ووُضعَ في العملِ . طُلبَ من مديرِ صالةِ كارنيجي أن يأتيَ بمرشدٍ للنَّظارةِ بدلاً من بول . وحُذِّرَ بوابُ المسرحِ بأنَّ عليهِ منعَ بول من الدخولِ إلى المسرحِ . ووعدَ شارلي إدوارد بأسىً ، وهو يشعرُ بتأنيبِ الضميرِ ، والدَ بولَ بأنَّه لنْ يرى بول مجدّداً .

عندما وصلتْ قصصُ بول إلى مسامعِ أعضاءِ فرقةِ المسرحِ ، وخاصةً النساء ، كانتْ مدعاةً للتسليةِ والضَحكِ إلى حدٍ كبيرٍ . فالنساءُ في الفرقةِ هنَّ من النساءِ الكادحاتِ ، ومُعظمهنَ يساعدنَ أزواجهنَ أو إخوتهنَ المعوزين . وقد ضحكتْ النساءُ ، ولكنْ في الحقيقةِ ، بمرارةٍ ؛ لأنهنَّ كُنَّ سبباً في إثارةِ هذا الفتى لمثلِ تلكَ التَّخيُّلاتِ من القِصصِ المُلَفَّقةِ والمُتوهِّجة بكلِّ ما هو ورديٍّ

ومُنمَق . لقدْ اتَّفقَ أعضاءُ الفِرقةِ مع أعضاءِ هيئةِ التدريسِ ووالدِ بول بأنَّ بول هو حالةٌ سيّئةٌ .

شقَّ القطارُ طريقهُ من خلالِ عاصفةٍ ثلجيةٍ موسومةٍ بطابعِ كانون الثاني وهو متجهٌ نحو الشرقِ . بدأً الفجرُ الباهتُ يظهرُ ، ولكنَّ الرؤية غيرُ واضحةٍ ، فكلُّ شيءٍ مصبوغٌ باللونِ الرماديِّ . وفي ذاكَ الوقتِ انطلقتْ صافرةُ القطارِ قبلَ ميلٍ واحدٍ من مدينةِ نيوارك . نهضَ بول من مقعدهِ الذي كانَ يغفو عليه إغفاءةً مضطربةً وغيرَ مريحةٍ وقد قوّس ظهرَه وضمَّ رجليهِ نحو بطنِه . قام بول بمسح زجاجِ نافذةِ القطارِ بيدِه مما عَلِقَ عليها من الضبابِ والغشاوةِ بسببِ أنفاسِ الركابِ ، ونظرَ إلى الخارجِ ، فرأى الثلجَ يتساقطُ وهو يدورُ بسرعةٍ على شكلِ دوّاماتٍ لولبيةٍ فوقَ الأراضي المنخفضةِ والتي اكتستْ بالبياضِ . وقد تراكمتْ الثلوجُ عميقاً في الحقولِ وعلى طول الأسيجةِ ، وظهرتْ هنا وهناك السيقانُ الطويلةُ للحشائشِ الميتةِ وسيقانُ الأعشابِ الجافةِ السوداءِ ، والتي تَبرُزُ من فوقِ طبقةِ الثلجِ . ورأى بول الأضواءَ تلمعُ من بيوتٍ متباعدٍ بعضُها عن بعضٍ ، ومجموعةً من العمالِ يقفونَ بجانبِ سِكَّةِ الحديدِ وهمْ يُلوِّحونَ بفوانيسِهم .

نام بول قليلاً ، وشعرَ بأنّه متسخٌ ومتضايقٌ . وقد قامَ برحلتِه التي دامتْ طوالَ الليلِ في عربةِ قطارٍ عاديةٍ للركابِ وهي أدنى الدرجات ، وكان أحدُ الأسبابِ لركوبِهِ في تلكَ الدرجةِ هو شعورُه بالخجلِ من ملابسِه التي يرتديها ، فلمْ يذهبْ إلى العرباتِ من

الدرجةِ الأرقى والمزودةِ بأسِرَّةٍ للنوم ، والسببُ الآخرُ هو خشيتُه من أن يراهُ أحدُ رجالِ الأعمالِ من مدينةِ بيتسبيرج والذي يكونُ قد لاحظَ وجودَه في مكتبِ دِني وكارسون . وعندما أفاقَ بفعلِ صافرةِ القطارِ ، قبضَ بسرعةٍ على الجيبِ الذي من جهةِ الصدرِ ، وأجالَ النظرَ حوالَيْه بسرعةٍ وبابتسامةٍ غامضة . ولكنْ مازالَ الإيطاليون ، والذينَ تناثرتْ على ملابِسِهم بقعُ صغيرةٌ من الطينِ ، نائمين ، ونساءٌ متسخاتٌ وغيرُ مرتَّباتٍ تراهنَّ عبرَ الممرِّ ، وهنَّ جالساتٌ في مقاعدهنَّ ونائماتٌ وفاغراتٌ لأفواههنَّ من غيرِ وعي ، وحتى الأطفال الذين كانَ منظرهمْ مزرياً وبكَّاؤون ، كانوا في ذاكَ الوقتِ هادئين . أما بول فقد عادَ إلى جادَّةِ صوابِهِ وهدوئِه وهو يصارعُ فراغَ صبرِهِ بأعلى درجةٍ مما في وسْعِهِ واستطاعته .

وعندما وصلَ بول إلى محطةِ مدينةِ جيرسي ، أسرعَ في تناولِ فطورِه ، وكانَ واضحاً عليه القلقُ وعدمُ الارتياحِ ، وكان ينظرُ حواليْه بعينِ حذرةٍ ومحترسةٍ . وبعدَ أن وصلَ إلى محطةِ شارع ٢٣ ، استشارَ بول سائقَ سيارةٍ عن مكانٍ لشراءِ الملابسِ ، وكانَ هذا السائقُ قدْ عملَ ، هو نفسُه ، كسائقٍ عندَ مؤسسةٍ للألبسةِ الرجاليةِ والتي افتُتِحتْ في ذاك اليومِ ، فذهبَ به إلى هناك . قضى بول هناكَ حوالي الساعتين وهو يشتري الملابسَ ، ولكن بعناية فائقة ، وبإعادةِ النظرِ ، مرَّةً تلوَ مرَّةٍ ، وبلا نهايةٍ لكلِّ ما يشتريه . قام بول بارتداءِ طقم من الملابسِ في غرفةِ القياسِ مُناسِبةٍ للخروجِ إلى الشارعِ ، واشترى معطفاً وملابساً ملائمةً للمناسباتِ الرسميةِ ،

وكانَ كلُّ ما اشتراه قد وُضعَ في رزمةٍ ، وقامَ بوضعها في السيارةِ مع ملابسَ كتانيةٍ . ثم طَلبَ من السائقِ الذهابَ إلى مَحلٍ لبيع القبعاتِ وإلى آخرَ لبيع الأحذيةِ . ثم كانتْ جولتُه التّاليةُ إلى مؤسسةِ تيفاني ، حيثُ اختارَ دَبّوساً فضّيّاً للزينةِ يُثبّتُ على القميصِ أو يُثبِّتُ ربطةَ العنقِ مع القميصِ . وقال بول بأنَّه لا يريدُ أن ينتظرَ حتى يُعلَّمَ ويُدمغَ الدبوسُ الفضيُّ الذي اشتراه . وأخيراً تَوقَّفَ عندَ دكانٍ في برودوي والتي تضعُ ما تبيعُه للزبائنِ في حقائبَ ، وقد رتّبَ القائمونَ على الدُّكّانِ الأغراضَ التي اشتراها بول على شكلِ رُزَمٍ ، ثم وضعوها في حقائبَ متعدِّدةٍ مناسبةٍ للرّحلاتِ والسّفرِ .

كانت الساعةُ قد تجاوزتْ الواحدةَ قليلاً عندما وصلتْ السيارةُ الّتي يَسْتقلُّها بول إلى فندقِ والدورف . وبعدَ أن سوّى أمرَ الأجرةِ مَعَ السّائقِ ، ذهبَ إلى مكتبِ الاستقبالِ في الفندقِ وسجّلَ نفسهَ على أنه من واشنطن ، وادَّعى بأنَّ أمَّه وأباه هما في الخارج ، وأنَّه نزل في الفندقِ لينتظرَ قُدومَ السَّفينةِ البخاريةِ التي تُقلُّ على متنها والديْه . روى بول قصتَه بطريقةٍ معقولةٍ ومقنعةٍ وبدونِ اضطرابٍ ، وتطوعَ من تلقاءِ نفسِه أن يدفعَ لهمْ مُقدَّماً . وقد استأجرَ غرفةَ نومٍ وصالوناً للضيوفِ وحمّاماً .

لم يخططْ بول مرةً واحدةً لذاك الدخولِ إلى نيويورك ، بل خططَ مئاتِ المراتِ . فقدْ استعرضَ مع شارلي إدوارد كلَّ التفاصيلِ المتعلقةِ بتلكَ المدينةِ ، عرفَ كلَّ شيءٍ عنها من صديقه

شارلي ادوارد ، وفي بيتِه احتفظَ بول بدفترٍ للقصاصاتِ ، حيثُ توجدُ فيه عدةُ صفحاتٍ ملصقٌ عليها وصفٌ وصورٌ لفنادق في نيويورك كان قد قصَّها من صحفِ أيامِ الأحدِ . وعندما أُخذَ بول وعُرِض عليه صالونُ الضيافةِ في مكانِ إقامتِه في الطابقِ الثامنِ من الفندقِ ، وجدَ ومن خلالِ إلقائه لنظرةٍ سريعةٍ أنَّ كلَّ شيءٍ على ما يرام ، ولكن يوجد شيءٌ واحدٌ ناقصٌ وغيرُ محققٍ على أرضِ الواقع مما في الصورةِ الذّهنيّةِ التي في مخيلتِه من تفاصيل ، ولهذا قَرعَ الجرسَ مستدعياً الخادمَ وطلبَ منهُ إحضارَ الورود . وأخذ بول يدورُ في الصالونِ بعصبيةٍ حتى عادَ الخادمُ ، فخلعَ ملابسَه الكتانيةَ الجديدةَ ووضعَها جانباً بعد أنْ عاينَها باللمسِ بأصابعِه ، وبسرورٍ ، كما يفعلُ دائماً . وعندما جاءَت الورودُ ، وضعها بسرعةٍ في الماءِ ، ثم هرولَ مسرعاً لأخْذِ حمام ساخنٍ . وعندما خرجَ من الحمّامِ ذي اللونِ الأبيضِ ، كان متألقاً بملابسِه الداخليةِ الحريريةِ الجديدةِ ، وكان يداعبُ الشرّاباتِ الحمراءَ لردائه الفضفاضِ . وكان الثلجُ يدورُ في دوّاماتٍ هوائيةٍ ، ويتساقطُ بشكلٍ عنيفٍ جداً خارجَ نوافذِ غرفتِه ، حتى إنَّ بول كانَ لا يستطيعُ أنْ يرى الجانبَ الآخرَ من الشارعِ إلاّ بصعوبةٍ ، ولكنَّ الجوَّ في الداخلِ كانَ لطيفاً ، ويبعثُ على السُّرورِ وذا رائحةٍ زكيّةٍ . وضعَ بول ورودَ البنفسجِ والنرجسِ الأسلي على كرسيٍّ خفيضٍ لا ظهرَ له ولا ذراعانَ بجانبِ سريرِه ، ثم أَلقى بنفسِه على السريرِ مترافقاً مع تنهيدةٍ طويلةٍ ، وغطّى نفسَه بدثارٍ رومانيٍّ . لقد كانَ متعباً وبكلٍّ ما في

الكلمةِ من معنى . إن بول كانَ على عُجالةٍ من أمرِه ، وكان عليه أنْ يَثْبُتَ في وجْهِ الإجهادِ والتوترِ ، وقد قطعَ كثيراً من الأراضي خلالَ أربع وعشرينَ ساعةً الماضيةِ ، وأرادَ أن يُفكِّرَ كيفَ حدثَ كلُّ ذاكَ . هدهدَهُ صوتُ الريح ، والجوُّ الدافئُ ، وروائحُ الورودِ المهدئةِ ، فكانَ في حالةٍ ما بين النَّومِ واليقظةِ فغرقَ باستعراضِ الأحداثِ الماضيةِ .

كانتْ عمليةُ منع بول من دخولِ المسرحِ وصالةِ الفرقةِ الموسيقيّة مدُهْشةً في بساطتِها ، ولكنَّها بالنِّسبةِ إليه هي تجريدُهُ من أَغلى ما يملكُ ، وكلُّ شيء بالنسبةِ إليه من ناحيةٍ افتراضيةٍ قدْ أصبحَ محسوماً ، وأمّا ما تبقَّى من أمرٍ ، فهو مجرَّدُ انتظارِ الفرصةِ . ولكن الذي فاجأهُ من بينِ كلِّ هذه الأمورِ هي شجاعتُه ، فهو مدركٌ تماماً بأنَّ الخوفَ يعذِّبُه دائماً ، إنه خوفٌ من شيءٍ مُرتَقَبٍ قد يأتي في سنواتٍ متأخرة . وإنَّ هذا الخوفَ يشبِه الكَذِبَ الذي مارسَه ، وكانَ كخيوطِ شَبَكَةِ صَيْدٍ وقعَ في شَرَكِها والتفَّتْ خيوطُها حولَه وهي تشتدُّ إحكاماً أكثرَ فأكثرَ حولَ عَضَلاتِ جسمِه . حتى ذاك الوقتُ ، لمْ يتذكرْ أنَّه في أيِّ وقتٍ من الأوقاتِ كانتْ نفسُهُ خاليةً من الخوفِ من شيءٍ ما ، حتى عندما كان طفلاً صغيراً ، كانَ ذاكَ الخوف دائماً حاضراً ويأتيه ويحاصرُه من كلِّ مكانٍ ، من بينِ يديْه أو من خلفه أو من أحدِ جانبيْه . كانت دائماً في حياتِه تلكَ الزاويةُ المعتمةُ والتي تخبئُ شيئاً ما ، وكانَ لا يجرؤُ أنْ ينظرَ الى ذاكَ المكانِ المعتمِ ، وكان يبدو له أنَّ من تلكَ الزاويةِ هناكَ

شيء ما يراقبُه طوالَ الوقتِ ، وقد كانَ بول يعلمُ بأنَّه قام بأعمالٍ لم تكنْ جميلةً كي تُشاهَدَ .

ولكنْ أصبحَ لدى بول الآن شعورٌ غريبٌ بالراحةِ ، إذ خلعَ أحدَ قفازاتِه ورماه أرضاً على سبيلِ التَّحدِّي والمواجهةِ لهذا الشيءِ في الزاويةِ المعتمةِ .

لم يَمْضِ سِوى يوم واحدٍ على بول وهو يطيلُ التفكيرَ في وضعِ الخططِ . ولكنْ بعدَ ظهرِ البارحةِ ، أُرسلَ للبنكِ بوديعةٍ لشركةِ دِني وكارسون ، كما هي العادةُ ، ولكن هذه المرة أُعطيَ تعليماتٍ أن يتركَ السجلَّ التجاريَّ في البنكِ للتدقيقِ وموازنةِ الرصيدِ . كان هناكَ أكثرُ من ألفي دولارٍ قيمةً للشيكات ، وألفُ دولارٍ تقريباً كأوراقٍ نقديةٍ والتي أخذها بول من السجلِّ التجاريِّ وحولَّها بهدوءٍ وسلاسَةٍ إلى جيبِه . في البنكِ استخرجَ إيداعاً بقسيمة جديدة . كان بول يتمتَّع بأعصابٍ متينة وثابتة ، وكانتْ كافيةً ليسمحَ لنفسِه بالرجوعِ إلى المكتبِ ، حيثُ أتمَّ عملَه ، وطلبَ أنْ يكونَ يومُ غدٍ ، وهو يومُ السبت ، إجازةً له ليوم كاملٍ ومدفوعِ الأجرِ ، وأعطى مبرِّراتٍ معقولةً ومقنعةً تماماً . وكانَ بول يعلم أنَّ السِّجلَّ التِّجاريَّ الذي تركَه في البنكِ للتدقيقِ لنْ يتمَّ إرجاعُه قبل يوم الاثنين أو الثلاثاء ، وأن والدَه سيكونُ الأسبوعَ القادمَ خارجَ البلدةِ . ومن اللحظةِ التي اخْتَلَسَ فيها الأوراقَ النَّقديَّةَ ووضعَها في جيبِه ، وحتَّى استقلالَه للقطارِ المتوجِّه إلى نيويورك ليلاً ، لم يعرفْ أيَّةَ لحظةٍ من لحظاتِ التردُّدِ . إنَّها ليستِ المرةَ الأولى التي يخوضُ فيها

بول عُبابَ مياهِ الغَدْرِ والخيانة .

إنَّه لأمرٌ يبعثُ على الدهشةِ أنْ يحدثَ كلُّ ما كانَ بسهولةٍ ويُسر . ها هو هنا بول ، وكلُّ شيءٍ تمَّ على ما يُرام . والآنَ ، وبول هنا ، لنْ يقومَ أحدٌ بإيقاظِه ، ولن يكونَ هناكَ شخصٌ موجودٌ فوق الدَّرَجِ ينتظِرُه . وأخذ بول يراقبُ نُدَفَ الثلجِ المتساقطةِ ، والتي تدورُ على شكلِ دوّامات لولبية بالقربِ من نافذتِه حتى غلبه النومُ .

عندما استيقظَ بول ، كانتْ الساعةُ الثالثةَ بعدَ الظهرِ . إنه مهتمٌّ ومتلهفٌ إلى بدايةِ مشوارِه في الحياةِ هنا ، ولكن ، ويا للعجبِ ، فقد ذهبَ نصفُ يوم من أيامِه الثمينة! لقد قضى بول أكثرَ منْ ساعةٍ في ارتداءِ ملابسِه ، وهو يراقبُ ويشاهدُ بعنايةٍ كلَّ مرحلةٍ من مراحلِ وضعِه لزينتِه في المرآةِ ، وقد كانَ كلُّ شيءٍ مثاليا ، ووجدَ نفسَه بالضبطِ مثل ذاك النوعِ من الفتيانِ والذي حلُمَ دائماً أن يكونَه .

وعندَ نزولِ بولِ إلى الطابقِ السفليِّ ، استقل عربةً إلى الجادَّةِ الخامسةِ نحو المنتزه . خَفَّتْ حدَّةُ تساقطِ الثلجِ بعضَ الشيءِ ، وكانت العرباتُ ومركباتُ التجار مسرعةً وبلا صوتٍ ذهاباً وإياباً في ضوءِ شفقِ الشتاءِ ، وارتدى الأولادُ أوشحةً صوفيةً لتغطيةِ رقابِهم ووجوهِهم وهم يجرفونَ الثلجَ عن عتباتِ ودرجاتِ بيوتِهم . وقد بدتْ المقاعدُ الموجودةُ على أرصفةِ الجادَّةِ لجلوسِ الناسِ بقعاً ذاتِ ألوانٍ جميلةٍ في مقابل الشارع الذي يكتسي لون الثلجِ الأبيضِ . وكانت تقومُ وتنتشرُ هنا وهناك ، وعلى مسافةٍ من

الشارعِ ، حدائقُ كاملةٌ من الورودِ المتفتحةِ تحتَ دفيئاتٍ زجاجيةٍ ، وكانتْ نُدَفُ الثلجِ المتساقطةِ تضربُ جوانبَ تلكَ الدفيئاتِ ثم تذوبُ .

وكانتْ هناكَ ورودُ البنفسجِ والأزهارُ والقرنفلُ وزنبقُ الوادي ، وهذه الورودُ تبدو ، بطريقةٍ أو بأخرى ، وإلى حدٍ بعيدٍ ، أكثرَ جمالاً وفتنةً وإغراءً وهي مزهرةٌ بشكلٍ غيرِ طبيعيٍّ في وسطِ هذه الثلوج . لقد كانَ هذا المُتَنَزَّهُ بحدِّ ذاتُه مسرحاً رائعاً ومدهشاً لعرضٍ قامَ به الشتاءُ .

وعندما عادَ بول إلى الفندقِ ، توقفَ ما يُصاحبُ فترةَ بداياتِ الفجرِ من صمتٍ وهدوءٍ ، وتغيَّرَ نبضُ الشوارعِ . بدأ الثلجُ يتساقطُ بوتيرةٍ أعلى ، وتدفقتْ الأضواءُ من الفنادقِ التي ارتفعت لعشراتِ الطوابقِ عالياً وبلا خوفٍ وهي في قلبِ العاصفةِ ، ومتحديةً رياحَ المحيطِ الأطلسيِّ الهوجاءَ والعاتيةَ . كانَ هناكَ سيلٌ أسودُ طويلٌ من العرباتِ التي تتدفقُ في الجادَّةِ ، وكان هذا السَّيلُ الآتي بشكلٍ عموديٍّ يُقطَعُ من هنا وهناك بسيلٍ آخرٍ من المركباتِ الآتيةِ بشكلٍ أفقي . كانت هناك عشراتٌ منْ سياراتِ الأجرةِ على مقربةٍ من مدخلِ الفندقِ الذي ينزلُ فيه بول ، وكانَ سائقُ السّيارةِ التي يستقلُّها بول في الانتظار . وكان الخَدَمُ ، وهم فتيانٌ يرتدونَ زيّاً مُوَحَدّاً ، يركضون فيدخلُ أحدُهُم تحتَ مظلةٍ ثم يخرج من تحتِها ليدخلَ تحتَ مِظَلَّةٍ أخرى من المِظَلّاتِ الموجودةِ والممتدةِ على رصيفيِّ الطريقِ ، وكانوا يركضونَ ذهاباً وإياباً على طولِ سجادةٍ

مخملية حمراءَ ممتدة من بابِ الفندقِ إلى الشارعِ . وكان المكانُ كلُّه يعجّ بالدمْدمَة والهديرِ والصخبِ ، وتأتيه هذه الأصواتُ من كلِّ الجهاتِ ، من أعلاه ومن حولِه ومن داخلِه ، وكان هناك الآلافُ من البشرِ يحثُّونَ الخطى ومندفعين بحماسة ورغبةٍ نحو مُتَعهم كما هو نفسُه ، وكانَ بول يرى أنَّه مُحاطٌ من كلٍّ جانبٍ بما يؤكِّدُ بشكلٍ ساطع وصارخ على السُّلْطة المُطلقةِ للثروةِ .

أحْكمَ بول إطبَاقَ أسنانِه وقاربَ بين كتفيْه بتشنُّج نحو ما يُدركُه ويعيه . فهو يعتبرُ أنَّ كلَّ الحِبْكاتِ في جميع المسرحياتِ ، وكلَّ النصوصِ الرومانسيةِ عن قِصَصِ الحُبِّ والغَرامِ ، وكلَّ الموادِّ والأشياءِ التي تأتي بها الأعصابُ لتشكيلِ كلِّ الأحاسيسِ تدورُ حولَه على شكلِ دَوّامةٍ كندفِ الثلجِ . إن بول يشْتعلُ كحُزْمةِ قَشٍّ في عاصفةٍ .

عندما نزلَ بول لتناولِ عشائِه ، وصلتْ إلى مسامعِه موسيقى الفرقة الموسيقةِ والتي تعومُ في بيتِ المصعدِ لتستقبلَه . شعر بول بأن رأْسَه يدورُ عندما خرجَ من المصعدِ ودخلَ الدهليزَ المزدحمَ ، وألقى بنفسِه على كرسيٍّ مسندةٍ إلى الجدارِ ، وأسندَ ظهرَهُ عليها لالتقاطِ أنفاسِه . رأى بول الأضواءَ ، والثرثرةَ ، والعطورَ ، والمزيجَ المذهلَ من الألوانِ . وللحظة ، شعرَ بعدم مقدرتِه على تحمُّلِ أو فهم ما يراه . ولكنَّ هذا الشعورَ لم يُساوِرْهُ إلا للحظةٍ ، ثم ثابَ إلى نفسِه وخاطبَها بأنَّ هؤلاءِ الناسَ هم ناسُه . سار ببطءٍ متنقلاً من مكانٍ إلى آخرَ حول الممرّاتِ ، فمشى من خلالِ غرفِ الكتابةِ

والتأليفِ ، وغرفِ التدخينِ ، وغرفِ الاستقبالِ ، كما لو أنَّه يستكشفُ حجراتِ قصرٍ مسحورٍ بُنيَ وعُمِّرَ بالناسِ من أجلِهِ وحدَهُ .

عندما وصلَ بول الى غرفةِ الطعامِ ، جلسَ على طاولةٍ بالقربِ من إحدى النوافذِ . رأى بول الزهورَ ، والكتانَ الأبيضَ ، وكاساتِ شربِ الخمورِ بألوانٍ كثيرةٍ ، والنساءَ بزينَتِهِنَّ وملابسِهِنَّ الزاهيةِ ، وسمعَ الأصواتَ المنخفضةَ لفرقعاتِ فَتْحِ سدّاداتِ الزُّجاجاتِ المصنوعةِ من الفلّين ، والتكرارَ المتموجَ للفرقةِ الموسيقيةِ لمقطوعةِ الدانوبِ الأزرق . كلُّ ما سبقَ غمرَ أحلامَ بول بألقٍ مذهلٍ . عندما أُضيفتْ مِسْحَةٌ ورديّةٌ على الشمبانيا التي يتناولُها بول ، نظرَ بول إلى مشروبِه الباردِ والثمينِ والذي يرغِي ويُخرجُ زبداً في كأسِه ، وتساءَل إنْ كانَ هناكَ رجالٌ صادقونَ ومخلصونَ موجودونَ في هذا العالمِ على الإطلاقِ . فكر بول وقالَ في نفسِه : إنَّ هذا ، أي المُتع ، هو كلُ ما يتقاتلُ عليه العالمُ ، وإنَّ هذه هي كلُّ ما كانَ يدورُ حولهُ الصراعُ . إن بول يشك في حقيقةِ ماضيه . فهلْ هو حقاً يعرفُ مكاناً في أيِّ وقتٍ مَضَى يُسَمَّى شارعَ كورديليا؟ ذاك المكانُ الذي يظهرُ فيه رجالُ الأعمالِ بمنظرِ الكادحينَ وهم يستقلونَ السيارةَ الأولى في وقتٍ مبكرٍ ، وإنَّ هؤلاءِ بَدوْا لبول ليس أكثرَ منْ مجردِ مساميرِ البرشامِ في ماكنةٍ . إنَّ ذاكَ الشارعَ هو مكانٌ للرجالِ المقززينَ والذينَ يرتدونَ المعاطفَ ، والتي دائماً تَعْلَقُ عليها شعورُ أطفالِهِم مما تُسقِطُه الأمشاطُ ، وكانت تنبعثُ من ملابسِهم روائحُ

الطبخ . شارعَ كورديليا ، نعم ، والذي ينتمي إلى زمنٍ ليس هذا الزمانُ ، وإلى بلدٍ ليس هذا البلدَ . وتساءلَ بول إذا لمْ يكُنْ شارعَ كورديليا هكذا دائماً ، وإذا لمْ يجلسْ هو هناكَ ليلةً بعد ليلة؟ ومِنْ زمنٍ موغِلٍ بالبعدِ يستطيعُ أن يتذكرَ ذلك ، وبدأ ينظرُ بكآبةٍ إلى ذاكَ الوميضِ الباهتِ مما يبدو أمامَهُ من أحداثٍ متشابكةٍ ، وببطءٍ بدأَ يديرُ جذعَ القدحَ الذي أمامَه بين إبهامِه وإصبعِه الوسطى ، كما يديرُ تلك الأحداثَ . وبدأ يعتقدُ أنَّ ما تذكَّره عن مكانٍ سكنه قدْ كانَ .

لم يشعرْ بول مطلقاً بالإرباكِ أو العزلةِ . ولم يكنْ لديْه أيةَ رغبةٍ استثنائيةٍ في لقاءٍ أو معرفةِ أيِّ أحد من هؤلاءِ الناسِ . إنَّ كلَّ ما يطلبهُ هو حقّهُ في المشاهدةِ ، وأن يستنتجَ ما يريدُ بطريقةٍ حدسيةٍ ، وأن يراقبَ بعنايةٍ مظاهرَ الأبهةِ . لقد ناضلَ منْ أجلِ أنْ يحصلَ ليسَ إلا على مجردِ المميزاتِ التي يتمتعُ بها من يذهبُ للمسرحِ . لم يكن وحيداً في الأوقاتِ المتأخرةِ من المساءِ في الفندقِ الذي يقيمُ فيه في العاصمةِ . لقد تخلَّصَ بول تماماً الآن من نوباتِه العصبيةِ بسببِ هواجسِه وظنونِه ، ومن عدوانيتِه التي تنبعُ من داخله رغماً عنه ، وتخلَّصَ من الرغبةِ التي تلحُّ عليه وتدفَعُه بأنْ يكونَ مختلفاً ومتميِّزاً عمنْ حولهُ . ولكنَّه الآن يشعرُ بأنَّه متصالحٌ مع كل ما يحيطُ به ؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ يعكسُ رغباتِه وما يريدُ . لا أحدُ هنا يستجوبُه عن سببِ تعليقِه وردةَ الأرجوانِ والتي يضعُها بشكلٍ رتيبٍ دونَ أن تثيرَ أيةَ ردةِ فعلٍ . فكلُّ ما يعملُه هو أن يُلقيَ

نظرةً على ملابسِه وليعيدَ التأكيدَ لنفسِه أنَّ منَ المستحيلِ ، في هذا المكانِ ، أن يُهينَكَ أو يُذلِّكَ أحدٌ .

لقد وجدَ بول صعوبةً في مغادرةِ صالونِ الضيافةِ الجميلِ والذهابِ لسريرِه في تلك الليلةِ ، ومكثَ طويلاً وهو يُشاهدُ العاصفةَ العاتيةَ من نافذتِه التي على شكلِ برج . وعندما ذهبَ للنومِ ، تركَ عمداً الأضواء منيرةً في غرفةِ نومِه . وأحد الأسبابِ لهذا التصرفِ هو جُبنُه المزمنُ والمتأصلُ ، والسببُ الآخرُ هو أنه فيما إذا ما استيقظَ في الليلِ ، فلنْ تكونَ هناك لحظةٌ بائسةٌ من الظنِّ فيزيغُ ذهنُه فيتوهمُ أنه في غرفتِه في بيتِ والدِه ، وحتى لا يكونَ رعبٌ بالاشتباهِ بوجودِ تلك الجدرانِ المكسوةِ بالورقِ الأصفرِ ، أو صورتي واشنطن وكالفن المعلقتينِ فوقَ سريرِه في غرفتِه في بيتِ والدِه .

في صبيحةِ الأحدِ ، كانتْ الحركةُ متوقفةً في المدينةِ كلِّها تقريباً بسببِ الثلوجِ الكثيفةِ . تناولَ بول فطورَه متأخراً ، وبعد الظهرِ التقى بول صدفةً مع فتى جامح وغريبِ الأطوارِ من مدينةِ سان فرانسسكو ، وهو طالبٌ جامعيٌ جديدٌ في جامعةِ ييل ، والذي قالَ بأنَّه توقفَ عن عمله من أجلِ مغامرةٍ صغيرةٍ طوالَ يوم الأحد . عرضَ هذا الشابُ على بول أن يُريَه الجزءَ الخفيَّ والغامضَ من المدينةِ ، وخرجَ الفتيانُ معاً بعد تناولِ طعامِ العشاءِ ، ولم يعودا إلى الفندقِ حتى الساعةِ السابعةِ من صبيحةِ اليوم التالي . وقد بدءا عهدَ صداقتِهما الحميمةِ والثقةِ المتبادلةِ بشربِ نخبٍ من

الشمبانيا ، ولكنْ عندما افترقا عند مصعدِ الفندقِ ، كان فراقُهما بارداً على نحو استثنائيٍّ . فأما طالبُ الجامعةِ الجديدِ فقد استجمعَ قوتَه للحاقِ بقطارِه ، وأما بول فقد ذهبَ إلى سريرِه . أفاق بول من نومِه الساعةَ الثانيةَ بعدَ الظهرِ وهو يشعرُ بعطشٍ شديدٍ وهو مصابٌ بالدوارِ ، فطلبَ بواسطةِ الهاتفِ ماءً مبرَّداً وقهوةً وصحفَ بتسبيرج .

من جانبِ إدارةِ الفندقِ ، فإنَّ بول لا يثيرُ أيَّ شكٍ . كان يمكنُ أن يقالَ هذا له ، وهو أنَّه يرتدي مما سرقَه باحترام ولم يسمحْ لنفسِه بأيةِ حالٍ من الأحوالِ بإتيانِ ما ينافي الذوقَ السلَيمَ . وحتى عندما كانَ يحتدمُ تأثيرُ الخمرةِ عليه ، لم يُثرْ أيَّ صخبٍ بتاتاً بالرغمِ منْ أنَّه وجَدَ أنَّه يستطيعُ الخلْقَ والتخيّلَ من الأشياءِ الموجودةِ في هذا المكانِ ، والتي تشبهُ بالنسبةِ إليه عصا الساحرِ ، والتي يستطيعُ بها بناءَ أشياء عجيبةٍ ومدهشةٍ . إن جشعَه وطمعَه يكمان في أذنيهِ وعينيهِ ، وهذا الإفراطُ والتجاوزُ في الحدِّ ليس عدوانياً . إنَّ أحبَّ الملذاتِ لديْه هو مشاهدتُه من صالونِ الاستقبالِ ، شفقَ الشتاءِ الرماديِّ ، وتمتُّعُه بورودِه بهدوءٍ ، وبملابسِه ، وبديوانِه الواسع ، وبسيجارتِه ، وبشعورِه بالقوةِ . لا يستطيعُ أن يتذكرَ أنه في أيِّ وقتٍ من الأوقاتِ في حياتِه قد شعرَ بهذا السلامَ مع نفسِه . لقد استعادَ بول احترامَه لذاته بمجردِ أنَّه انعتقَ من ضرورةِ الكذبِ التافهِ ، حيث كان يكذبُ في كلِّ يوم ، ويتكررُ الكذبُ كلَّ يوم . لم يكذبْ أبداً لمجردِ المتعةِ ، وحتى وهوَ في المدرسةِ ، وإنما ليثيرَ انتباهَ الآخرين وإعجابهِم به ، ولتأكيدِ اختلافِه عن غيرِه من الأولادِ في

شارعِ كورديليا . وهو يشعرُ بأنه يتمتَّعُ بقدْرٍ أكبر من الرجولةِ ، وأكثر صدقَاً ، وحتى إنه لمْ يعدْ بحاجةٍ إلى ادِّعاءِ مزاعمَ يتبجحُ بها ، والآن يستطيعُ أن يكونَ كما كانَ يقولُ له أصدقاؤُه الممثِّلونَ «عليك التصرفُ بطريقةٍ مناسبةٍ لكلِّ حالةٍ بعينِها» . هناكَ سمةٌ في شخصيةِ بول وهي أن الندمَ لم يحدثْ عندَه ، فهو لا يعرفُه . ومضتْ أيامُه الذهبيةُ دونَ أيِّ مُعَكِّر ، وكان يبذلُ كلَّ ما في وسعِه ليجعلَ كلَّ يومٍ مثاليٍّ .

وفي اليومِ الثامنِ بعدَ وصولِ بول إلى نيويورك ، وجدَ أنَّ القضيةَ برمَّتِها قد تمَّ استغلالُها في صحفِ بيتسبرج . لقد استُغلتْ قضيتُه مع وجودِ وفرةٍ في التفاصيلِ ، ولقد أشارتْ طريقةُ تناولِ الأخبارِ المحليةِ لهذِه القضيةِ ذاتِ الطابَعِ المثيرِ إلى وصولِ تلك الصحافةِ إلى أدنى المستوياتِ من الانحطَاطِ . أعلنتْ شركةُ دِني وكارسون أنَّ والدَ الفتى ، أي والد بول ، قد ردَّ لها كاملَ المبلغِ الذي سرقَه ابنُه ، وأنَّه لا توجدُ لدى الشركةِ أية نيةٍ للملاحقةِ القضائيةِ . وقد أُجريتْ مقابلةٌ مع كاهنِ كمبرلاند ، وأعرب عن أملِه باستردادِ الفتى الذي فقدَ أمّه ، وكذلك أعلنتْ الأستاذةُ في مدرسةِ السبتيين أنها لن تدَّخرَ جهداً لتحقيق تلك الغاية . وكانت الشائعاتُ قد وصلتْ بيتسبرج بأنَّ الفتى قد شوهدَ في فندقٍ بنيويورك ، وأن والدَه قد سافَرَ نحو الشرق الأمريكيِّ للعثورِ عليه وإعادتِه للبيتِ .

دخلَ بول غرفتَه للتوِّ ليرتديَ ملابسَه وليذهب لتناولِ العشاءِ ،

فألقى بنفسِه على الكرسيِّ وغارَ بداخِلها ، لأنه شعرَ أنَّ رجليهِ لا تحملانه بسببِ مشاعرَ مفاجئة انتابتْه ، فشبكَ أصابعَهُ ووضعَ يديه خلفَ رأسه . إن إطباقَ شارعِ كورديليا على رأسِ بول وإغراقَه نهائياً وإلى الأبدِ هو أسوأُ حتى منَ السجنِ ، لأنَّ الحياةَ في هذا الشارع تفتقدُ إلى المشاعرِ والإثارةِ . شعرَ بول باليأسِ ، وقد امتدتْ أمامَه مشاهدُ ما ينتظرهُ هناك من الرتابةِ الكئيبةِ ، والسنواتِ الملأى بالقلقِ وعدمِ الراحةِ ، ومدرسةِ السبتيين ، ولقاءاتِ الشبابِ ، وغرفتِه المكسوةِ بالورقِ الأصفرِ ، ومناشفِ الأواني الرطبةِ . كلُّ هذه الأمور اندفعتْ إلى ذاكرةِ بول ، فاستحضرَها باشمئزازٍ وتقززٍ . وخامرَهُ الشعورُ القديمُ بأن الفرقةَ الموسيقيةَ قدْ تتوقفُ فجأة ، وأن المسرحيةَ قد انتهتْ ، وكان هذا الشعورُ يشبهُ شعورَ إنسانٍ يرى نفسَه يغطسُ في الماءِ ويغرقُ . اندفعَ العَرَقُ متصبِّباً من وجهِ بول ، ونهضَ واقفاً على قدميْه ، ونظرَ حواليه ، وعلتْ وجهَه ابتسامةٌ مقصودةٌ أظهرتْ بيضاءَ أسنانِه ، وغمزَ نفسَه في المرآةِ . تمنى بول أن تحدثَ معجزةٌ لتخرجَه من ورطتِه ، وهذهِ الاعتقاداتُ جاءتْه من رواسبِ طفولتِه الأولى حيث كانَ يعتقدُ بحدوثِ معجزةٍ عندما كانَ يذهبُ إلى المدرسةِ دون أن يقرأ أياً من دروسِه أو يقومَ بأيٍ منْ واجباته المدرسيةِ . ارتدى بول ملابسهُ وخرجَ مندفعاً وهو يصفِّرُ في الممرِّ الذي يؤدي إلى المصعدِ .

وما إنْ دخلَ قاعةَ الطعامِ وتناهى إلى سمعِه السلَّمُ الموسيقي حتى تخفَّفَ مما في ذاكرتِه مستعيناً بما يمتلكُه وما عُهدَ عنه في

السابقِ من قدرةٍ تمكِّنُه من أن يكونَ ابنَ لحظتِه ، فيكونُ على مستوى تلك اللحظةِ ، ويجدُها كافيةً لكلٍّ ما يريدُ . إنه يرى التألقَ وما يُبهرُ مِنْ بهرجةٍ حولَه . إن مجردَ هذه المشاهدَ من كمالياتِ الزينةِ عملت كما كانت تعملُ قديماً ، وللمرةِ الأخيرةِ ، بقوةٍ وفعاليةٍ في نفسِ بول . أراد بول أن يُظهِرَ نفسَه بأنَّه ثابتُ العزمِ ، وأنه سيُنهي الأمرَ بشكلٍ رائعٍ . إنه يشكُّ ، أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى ، بوجودِ شارعِ كورديليا ، وللمرةِ الأولى يشربُ الخمرةَ وهو غيرُ مهتمٍ بشيءٍ وغيرُ آبهٍ بالعواقبِ . ألَمْ يكن هو ، بعدَ كلِّ هذا ، أحدَ أولئكَ المحظوظينَ من الناسِ الذينَ ولدوا في أسرةٍ أرستقراطيةٍ ثريةٍ؟ ألم يزلْ هو نفسُه كما يريدُ وفي المكانِ الذي يعتبرهُ مكانَه؟ رافق بول موسيقى باجلياتشي وأخذَ يردِّدُ أنغامَها ولكن بتوتُّرٍ وعصبيةٍ ، وأخذ ينظرُ حواليه ، وبدأ يقولُ لنفسه مرةً تلو مرةٍ ، وقدْ شعرَ أنَّ نهايتَه قد اقتربت ، لقد دُفعتِ الأثمانُ .

فكَّر بول وهو في حالةِ نعاسٍ ، وما زالتِ الموسيقى تصدحُ وتزدادُ ، وفي فمِه طعمُ الخمرةِ الباردِ ، أنه كان يمكنُ له أنْ يقومَ بما قامَ به بطريقةٍ أكثرَ حكمةٍ وعقلانيةٍ . كان يمكنُهُ قبلَ الآنِ وقبلَ فواتِ الآوانِ أنْ يلحقَ بباخرةٍ بخاريةٍ مسافرةٍ للخارجِ وبذلك يكونُ بمنأى عن الوقوعِ في براثنِ من يلاحقونَه . ولكنَّ ذاكَ العالمَ في الجانبِ الآخرِ والذي فكرَ بالذهابِ إليه ، بدا له بأنَّه بعيدٌ جداً وأنَّ سيرَ الأمورِ هناك بالنسبةِ له غيرُ مؤكدٍ ، ولكنَّه لا يستطيعُ الانتظارَ لمثل تلك الحلولِ لأنَّ حاجتَه مُلحَّةٌ جداً . إذا كانَ عليه أن يختارَ

أكثرَ من مرةٍ ، فإنَّه سيفعلُ الشيءَ نفسَه غداً . نظرَ برقَّةٍ ومودَّةٍ وهو يتجولُ بالقربِ من غرفةِ الطعامِ وهي الآن مُغشَّاةٌ بأبخرةٍ رقيقةٍ ، وقال في نفسِه ، آه ، لقدْ دُفعتْ الأثمانُ حقاً!

أُوقظَ بول في صباحِ اليومِ التالي من نبضٍ مؤلمٍ في رأسِه وقدميْه . فقد ألقى بنفسِه على عرضِ السريرِ بملابسِه التي خرجَ بها دون تبديلِها ، ونامَ وهو يلبسُ حذاءَه . وكانتْ أطرافُه ويداه ثقيلةً كالرصاصِ ، وكانَ لسانُه وحلقُه جافين ويحرقان . جاءتْه إحدى تلك النوباتِ ، منَ التأهُّبِ والتنبُّه الدماغي ، ذاتِ التداعياتِ الخطيرةِ والتي لا تحدثُ له إلا عندما يكونُ مرهقاً جسدياً ، أو عندما تكونُ أعصابُه متوترةً ، فبقيَ مستلقياً ، وأغلقَ عينيْه ، وتخلَّص من موجةِ المدِّ مما دهمَه واعتملَ في نفسِه مما يقلقُه ويوتِّره من أشياء .

حدَّث بول نفسَه بأنَّ والدَه هو في نيويورك ، وأنه يقفُ عند هذا المفترقِ أو ذاك . إنْ تذكرَ الجلوسَ على الدرجِ الأماميِّ للبيوتِ في فصولِ الصيفِ المتعاقبةِ قد وقعَ على نفسِه ثقيلاً مثل ثقلِ شربِ المياهِ الثقيلةِ للمجاري والمراحيضِ على النفسِ . لم يعدْ لديه حتى مئةُ دولارٍ ، فعلمَ الآن ، أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى ، أنَّ المالَ هو كل شيءٍ ، وأنَّه هو السَّدُ الذي يقفُ بين ما يبغضُه وبين ما يرغبُه . إن الأمرَ يبلورُ نفسَه ليُختتم بنهايةٍ . فكر بول في أول يوم رائع قضاه في نيويورك ، وأنها وفّرتْ له طريقةً لنزعِ فتيلِ المشكّلةِ وإنهاءِ الأمر ، وإن هذه الوسيلةَ موضوعةٌ في غرفتِه على المنضدةِ الخفيضةِ

ذاتِ الأدراجِ والمرآةِ التي يجلسُ إليـهـا حين يتـخـذَ زينتَـه ، وأنه حصلَ عليها الليلةَ الماضيةَ عندما خرجَ بطيشٍ وتهورٍ من عشائِه ، ولكنَّ المعدنَ اللامعَ يؤذي عينيه وكرهَ منظرَه .

نهضَ بول وجالَ في غرفتِه ولكنْ بجهدٍ مؤلم ، واستسلمَ الآن ، ومرةً أخرى ، لنوباتِ الغثيانِ . إنها كآبتُه القديمةُ والتي عظُمتْ بشكلٍ مفرطٍ بحيثُ صارَ العالمُ كلُّه عند بول شارعَ كورديليا . ولكنَّه ، بشكلٍ أو بآخرَ ، لم يخفْ من أي شيءٍ ، وهو هادئٌ بشكلٍ مطلقٍ ، والسببُ ربما يُعزى إلى أنه نظرَ أخيراً إلى تلك الزاويةِ المعتمةِ والغامضةِ في الحياةِ وعلمَ الحقيقةَ . إن ما يراه هناكَ لهو أمرٌ سيئٌ بما فيه الكفايةُ ، ولكن ، وإلى حدٍّ ما ، ليس سيئاً الآن كما كان الأمرُ في السابقِ من خوفهِ الطويلِ من تلك الزاويةِ الغامضةِ . إنه يرى الآن كلَّ شيءٍ بوضوحٍ تام . تكوَّن عند بول شعورٌ بأنَّه أخذَ من الحياةِ أحسنَ ما فيها ، وأنه عاش تلك الحياةِ التي كانَ من المفترضِ أن تُعاشَ . جلسَ نصفَ ساعةٍ وهو يحدِّقُ النظرَ في المسدسِ ، ولكنَّه قال لنفسِه بأن هذه ليست الطريقَ . لذا نزلَ من غرفتِه إلى الطّابقِ الأسفلِ ، ثم استقلَّ سيارةَ أجرةٍ إلى المُعدِّية التي يُقطَع بها النهرُ من جانبٍ إلى الجانبِ الآخرِ .

عندما وصلَ بول إلى نيوارك ، نزلَ من القطارِ وأخذَ سيارةِ أجرةٍ أخرى ، ووجَّهَ سائقَها أنْ يتابعَ مسيرَهُ على مساراتِ طرقِ بنسلفانيا التي تؤدي للخروجِ من المدينةِ . كانتْ الثلوجُ تربضُ

ثقيلةً على الطرقاتِ ، وقد ذرَتْ الرياحُ الثلوجَ عميقاً في الحقولِ المفتوحةِ والمنبسطةِ . وكانت تُشَاهدُ ، هنا وهناك ، الحشائشُ الميتةُ أو سيقانُ الأعشابِ الجافةِ ، وكلُّ ساق أسود يظهرُ على حِدَةٍ بارزاً من فوقِ طبقةِ الثلجِ . وبعد أنْ دخلتْ السيارةُ إلى منتصفِ منطقةٍ ريفيةٍ ، دفعَ بول الأجرةَ للسائقِ وصرفهَ وترجَّلَ من المركبةِ ومشى يتخبَّطُ في مشيتِه على طريقِ سكةِ الحديدِ ، وعقلُه يفكرُ بخليطٍ من أشياءَ غيرِ مترابطةٍ . بدا وكأنَّهُ يحملُ في دماغِه صورةً حقيقيةً لكلٍّ ما رآه في صبيحةِ ذاكَ اليوم . لقد تذكَّرَ كلَّ ملمح من ملامحَ سائقي سيارتيٍّ الأجرةِ اللتينِ استأجرهُما ، والمرأةُ العجوزُ التي خلا فمُها من الأسنانِ ، والتي اشترى منها الوردَ الأحمرَ والذي زينَ به معطفَه ، وتذكَّر الوكيلَ الذي اشترى منْه التذاكرَ ، وكذلكَ جميعَ المسافرين الذينَ كانوا معهُ على ظهرِ المعدِّيةِ . ولكنَّه غيرُ قادرٍ على التعاملِ مع أمورٍ حيويةٍ وذاتِ ضرورةٍ مُلِحَّةٍ وهي وشيكةُ الحدوثِ . إنَّه منشغلٌ بشكلٍ محمومٍ وبطريقةٍ ماهرةٍ في تصنيفِ وترتيبِ تلكَ الصورِ التي استحضرها . لقد مثلتْ تلكَ الصورُ والمشاهدُ جزءاً منَ العالمِ القبيحِ والمكروهِ ، وجزءاً مما ألمَّ به من ألمِ الرأسِ والحرقةِ الحادةِ في لسانِه . انحنى بول وهو يمشي ، وأخذ قبضةً من الثلجِ ووضعَها في فمهِ ، ولكنَّ الثلجَ بدا حاراً أيضاً . عندما وصلَ بول إلى سفحِ تلةٍ صغيرةٍ ، حيثُ شُقَّتْ تلك المنطقةُ لمرورِ سكّةِ الحديدِ منها ، وهي تبعدُ عشرين قدماً عنه إلى الأسفلِ ، توقَّفَ بول عن سيرِهِ وجلسَ .

لاحظَ بول أنَّ ورودَ القـرنفلِ التي زينتْ مـعطفـهُ قـد ذبُلتْ وتدلَّتْ وفقدتْ احـمرارَها البهـيَّ بالكاملِ من البردِ . وقعَ في نفسِهِ أنَّ كلَّ الورودِ التي رآها في الدفـيئـاتِ الزجاجيـةِ في تلكَ الليلة الأولى قد حدثَ لها حتماً ما حدثَ لورودِ القرنفلِ قبلَ هذا الوقتِ بزمنٍ طويلٍ . إن هذه الورودَ تعيشُ لفترة قصيرة جداً وكأنَّ حياتَها عبارةٌ عن نَفَسٍ واحدٍ رائع فقطْ ثمَّ تموتُ ، وبالرغمِ من جرأةِ الورودِ على الاستهزاءِ وازدراءِ الشّتاءِ خارجَ الدفيئةِ الزجاجيةِ ، إلا أنَّ الورودَ تخسرُ اللعبةَ في النهايةِ . وإنَّ هذه اللعبةُ تبدو كالثورةِ التي يقومُ بها بعضُ الناسِ ضدَّ العظاتِ الأخلاقيةِ والدينيةِ التي يُدارُ بها العالَمُ . أخذَ بول ، وبعنايةٍ ، إحدَى الزهراتِ منْ على معطفهِ وحفرَ حفرةً صغيرةً في الثلجِ ووضعَ بداخلِها الزهرةَ وغطَّاها بالثلج . وبعـدَها أخـذتْ بول سِنَةٌ من النومِ . وبسـببِ مـا يمرُ به من حـالَةِ ضعفٍ ، بدا وكأنَّه فقدَ الإحساسِ بالبردِ .

أفاقَ بول من غفوتِه بسببِ صوتِ القطارِ القادمِ ، فنهضَ قائماً على قدميْه وقد تذكرَ فقط ما عزمَ على فعلِه ، وهو خائفٌ لئلَّا يكونَ قد تأخرَ كثيراً عن القطارِ . وقفَ يراقبُ القاطرةَ القادمةَ وأسنانُه تصطكُّ ، وقد انفرجتْ شفتاهُ عن أسنانه بابتسامةٍ تنمُّ عن الخوفِ ، وألقى بول بنظراتِه السريعةِ على جانبيهِ مرةً أو مرتين ، كما لو كانَ يُراقَبُ . وعندما حانتِ اللحظةُ المناسبةُ قفزَ بول وسقطَ على سكةِ الحديدِ ، تراءتْ له ووقعتْ في نفسِه حماقتُه في التسرُّعِ في هذا التصرُّف بوضوحٍ جَليٍّ لا يرحمُ ، وتراءتْ له كثرة

ُالأشياءِ وضخامتُها والتي تركها دون أن تتحقق . لقد ومضَ في ذهنِه بوضوحٍ أكثر من أي وقتٍ مضى ، صورةُ زرقةِ مياهِ البحرِ الأدرياتيكي وصفرةِ الرمالِ الجزائريةِ .

شعرَ بول بأنَّ شيئاً ما قد ضربَ صدرَه ، وأن جسدَه قد تناثرَ في الهواءِ بسرعةٍ وبغيرِ انقطاع ، وتتباعدُ تلك الأشلاءُ عن بعضِها وبسرعةٍ ، بينما بدأتْ أطرافُه الممزقةُ بالارتخاءِ والسكونِ رويداً رويداً . ومن ثمَّ فلأنَّ تلك الآلةَ التي كانت تُنتجُ الصورَ قد سُحقتْ ، فإنَّ تلك التخيلاتِ المزعجةَ قد انتهتْ ومضاتُها وحلّ السوادُ ، وعاد بول جزءاً من البناءِ العظيمِ في عالمِ الأشياءِ والمخلوقات .

التطور: من عَتَباتِ الطفُولةِ
إلى عَالَمِ النضوجِ

شيرود أندرسون

في ساعةٍ مبكرةٍ مِنْ مساءِ أحدِ الأيامِ، وفي أواخرِ فصلِ الخريفِ، جذبَ سوقُ مقاطعةِ واينزبيرج الموسميُّ حشوداً كثيرةً مِن سكانِ الريفِ إلى البلدةِ، ولقد كانَ نهاراً صافياً وتبعَهُ ليلٌ دافئٌ ممتعٌ وجميلٌ. إن الطريقَ داخلَ البلدةِ حيثُ يُقامُ السوقُ، تنتهي عندَ المكانِ المُسمَّى ترنيون بايك، ومِنْ هذا المكانِ تصبحُ الطريقُ بعدَ مغادرةِ البلدةِ ممتدةً بين حقولِ التوتِ. وفي هذه الفترةِ من السنةِ، فإنَّ الطريقَ تكونُ مغطاةً بأغصانِ وأوراقِ التوتِ البنِّيةِ المتساقطةِ منَ الأشجارِ، وهذا ما يؤدي إلى إثارةِ سُحُبٍ من الغبارِ عندَ مرورِ العرباتِ على الطريقِ. يُشاهَدُ الأطفالُ وهم يثنونَ أنفسهَم وينامونَ على القشِ الذي نُثرَ داخلَ العرباتِ، والذي اعتُبرَ كأسرَّةٍ لهمْ، وقدْ امتلأَ شعرُ رُؤُوسِهم بالغبارِ، وصارتْ أصابعُهم سوداءَ لزجةً. شوهدتْ سحُبُ الغبارِ وهي تلفُّ الحقولَ، وتزحفُ نحوَها وقدْ لوَّنَ هذا الغبارُ أشعةَ شمسِ الغروبِ بألوانَ زاهيةٍ متوهجةٍ.

ملأتِ الحشودُ المتاجرَ والأرصفةَ في الشارعِ المسمّى بالشارعِ الرئيسيِّ في واينزبيج . وعندما أقبلَ الليلُ ، صهلَتْ الخيولُ ، وكانَ الموظفون في المخازنِ والحوانيتِ يشتغلونَ بكلِّ ما لديهم من طاقةٍ ، وسُمعتْ أصواتُ الأطفالِ المفقودينَ والتائهينَ وهم يبكونَ بحرقةٍ . هذهِ أحداثٌ تقعُ في مدينةٍ أمريكيةٍ عملتْ بكلِّ ما أوتيت منْ جهدٍ في هذه المناسبةِ لتكونَ بأبهى حُلَلِها وتكونَ بِحدِّ ذاتِها ملاذاً للسعادةِ والأُنْسِ ، بحيثُ يكونُ كلُّ مَن فيها منغمساً بالتمتُّعِ والسرورِ .

شقَّ جورجُ ولارد طريقَهُ وسطَ الزحامِ في الشارعِ الرئيسيِّ ، وأخفى نفسَهُ في الدَرَجِ المؤدي إلى مكتبِ الدكتورِ ريفي ، وبدأَ بالنظرِ إلى الناسِ وبعيونٍ لا تهدأُ ، وبدأَ يتفحصُ سيلاً من وجوهِهِم التي تمرُّ تحتَ أضواءِ أحدِ المتاجرِ . أفكارٌ بدأتْ بالتواردِ على رأسِـــهِ وتدورُ في ذهنِهِ وهو لا يرغبُ في أنْ يُطلقَ لفكرِهِ العنانَ . أخذَ يضربُ الدرجَ الخشبيَّ برجْلِه بطريقةٍ تنمُّ عن نفادِ صبرِهِ ، وبدأَ ينظرُ حواليْه بحدةٍ وهو يتمتمُ ويُسائِلُ نفسَه : حسناً ، هل ستمكُثُ معه [أي هيلن مع معلِّمها] طوال اليوم؟ هل انتظرتُ كل هذا الوقتِ بلا فائدةٍ؟

ظهرتْ على جورج ويلارد ، هذا الفتى القرويِّ الآتي مِن أوهايو ، علاماتُ النموِّ والنضوجِ ليصبحَ رجلاً ، وقدْ بدأتْ أفكارٌ جديدةٌ تراودُهُ وتغزو عقلَهَ . طوالَ ذلكَ اليومِ ، ووسطَ اشتدادِ زحامِ الناسِ في سوقِ مقاطعة واينزبيرج ، كانَ يشعرُ بالوحدةِ . كانَ على

وشكِ أنْ يغادرَ واينزبيرج ليذهبَ إلى مدينة أخرى ، وكلُّهُ أملٌ أنْ يجدَ عملاً في صحيفة في تلكَ المدينة . إنَّ الشعورَ الذي أخذَ بمجامع قلبِه هو شعورٌ يعرفُهُ الرجالُ ولا يدركُه الصغارُ . شعرَ أنَّه لمْ يعدْ صَغيراً ، وشعرَ بقليلٍ من التعبِ . بدأتْ الذكرياتُ بالتململِ والاستيقاظِ في ذاته . إن ما خَلُصَ إليه تفكيرُهُ ، ومن وجهةِ نظرِه ، هو أن شعورَه بالنضج جعلَه مُنعزلاً وجعلَ منْه شبْهَ شخصية مأساويةٍ ، فهو بحاجةٍ إلى شخصٍ آخر يفهمُ ما تملَّكَه من مشاعرَ بعدَ وفاةِ والدته .

هناكَ وقتٌ يأتي على كلِّ فتىً ، ولحظةٌ حاسمةٌ في حياتِه ينظرُ فيها ، ولأولِ مرةٍ ، لما مضى من سنواتِ عمرِه . ربما تكونُ هذه اللحظةُ هي اللحظةُ التي يجتازُ فيها خطَّ الطفولةِ لينتقلَ إلى عالمِ الرجولةِ والنضوجِ . كان هذا الفتى يمشي في شوارعِ بلدتِه وهو يفكرُ في مستقبلِه وما ستكونُ عليه شخصيتُه ، وتؤولُ إليه في هذا العالمِ . وقد حركتْ هذه الأفكارُ في داخلِه خليطاً من الطموحاتِ والأسفِ والندمِ . وفجأةً حدثَ أمرٌ ما ، فقد توقفَ تحتَ شجرةٍ وانتظرَ ، وبدا له وكأنَّما هناك صوتٌ قد ناداه باسمِه ، وزحفَتْ أشباحُ ذكرياتِ الماضي من داخلِه إلى وعيِه وإدراكِه ، بينما همستْ أصواتٌ من خارجِ ذاتِه في أذنِه برسالةٍ تتعلقُ بمحدوديةِ الحياةِ وما فيها من قيودٍ ومعيقاتٍ . وهذه الذكرياتُ من الماضي ، والرسائلُ من الخارجِ وقدْ تواردت ووردت إلى جورج فقلبتِ الأمورَ رأساً على عقبٍ ، فبعدَ أنْ كانَ واثقاً من نفسِه ومستقبلِه ، فَقَدَ

تلك الثقةَ ، ولمْ يعدْ واثقاً لا مِنْ ذاته ولا من مستقبلِه . لو أنَّه كانَ فتىً صاحبَ خيالٍ ، لشُرِّعتْ أمامَه الأبوابُ منذُ زمنٍ ولرأى كلَّ شيءٍ على حقيقتِه ، ولكنَّه الآن ، ولأولِ مرة ، يرى العالَم ويبصرَه على حقيقتِه . رأى الناسَ يسيرونَ من أمامِ ناظريْهِ بأعدادٍ لا تحصى وكأنَّهم في موكبٍ ، أعدادٌ هائلةٌ ممَنْ سبقوهُ وقدْ جاؤوا من العدمِ ، وقدْ عاشوا حياتَهمْ ، ومنْ ثمَّ غادروا وانتهوا إلى العدمِ . شعرَ هذا الشابُ اليافعُ بالحزنِ وهو لازمةٌ مرتبطةٌ بالنضوجِ ، ومِنْ ثمَّ تنهدَ قليلاً والتقطَ أنفاسَه وهو يشعرُ بشيءٍ من الصدمةِ ؛ لأنَّه وجدَ نفسَه ليس أكثرَ من ورقةٍ تتلاعبُ بها الرياحُ في شوارعِ قريتِه . إنَّه يعلمُ ، وبالرغم مما تتصفُ به أقوالُ أقرانِه من ثقةٍ وتصميم وشجاعة ، بأنَّ عليه أنْ يعيشَ ويموتَ في المجاهيلِ كأيِّ شيءٍ تذروهُ الرياحُ ، أو أنْ يكونَ مصيرهُ كالذُّرةِ التي قُدِّر عليها أنْ تذوي وتذبلَ تحتَ أشعةِ الشمسِ . بدأ يرتجفُ وينظرُ بلهفةٍ لما حولَه ، فقدْ تراءى له ، وبدتْ أمامَ ناظريْه ، أن الثَّماني عشرةَ سنةٍ والتي مرت من عمرِه ما هي إلا كلحظةٍ واحدةٍ كطرفةِ عينٍ ، وما هي إلاّ كنَفَسٍ واحدٍ بالنسبةِ لعمرِ مسيرةِ الإنسانيةِ . إنَّه يسمعُ قرْعَ الموتِ يناديه ، لهذا ، فهو يتمنَّى ، ومن أعماقِ قلبِه ، أنْ يكونَ قريباً من إنسانٍ آخرَ يلمَسُه هو بيديْه أو أنْ يُلمسَ من قبَلِه ، وهو يُفضِّلُ أنْ يكونَ هذا الآخرُ هو امرأةٌ ، لأنَّه يعتقدُ أنَّ المرأةَ لطيفةٌ ورقيقةٌ لأنَّها أقدرُ على فهمِه ، وكانَ هذا هو أهمُّ ما يصبو إليه .

عندما تملَّكتْ جورج ويلارد لحظةُ الشعورِ بالنضوجِ ، فإنَّ فكرَةُ

كانَ باتجاهِ هيلن وايت ابنةِ المصرفي من واينزبيرج ، وكانَ يدركُ أنَّ هذه الفتاةَ تنضجُ لتكتمل أنوثتُها ، كما أنَّه هو كذلك لتكتملَ رجولَتُه . تذكَّرَ ليلةً من ليالي الصيفِ وهو في الثامنةِ عشرةَ من عمرِه ، كيفَ أنَّه تمشَّى مع هيلن في طريقٍ من طرقِ الريفِ ، وأخذَ يتباهى في حضرتِها ببعضِ الأمورِ وهو يحاولُ أن يبدوَ أمامَها وفي ناظريْها مُهمَّاً ومتميزاً وذا شأنٍ . ولكنَّه الآنَ يريدُ أن يراها لغرضٍ آخرَ ، فهو يريدُ أن يخبرَها عمَّا استجدَّ في نفسِهِ وما يحسُّه من بواعثَ ونبضاتٍ جديدة . لقد حاولَ في السابقِ وجَهدَ لكي تنظرَ إليه وتفكرَ فيه هيلن كرجلٍ بالرغم من أنَّه لم يكنْ يعرفْ ما معنى نضوجُ الرجلِ كرجلٍ ، أما الآنَ ، فإنَّه يرغبُ أنْ يكونَ معها ليحاولَ أنْ يُشعرَها ، وإنَّه مقتنعٌ بذلك ، بأنَّ تغيُّراً قدْ طرأَ على طبيعتِه .

أما بالنسبةِ لهيلن وايت فقدْ وصلتْ أيضاً إلى مرحلةِ التغيُّرِ ، وما شعرَ به جورج من نضوجٍ إلى مرحلةِ الرجولةِ شعرتْ به هيلن من نضوجٍ في أنوثتِها . لمْ تعدْ هيلن صغيرة لتتوقَ للوصولِ إلى مرحلةِ نضجِ الأنوثةِ وما فيها من سحرٍ وجمالٍ . عادتْ إلى بيتِها من كُلِّيتِها في كليفلاند من أجلِ أنْ تقضيَ يوماً في السوقِ الموسمي . وبدأتْ أيضاً باستعادةِ الذكرياتِ . فقدْ جلستْ على المدرجِ أثناءَ النهارِ مع شابٍ يافع حلَّ ضيفاً على أمِّها ، وهو يعملُ كمدرسٍ في كلِّيتِها . لقد أدركتْ للتَّوِّ أنَّ التحذلقَ هو منْ سماتِ هذا المدرسِ ، لذلكَ نَحَّتْهُ جانباً على أنَّه شخصٌ غيرُ مناسبٍ لها ولا يتناغمُ مع أهدافِها . ومع هذا فقدْ كانتْ سعيدةً أن يراها الناسُ

بصحبتِه في السوقِ الموسميِّ، وخاصةً أنَّه شخصٌ غريبٌ وصاحبُ هندام حسن. كانتْ تدركُ أن حقيقةَ مجرَّدِ وجودِه ستَخلقُ انطباعاً ما. كانتْ سعيدةً طوالَ النهارِ، ولكنْ مع حلولِ الليلِ بدأتْ تشعرُ بالقلقِ والذي صارَ يزدادُ شيئاً فشيئاً. رغبتْ في إبعادِ هذا المعلِّم والتخلصِ منه. عندما كانا جالسين على المدرج، وعيونُ زملائِها في المدرسةِ ترمُقُهما، أظهرتْ اهتماماً كبيراً بمُرافقِها، مما جعلَه يستمتعُ بهذا الأمرِ ويبوحُ بطريقةٍ تأمليةٍ عمَّا في نفسِه ويقولُ: صاحبُ العلمِ يحتاجُ إلى المالِ، وسأتزوجُ امرأةً ذاتَ مالٍ.

لقد كانتْ هيلن وايت تفكرُ في جورج ولارد في الوقتِ ذاته الذي كانَ يهيمُ على وجهِهِ كئيباً وسطَ زحامِ الناسِ مفكراً بها. تذكرتْ ذلكَ المساءَ في فصلِ الصيفِ حيثُ سارا وتمشيا معاً وكُلُّها رغبةٌ أنْ يحدثَ هذا مرةً أخرى. لقدْ اعتقدتْ أنَّ الأشهرَ التي قضتْها في المدينةِ وذهابَها إلى المسارحِ ورؤيتَها للحشودِ الكبيرةِ من الناسِ في الشوارعِ المضاءةِ قد غيَّرتْها بعمقٍ. أرادتْهُ أنْ يشعرَ ويعيَ هذا التغيُّرَ الذي حدثَ في طبيعتِها.

لقد تركَ تجوُّلُهما معاً في مساءِ أحدِ أيامِ الصيفِ أثراً لا يُمحَى في ذاكرةِ كلٍّ منهما. وعندما يُنظرُ إلى تلك الجولةِ بشكلٍ عقلانيٍّ، يتَّضحُ أنَّهما لم يحسنا استغلالَها، بل كانا إلى التفاهةِ أقربَ. مَشَيَا خارجَ البلدةِ وتَمَشَّيا في طريقٍ من طرقِ الريفِ، ثمَّ توقَّفا عند سياجٍ بجانبِ حقلٍ مزروعٍ ذُرَةً في بدايةِ نموِّها، وفي ذاكَ

الموقفِ ، خلعَ جورجُ معطفَهُ وعلَّقهُ على ذراعِهِ وقال : حسناً ، لقد مكثْتُ هنا في واينزبيرج . نعم ، لم أذهبْ بعيداً ، ولكنني أكبُرُ . وتابعَ قائلاً للتدليلِ على نضوجه : إنني أقرأُ الكتبَ وأفكرُ ، وسوفَ أحاولُ جاهداً أن أكونَ شيئاً وأنْ أصلَ إلى شيءٍ في حياتِي .

ثم فسَّر ما قالَ آنفاً : حسناً ، ليسَ هذا هو الموضوعُ ، وربَّما من الأفضلِ أن أتوقفَ عنِ الكلام .

وضعَ الفتى المرتبكُ يدَهُ على ذراعِ الفتاةِ ، وارتجفَ صوتُه ، وبدءا بالرجوعِ إلى البلدةِ عبرَ الطريقِ المؤديةِ إليها . وفي غمرةِ شعورِه باليأسِ وما يصاحبُهُ من تهورٍ قالَ متفاخراً : سأكونُ رجلاً ذا شأنٍ ، بلْ سأكونُ أعظمَ رجلٍ عاشَ هنا في واينزبيرج . ثم أفصحَ عمَّا في نفسِه قائلاً : أريدُكِ أنْ تفعلي شيئاً ، ولكنَّني لا أعرفُ ما هو . ربما هذا ليسَ من شأني . لكنَّني أريدُكِ أن تكوني مختلفةً عن النساءِ الأخريات . هل تفهمين ما أقصدُ؟ وكما قلتُ لكِ إنَّه ليس من شأني أنْ أقولَ لكِ ماذا تفعلين . أريدُكِ أن تكونِي امرأةً جميلةً . أظنُّ أنكِ تدركينَ ماذا أريدُ .

تلاشى صوتُ الفتى ، وخيم الصمتُ ، ورجعا معاً إلى البلدةِ من خلالِ شارعٍ يؤدي إلى منزلِ هيلن . وعندما وصلا إلى بوابةِ المنزلِ ، حاولَ جورج جاهداً أن يقولَ شيئاً يثيرُ إعجابَ هيلن . استحضرَ جورج الكلامَ الذي فكرَ فيه وأرادَ قولَه إلى هيلن ، ولكنْ تبيَّنَ له أنَّه كلامٌ فارغٌ وخالٍ من أيِّ معنى ، وهذا ما فكرَ به ودارَ في خلدِهِ : اعتقدتُ ، وهذا ما فكرتُ به ودارَ في ذهنِي ، أنكِ

ستتزوجين سيث ريتشموند . والآنَ تبينَ لي أنَّ هذا لنْ يَحدُثَ وأنكِ لا تريدينَ ذلك . هذا ما كانَ يمكنُ أنْ يقولَه لو قالَه . وفي أثناءِ ما كانَ يجولُ في نفسِه ، كانتْ هيلن قدْ عبَرتْ البوابةَ وهي متجهةٌ إلى بابِ منزلِها .

وفي مساءِ يوم دافىءٍ منْ أيام فصلِ الخريفِ ، وبينما كانَ جورج يقفُ على الدَّرج ويرقبُ حشودَ الناسِ المتدفقةِ في الشارعِ الرئيسيِّ ، تذكرَ وفكرَ في الحديثِ الذي كانَ بينهُما وهما بجانبِ الحقلِ المزروع بذرةٍ في بدايةِ نموِّها ، وشعرَ بالخجلِ من الشخصيةِ التي كوَّنَها وأعطاها عن نفسِه لهيلن آنذاك . رأى جورجُ الناسَ في الشارعِ كالأمواج صعوداً وهبوطاً ، وهم يُشبهونَ قطيعاً من الماشيةِ محبوساً في حظيرةٍ ضيقة . لقد ملأتْ العرباتُ الشارعَ الضيقَ . وكانتْ هناكَ فرقةٌ موسيقةٌ تعزفُ الألحانَ ، والأولادُ يتسابقونَ على جوانبِ الطرقِ وهمْ يمرونَ من بينِ أرجلِ الرجالِ وكأنهمْ يغوصونَ بينها . شبابٌ بوجوهٍ متلألئةٍ شابتَها حمرةٌ يسيرونَ وهمْ يحتضنونَ الفتياتِ بأوضاعِ غيرِ ملائمةٍ . وفي غرفةٍ فوقَ أحدِ المخازنِ حيثُ سيكونُ الرقصُ ، بدأ عازفو الكمانِ بالعزفِ على آلاتِهم . صدحتْ أصواتُ الموسيقى وانسابتْ من النافذةِ المفتوحةِ ، وامتزجتْ بهمساتِ الموجودينَ وبأصواتٍ قويةٍ لأبواقِ فرقةِ العزفِ . هذا الخليطُ منَ الأصواتِ شكَّلَ ضغطاً على أعصابِ الفتى جورج ويلارد . إنَّها أصواتٌ وضجيجٌ في كلِّ مكانٍ ومِنْ جميعِ الجوانبِ . هناك ازدحامٌ وحركةٌ للحياةِ لا تهدأُ وهي تبدو وكأنَّها تحاصرُ

جورج ، وهو يرغبُ بالهروبِ بنفسه منها ليفكرَ . وأخذَ يفكِّرُ ويقولُ في نفسِه : لو أنَّ هيلن أرادتْ أنْ تبقى معَه [أي المعلِّم] لاستطاعتْ . لماذا أنا مهتمٌ بذلك؟ ما الفرقُ بالنسبةِ لي إنْ حدثَ هذا الأمرُ أو ذاك؟ قالَ ذلك في نفسِه وهو يُدمدِم . سارَ في الشارعِ الرئيسيِّ ، ثم عبرَ شارعاً آخرَ يُسمَّى هيرنز جروسري ، ومن ثمَّ دلفَ إلى شارعٍ فرعيٍّ .

شعرَ جورج بالوحدةِ والكآبةِ بعمقٍ ، وكانَ بودِّه أنْ يبكي ، ولكنَّ كبرياءه منعتْه من ذلك ، وجعلتْه يسيرُ وهو يحثُّ الخُطى مُؤرِّجحاً ذراعيهِ ليخففَ مما يعتريهِ من وحدةٍ وكآبة . وصلَ إلى وسلي موير ، وهو اسطبلٌ ومأوى للعرباتِ ، فوقفَ هناكَ في الظلِّ ليستمعَ إلى مجموعةٍ من الرجالِ يتحدثونَ عن سباقِ وسيلي للخيولِ في السوقِ الموسميِّ الشعبيِّ خلالَ ساعاتِ المساءِ والذي فازَ به الحصانُ توني تب . اجتمعَ حشدٌ من الناسِ أمامَ الحظيرةِ ، وقبلَ أنْ يتفرَّقوا ظهرَ وسيلي أمامَهم يقفزُ وينطنطُ مُتبختِراً ومُتفاخِراً بفوزِهِ في السباقِ ، وكانَ يحملُ سوطاً بيدِه ينقرُ به الأرضَ ، فارتفعتْ سحابَةٌ من الغبارِ وظهرتْ في ضوءِ المصباحِ ، وأعلنَها مدويةً : إلى الجحيم . توقفوا عن الحديث . استأنفَ وسيلي موير حديثَه : أنا لمْ أكنْ خائفاً . أنا أعلمُ أنَّني سأفوزُ دائماً وبلا منازع . أنا لمْ أكنْ خائفاً . لو كانَ جورج ويلارد بوضعِه العاديِّ لالتفتَ واهتمَّ بشكلٍ كبيرٍ بتفاخُرِ هذا الفارسِ ، موير ، لكنَّه الآنَ يشعرُ بالغضبِ اتجاهَهُ ، ولهذا استدارَ وغادرَ المكانَ وهو يمشي مسرعاً

في الشـارعِ وهو يتـمـتـمُ : لماذا يتـبـجَّحُ هذا الثـرثارُ الفـارغُ؟ لماذا لا يصمتُ؟

ذهبَ جورج إلى أرض خـاليةٍ وهو مسرعٌ يحثُّ الخُطى ، فوقعَ على كـومـةٍ من القُـمـامـة ، وتمزَّقَ بنطالُهُ بسـبـبِ مـسـمـار ناتىءٍ من برميلٍ فارغٍ ، فجلسَ على الأرضِ وهو يسبُّ . قامَ بإصلاحِ بنطالِهِ بتـشـبـيكٍ مكانِ مـا تمزَّقَ بدبوسٍ ، ثـم نهضَ وواصلَ سـيـرَهُ وهو يحـدِّثُ نفـسَـه قـائلاً : سـأذهبُ إلى بيتِ هيلن وايت . هذا مـا سأفعلُه . سأذهبُ للتوِّ وسأقولُ مباشرةً : إنني أريدُ رؤيتَها . كرَّرَ ما حدَّثَ بهِ نفسَهُ ، ثمَّ تسلَّقَ سياجاً وتخطاهُ وبدأَ بالركضِ .

كـانتْ هيلن تجلسُ على شـرفـةِ منزلِهـا وهي ضـيـقـةُ الصـدرِ وشـاردةُ الذهنِ ، وكـانَ المعلِّمُ يجلسُ بينَهـا وبينَ والدتِهـا ، وكـانَ كـلامُه يملأُ هيلن بالضَـجَـرِ . وبالرُّغمِ من أنَّ هذا المعلِّمَ قـدْ نشـأَ في بلدةِ أوهايو ، إلا أنَّه بدأَ يتـأقلمُ ويتكيفُ معَ أجواءِ الحـيـاةِ في هذهِ المدينةِ ، واينزبيرج . أرادَ هذا المعلمُ أن يُظهرَ نفسَه كـشخصيةٍ ذاتِ مـلامح عـالميـةٍ ، فـصـرَّحَ قـائلاً : لـقـد أحـببتُ هذه الفـرصـةَ التي منحـتـمـونيـها من أجلِ أن أدرسَ الخلفـيةَ التي نشـأتْ فـيـها ومنْهـا معظمُ الفتياتِ . وأضافَ قـائلاً : إنَّه منْ لطفكِ يا سيدةَ وايت أنَّكِ استضفتيني هذا اليوم . ثم استدارَ لهيلن ، وضحكَ وقالَ متسائلاً : هل لا تزالُ حياتُكِ مرتبطةً بالحياةِ في هذهِ البلدةِ؟ هل يوجدُ أناسٌ هنا يثيـرونَ اهتـمامَكِ؟ لقدْ بدتْ نبرةُ صوتِهِ بالنسبةِ لهيلن ثقيلةً وتتَّسمُ بالعجرفةِ .

نهضتْ هيلن وذهبتْ إلى البيتِ ودخلتْه ، وذهبتْ إلى حيثُ البابِ الخلفيِّ المؤدي إلى الحديقةِ ، ووقفتْ هناكَ تَسْتَرِقُ السَمْع ، فسمعتْ أمَّها تقولُ : لا يوجدُ شخصٌ هنا يناسبُ هيلن كي ترتبطَ به بسببِ نشأتِها .

نزلتْ هيلن الدرجَ الموجودَ خلفَ المنزلِ بسرعةٍ ودخلتْ الحديقةَ . وقفتْ في الظلامِ وهي ترتجفُ ، وبدا لها أنَّ هذا العالمَ مليءٌ بأناسٍ فارغينَ يتفوهونَ بكلماتٍ فارغةٍ لا معنى لها . اشتعلتْ هيلن لهفةً وشوقاً ، فركضتْ وخرجتْ عبرَ بوابةِ الحديقةِ ، والتفَّت حولَ زاويةِ إسطبلِ الصيرفيِّ ، ومِنْ ثمَّ دلفتْ إلى شارعٍ جانبيٍّ صغيرٍ ، وهي تصيحُ ، وقد طفحَ الكيلُ وامتلأتْ نفسُها بانفعالٍ شديدٍ : جورج! أين أنتَ يا جورج؟ توقفتْ عن الركضِ واتكأتْ على شجرةٍ وبدأتْ تضحكُ بشكلٍ هستيريٍّ . وعَبْرَ الشارعِ الصغيرِ المظلمِ ، كانَ هناكَ جورج وهو ما يزالُ يرددُ كلماتِه على الملأِ ، وهو سائرٌ باتجاهِ هيلن : أنا سائرٌ مباشرةً إلى منزلِها . سأذهبُ هناكَ مباشرةً وأجلسُ فيه . تفاجأَ جورج بوجود هيلن ، فتوقَّفَ وهو يحملقُ ببلاهةٍ وقد زاغَ بصرُهُ وقالَ لها : هيّا ، تعالي . ثم أخذَ بيدِها ومشيا في الشارعِ تحتَ الأشجارِ وهما مطأطِئي رأسيْهما ، وصوتُ خشخشةِ الأوراقِ الجافةِ تحتَ أقدامِهما . والآن ، وقدْ وجدَ جورج ضالتَه ، تساءَل في نفسِه عن الشيءِ الأفضلِ الذي عليهِ فعلُه وقولُه أمامَها .

في النهايةِ العليا من أرض السوق الموسمي في واينزبيرج ،

يوجد مُدرَّج قديم نصف متهالك . فهذا المدرج لم يُدهن بتاتاً ، وألواح الخشب فيه قد تشوَّه شكلها واعوجت بفعل الزمن والإهمال . يقع هذا المدرج على قمة تلة قليلة الارتفاع على حافة وادي واين كريك ، ومن هنا يستطيع الشخص أن يرى في الليل أضواء البلدة وهي تسقط على حقلٍ للذرة وتنعكس إلى أعلى حيث السماء .

صعدَ جورج وهيلن التلةَ إلى حيثُ أرض السوقِ الموسميٍّ بمحاذاةِ الممرِّ المؤدي إلى البركةِ المسماةِ وتروركس . إن الشعورَ بالوحدةِ والعزلةِ والذي انتابَ جورج في الشوارعِ المزدحمةِ قدْ تحطّمَ وتعززَّ في آنٍ معاً ، وهو بصحبةِ هيلن . وما كانَ يشعرُ به كانَ ينعكسُ على هيلن ، فكانَ شعورُها مماثلاً لشعورِه .

هناك دائماً قوّتانِ تتصارعانِ في نفوسِ الشبابِ . قوةٌ حيوانيةٌ تحرِّكُها نيرانُ الشهواتِ ، وهي بعيدةٌ عن التفكيرِ ، وأخرى ذاتُ قوى تذكُّرية ومنطقيةٍ عاقلةٍ ، وقد استحوذتْ القوةُ الثانيةُ ، وهي القوةُ المتطورةُ والأرقى على جورج ويلارد . استشعرتْ هيلن مزاجَ جورج فمشتْ بجانبِه وهي ممتلئةٌ بالاحترامِ . وعندما وصلا إلى المدرجِ صعداهُ وجلسا تحتَ سقفهِ على مقعدٍ طويلٍ ، ويبدو تهالُكُه بسببِ الزمنِ والإهمالِ ، وكأنَّه كان يوماً ما أحدَ مقاعدِ المدرجِ .

إن تجربةَ العودةِ ليلاً إلى أرضِ السوقِ الموسميِّ السنويِّ الواقعَ على حافةِ بلدةِ مدلْ ويست بعد انفضاضِه أمرٌ لا يُنسى . حقاً ، إنَّه شعورٌ لا يُنسى . يشعرُ المرءُ بأنَّه محاطٌ بالأشباحِ من كلِّ

جانبٍ ، ولكنَّها ليستْ أشباحَ أمواتٍ ، بل أشباحُ أناسٍ أحياء . إلى هنا ، حيثُ هذا السوقُ ، تدفقَّ الناسُ في اليومِ السابقِ من هذهِ البلدةِ ، ومما حولها من البلداتِ . مزارعون قدموا مع زوجاتِهم وأولادِهم ، وأناسٌ كثيرون يسكنون في مئاتِ البيوتِ الخشبيةِ الصغيرةِ جاءوا وتجمعوا داخل هذا السوق المحاط بجدرانٍ خشبيةٍ . ضحكتِ الفتياتُ ، وتكلَّمَ رجالٌ مُلتحونَ عن أمورٍ شتى في حياتِهم . خلالَ النهارِ كانَ هذا المكانُ يطفحُ بالحياةِ ، فإذا جُنَّ الليلُ ، اختفى كلُّ ما كانَ يعجُّ به السوقُ من مظاهرِ للحياةِ ، وخيّمَ عليه صمتٌ يقتربُ من أنْ يكونَ مخيفاً . قد يخفي الإنسانُ نفسَه وهو واقفٌ بصمتٍ بجانبِ جذعِ شجرة ، ولكنَّه ، وهو في هذه الحالة ، تكونُ نوازعُه وميولُه الطبيعيةُ التأمليةُ تزدادُ قوةً وتتكثفُ . حقاً إنَّ الإنسانَ ليرتعدُ عندما يخطرُ ببالِه بأنَّ هذه الحياةَ الدنيا فارغةٌ منْ أيِّ معنىً ، وفي اللحظةِ نفسها ، وعندما يمرُّ بخاطرِه بأنَّ هؤلاءِ الناسَ ، سكانَ هذهِ البلدةِ ، همْ أهلُهُ وذووهُ ، فإنَّه يحبُّ الحياةَ ويتمسكُ بها بقوةٍ حتى تترقرقَ عيناهُ بالدموعِ لشدةِ حبِّه للحياةِ والناسِ .

جلسَ جورج ويلاد بجانبِ هيلن في الظلمةِ تحتَ سقفِ المدرجِ ، وشعرَ بشدةٍ وبعمقٍ بعدمِ أهميتِهِ وتفاهةِ وجودِهِ في هذا الكونِ ومشروعِ الحياةِ . والآنَ ، وقدْ ذهبَ عن جورج التوتر ، وقدْ غادرَ الناسُ البلدةَ ، فقدْ كانَ يؤرِّقُ جورج ويوتِّرُه وجودُ الناسِ في البلدةِ وحركتُهُم ونشاطهُم فيها ، حيثُ كانوا مشغولينَ بأمورٍ شتى

من أمورِ حياتِهم . إن وجودَ هيلن بجانبِه قد أنعشَهُ وجددَ نشاطَه ، ويبدو وكأنَّ يدَ هذهِ الأنثى ، هيلن ، تمتدُّ إليه وتساعدهُ في إعادةِ إجراءِ تعديلاتٍ دقيقةٍ في طرائقِ حياتِه . لقد بدأ تفكيرهُ يتغيَّرُ اتجاهَ سكانِ بلدته ، فقدْ أصبحَ ينظرُ إليهم بشيءٍ من التبجيلِ . وهو أيضاً ينظرُ إلى هيلن بإحترام عميقٍ ، ويتوقُ إلى حبٍّ متبادَلٍ بينهُما ، ولكنَّه في الوقتِ ذاته يخشى الإرباكَ والاضطرابَ من كونِها أنثى . أمسكَ بيدِها في الظلامِ ، وعندما زحفتْ وهي جالسةً واقتربتْ منه ، وضعَ يدَه على كتفِها . بدأتْ الريحُ تهبُّ ، وبدأ جورج يرتجفُ . حاولَ جورج وبكلِّ قوةٍ أنْ يحافظَ على تماسكِه ، وأنْ يفهمَ الحالةَ التي اجتاحتْهُ واستحوذتْ عليه . في ذاكَ المكانِ المرتفع ، وفي تلك الظلمةِ ، أمسكَ الاثنان ، واللذان يملكان خلايا إنسانيَةً مفرطةَ الحساسيةِ ، ببعضِهما بقوةٍ وانتظرا ، وكانَت تدورُ في خَلْدِ كلٍّ منهُما الفكرةُ التاليةُ ، والتي يلمسُها كلٌّ منهما بشعورِه : لقدْ جئتُ إلى هذا المكانِ المنعزلِ ، وقدْ جاءَ إلى هنا ذاكَ الآخرُ الذي كنتُ أنتظرُه وأريدُه .

في واينزبيرج ، انتهى نهارُ ذلكَ اليوم المليءِ بالزحامِ والمفعمِ بالحياةِ ، بعد أنْ امتدَّ بحيويتِه ليشملَ جزءاً من الليلِ ، من ليلةٍ من الليالي الطويلةِ في أواخرِ فصلِ الخريفِ . خرجتِ الخيولُ ، والتي يملكُها الفلاحون ، وهي تعدو بتؤدَةٍ من البلدةِ في طرقٍ ريفيةٍ منعزلةٍ ، وهي تجرُّ عرباتِها المحمَّلةَ بحصتِها من الناسِ المرهقينَ من التعبِ . بدأ الباعةُ بلملمةِ ما هو معروضٌ من عيّناتٍ من بضاعتِهم

على جوانبِ الطرقِ وإرجاعِها داخلِ المخازنِ وإقفالِ أبوابِها. تجمهرَ حشدٌ من الناسِ في دارِ الأوبرا لمشاهدةِ أحدِ العروضِ، وعلى مسافةٍ من دارِ الأوبرا في الشارعِ الرئيسيِّ توجدُ مجموعةٌ من عازفي الكمانِ، والذين يصدحونَ بألحانِهم، والعرقُ يتصبَّبُ منهم، وهم منشغلون بكلِّ جدٍّ منْ أجلِ الحفاظِ على حماسةِ الشبابِ وجعْلِهِم يرقصونَ وأرجلُهم ترتفعُ وكأنَّها تطيرُ فوقَ الأرضيةِ المخصصةِ للرقصِ.

بقيَ جورج ويلارد وهيلن وايت صامتينِ والظلامُ يلفُّهُما وهما في المدرج. كانت تلك اللحظاتُ الساحرةُ التي تأسرُهما تنقطعُ من حينٍ لآخرَ، والتفَّا ليحاولَ كلٌّ منهُما، وتحتَ الضوءِ الخافتِ، أن ينظرَ في عينَيِّ الآخرِ، وتبادلا القُبَل، ولكنَّ هذا الأمرَ الذي هو وليدُ اندفاعةٍ لحظيةٍ لمْ يدمْ طويلاً، فقدْ كانَ هناكَ في النهايةِ العليا لأرضِ السوقِ الموسميِّ ستةٌ منَ الرجالِ يعملونَ على العنايةِ بالخيولِ التي اشتركتْ في السباقِ خلالَ فترةِ ما بعد الظهرِ. أشعلَ هؤلاءُ الرجالِ النارَ، ووضعوا عليها الغلاَّياتِ المليئةَ بالماءِ. لمْ يكنْ بإمكانِ جورج وهيلن أن يريا سوى أرجلِ هؤلاءِ الرجالِ عندما يتحركونِ ذهاباً وإياباً من أمامِ ضوءِ النارِ المشتعلةِ، وكانتْ شعلةُ النارِ تتراقصُ بقوةٍ وفي كلِّ اتجاهٍ كالمجنونِ وذلكَ كلَّما هبتِ الريحُ.

نهضَ جورج وهيلن وسارا بعيداً في الظلام الذي يلفهما. سارا في ممرٍ قربَ حقلٍ من الذرةِ لمْ يُحصدْ بعدُ، وسُمعتْ

همساتُ الريح وهي تهبُّ على الأوراقِ الجافةِ للذرةِ . وفي طريقِ عودتِهما إلى البلدةِ ، وفي لحظةٍ من اللحظاتِ ، انقشعَ ما كانَ يأخذُ بتلابيبِهما من سحرٍ لوجودِهما مع بعضِهما البعض . وعندما وصلا إلى قمةِ التلةِ المسماةِ وترويركس ، وقفا بجانبِ شجرةٍ ووضعَ جورجُ يدَهُ مرةً أخرى على كتفيِّ الفتاةِ ، فعانقتْه بتوقٍ ، ولكنهما تراجعا ، وانسحبَ كلٌّ منهُما بسرعةٍ إلى الخلفِ مما حدثَ في هذهِ اللحظةِ من الاندفاعِ من عناقٍ وتقبيلٍ ، وتوقفا عن ذلك ، وانفصلا عن بعضِهما ووقفا مبتعدين ، قليلاً عن بعضِهما البعض . نما الاحترامُ المتبادلُ في نفسِ كلٍّ منهُمَا للآخرِ . شعرَ كلٌّ منهُما بالحرجِ ، وللتخفيفِ مما شعرا به انغمسا بالروح الحيوانيةِ لدى الشبابِ ، فأخذَ أحدهُما يسحبُ ويجذبُ الآخرُ الذي كان يبتعد قليلاً وبالتناوبِ ، وبهذِه الطريقةِ وبهذا المزاجِ نقيا نفسيتْهما وأزالا ، نوعاً ما ، ما بهما من تطرفٍ في المشاعرِ ، وصارا ليسا كرجلٍ وامرأةٍ ، أو كفتاةٍ فتى ، وإنما أصبحا كحيوانين صغيرين يلهوان بحماسة .

وبهذا الشعورِ الذي غمرَهُما ، نزلا مِنْ على التلة ، وفي هذا الظلامِ بدءا يلعبانِ كشيئينِ صغيرينِ رائعينِ في عالم كلُّه شبوبيةٌ ومفعمٌ بالحيويةِ . وفي ذاتِ مرةٍ ، وبينما هيلن تركضُ متقدمةً بسرعةٍ وخفَّة ، عرقلتْ جورج ، فتعثَّرَ وسقطَ أرضاً وهو يصيحُ ويتلوَّى من الألمِ ، ومع هذا فقدْ بدأَ يهتزُّ من الضحكِ وهو يتدحرَّجُ إلى أسفلِ التلةِ ، ولحقتْ به هيلن راكضةً . وتوقفتْ للحظةٍ في

الظلامِ ، ولا توجـدُ طريقـةٌ لنعلمَ مـا هي الأفكارُ التي تخصُّ المرأةَ والتي دارتْ في رأسِـهـا وطَرقتْ عـقلَهـا ، ولكنْ عندمـا وصـلا إلى أسـفلِ التلةِ ، ذهبتْ هيلن إلى جـورج وأخـذتْ بذراعِـه ومـشتْ بجانبِهِ بصـمت ملؤُه الوقارُ والاحـترامُ . ولسـببٍ ما ، لم يستطيـعا شرحَ أو تفسيرَ أنَّهما حصلا ، ومن خلالِ الصمتِ في ذاكَ المساءِ ، على مـا يريدان . لقـد تمكَّنا في لحظةٍ من اللحظاتِ كرجلٍ وامـرأةٍ ، أو كفـتىً وفتـاةٍ من التحـصُّلِ على الشَّيءِ الذي يجعلُ في مـقدورِ الإنسـانِ وبإمكانِه الوصولُ إلى مـرحلةِ النضجِ والإدراكِ الواعي في هذا العالمِ الحديثِ .

وردةٌ إلى إميلي(٥)

ويليم فوكنر

الجزءُ الأولُ

عندما توفيتْ الآنسةُ إميلي جريرسون، خرجتْ بلدتُنا عن بكرةِ أبيها للمسيرِ في الموكبِ الجنائزيِّ، وكلٌّ له مآربُه، فالرجالُ نظروا إليها باحترام وإكبار، كما ينظرُ الإنسانُ إلى تمثال أثريٍّ منهار. أما النساءُ فكانَ الفضولُ لرؤيةِ ما بداخلِ منزلِ الآنسةِ إميلي هو الباعثُ على خروجهن، فبيتُها كانَ سرّاً من الأسرارِ المغلقةِ لسنينَ طويلة، فلا أحد يعرفُ ما بداخلِهِ سوى خادمِها المسنِّ، والذي جمعَ في عملِه ما بينَ عملِ البستانيِّ وعمل الطباخِ، والذي كانَ موجوداً في عملِه ويشاهده الناسُ لعشرِ سنواتِ على الأقلِ.

إن دارَ الآنسةِ إميلي كبيرةٌ ومربعةُ الشكلِ، وكانتْ في الأيامِ الخوالي مطليةً باللونِ الأبيضِ، ومزينةً بالقبابِ والزخارفِ الحلزونيةِ

(٥) الراوي لهذه القصة هم أهلُ البلدةِ التي تعيش فيها الآنسة إميلي.

والشرفاتِ المدرجةِ على نمطٍ معماريٍّ تبدو عليه الرشاقةُ ، والذي كانَ سائداً في السبعينياتِ من القرنِ الماضي [أي القرنِ التاسعَ عشرَ] . هذهِ الدارُ موجودةٌ في شارعٍ كان من أكبرِ الشوارعِ المميزةِ والمحببةِ إلى النفوسِ . ولكنَّ الأمرَ اختلفَ الآنَ كثيراً ، فهوَ الآنَ شارعٌ صاخبٌ يعجُّ بالكراجاتِ ومحلاتِ حلجِ القطنِ ، والتي شوَّهتْ ما جاورَها من معالمِ المكانِ والزمانِ ، حتى طالَ التشويهُ أسماءَ جليلةً ومُهابةً في تلكَ المحَلَّةِ ، ولمْ يبقَ في الشارعِ من معالِمَ تراثيةٍ سوى بيتِ الآنسةِ إميلي ، والذي يقفُ بعنادٍ وصلابةٍ بمعالمِهِ القديمةِ والتي عفى عليها الزمن ، فيبدو وكأنَّه ينظرُ من علٍ إلى الناقلاتِ المليئةِ بالقطنِ ، وإلى مضخاتِ ومحطاتِ بيعِ المحروقاتِ ، فهذا البيتُ يبدو مزعجاً في مشهدٍ مليءٍ بما يُزعجُ . وهكذا رحلتْ الآنسةُ إميلي ودفنتْ حيثُ دفنَ أناسٌ ذوو مقاماتٍ رفيعةٍ ، حيثُ يرقدونَ في مقبرةٍ تلفُّها أشجارُ الأرزِ والذي يَشْدَهُ الناسَ بروعتهِ . في هذهِ المقبرةِ يوجدُ رفاتُ ضباطٍ ذوي رُتبٍ عاليةٍ وجنودٍ مجهولينَ من جيشِ الاتحادِ الأمريكيِّ ، والذين سقطوا في معركةِ الشرفِ والدفاعِ عنْ هذهِ البلدةِ ، جيفرسون ، ولهذا سميتْ المعركةُ بمعركةِ جيفرسون .

عندما كانتْ الآنسةُ إميلي على قيدِ الحياةِ ، فإنَّها كانتْ رمزاً للتقاليدِ والقيامِ بالواجباتِ المختلفةِ . وهناكَ واجباتٌ والتزاماتٌ عريقةٌ ومتوارثةٌ أَخذَتْها البلدةُ على عاتقِها ، تعودُ إلى سنةِ ١٨٩٤ منذُ أنْ كانَ العقيدُ سارتوريس رئيساً للمجلسِ البلديِّ ، والذي

رعى أمراً ، وتبنَّى مرسوماً ، حظرَ بموجبِه على النساءِ الزنجياتِ الخروج إلى الشوارعِ دونَ مئزرٍ خاص يميّزهنَّ عن غيرهنَّ من حرائرِ بناتِ البلدةِ . وهذا الرئيسُ هو الذي أعفى إميلي نهائياً من دفع الضرائبِ المترتبةِ عليها للبلديةِ وذلكَ منذُ رحيلِ والدِها إلى الحياةِ الأبديةِ . وليس معنى إعفاءِ الآنسةِ إميلي من دفع الضرائبِ هو قبولِها للصدقاتِ ، فهذا ليسَ من شيَمِها . ولذلكَ ، فقد اختلقَ سارتوريس قصةً ادَّعى فيها أنَّ والدَ الآنسةِ إميلي قد قدمَ أموالاً كقروضٍ للبلدةِ ، والبلدةُ بدورِها ، وكنوع من تبادلِ المنافع وكاعتراف بفضلِه ولسدادِ معروفه ، فقد فضَّلتْ البلدية سدَّ هذاَ الدينَ عن طريقِ إعفاءِ ابنته الآنسة إميلي من الضرائبِ المترتبةِ عليها . حقاً ، إن باستطاعةِ رجلٍ من جيلِ ومدرسةِ العقيد سارتوريس أن يختلقَ مثلَ هذهِ القصةِ ويخرجها إلى حيِّزِ الوجودِ والتنفيذِ ، ويمكنُ لامرأةٍ من تلك الطينةِ نفسها أن تصدِّقها .

ظهرَ جيلٌ جديدٌ في البلادِ ، وبدأ بتسلُّمِ مقاليدِ الأمورِ ، وقدْ تميَّزَ هذا الجيل بأفكارِه الأكثر حداثةً ممنْ سبقوهُ ، وتقلَّدَ أفرادُهُ مناصبَ مهمةً في البلادِ ، ومن هؤلاءِ جاءتْ أطقمٌ جديدةٌ لإدارةِ البلدياتِ ورئاستِها كهذهِ البلدةِ التي تعيشُ فيها الآنسةُ إميلي . لقد نظرَ هؤلاءِ إلى الإجراءاتِ والترتيباتِ التي وضعَها سارتوريس لمعاملةِ الآنسةِ إميلي بنوع من عدمِ الارتياحِ وعدم الرضى . لهذا فقد أرسلَ المجلسُ البلديُّ في رأسِ السنةِ إلى الآنسة إميلي إشعاراً ضريبياً ، وحلَّ الشهرُ الثاني من السنة ، أي شهرُ شباطٍ ولم تتلقَ

البلديةُ أي ردٍّ منها ، مما دفعَهم إلى إرسالِ كتابٍ رسميٍّ لها يدعوها للحضورِ إلى مكتبِ رئيس البلديةِ ، وفي الوقتِ المناسبِ والمريح لها . ولمّا لمْ تحضرْ بعد مرورِ أسبوعٍ على إرسالِ الإشعارِ ، كتبَ لها رئيسُ البلديةِ بنفسِهِ كتاباً عرضَ عليها أن يذهبَ هو لزيارتِها في بيتِها ومقابلتِها هناك ، أو أنْ يبعثَ لها بسيارتِه لإحضارِها إلى دارِ البلديةِ . وكانَ ردُّها عبارةً عن ملاحظةٍ مختصرةٍ على ورقةٍ ذاتِ شكلٍ قديمٍ عفى عليها الزمن ، وكتبتْ تلك الملاحظةَ بقلمٍ سائلٍ وبحبرٍ باهتٍ رفيعٍ ، ودوَّنتْ فيها بأنَّها لا تخرجُ من بيتِها مطلقاً ، وأرفقتْ مع هذهِ الرسالةِ الإشعارَ الضريبي دونَ أدنى تعليقٍ عليه .

دُعي إلى اجتماعٍ خاصٍ للمجلسِ البلديِّ ، وشَكَّلَ المجلسُ وفداً لمقابلةِ الآنسةِ إميلي . ذهبَ الوفدُ إلى بيتِها ، وطرقَ البابَ الذي لمْ يَعْبُرْهُ زائرٌ ولفترةٍ طويلةٍ ، وبالتحديدِ منذ أن توقفتْ إميلي عن إعطاءِ دروسٍ في الرسمِ والنقشِ على الخزفِ الصينيِّ ، وكانَ هذا قبلَ ثماني أو عشرَ سنوات . استقبلهم خادمُ إميلي الزنجيُّ الكبير في السنِّ ، وأذن لهم بالدخولِ وقادَهُم إلى ردهةٍ معتمةٍ ، ومنها إلى دَرَجٍ أكثرَ عتمةً وأشدّ إظلاماً ، وكانَ الوفد يشم رائحةَ الرطوبةِ المنبعثةِ من أرجاءِ هذا المكانِ المغلقِ ، وتختلطُ مع هذه الرائحةِ رائحةُ الغبارِ والروائح المنبعثةِ من الأماكنِ المهجورةِ والتي يتركُها الناسُ ولا يستعملُها أحد . قادهمْ الزنجيُّ إلى قاعةٍ نُجِّدَ أثاثها بجلد يوحي مظهُره أنه سميك وثقيل ، وعندما أزاح الزنجي ستارة إحدى النوافذ ، تراءى للجميع بأن هذا الجلد قد تشقَّقَ

بفعلِ الزمنِ . وعندما جلسَ الوفدُ انتشرتْ سحابةٌ من الغبار خرجتْ من تحت أفخاذهم ، وساعدت الكوَّة ، والتي ينفذ منها شعاعُ الشمسِ اليتيمِ إلى داخل دارِ إميلي ، على مشاهدةِ الهباءِ المتصاعدِ جرَّاء جلوسِهم . وشاهدَ الوفدُ صورةً مرسومةً بأقلامِ الشمع الملونةِ لوالدِ الآنسةِ إميلي موضوعةً قربَ الموقدِ على حاملٍ مذهَّبٍ فَقَدَ بريقَه وأصبحَ باهتاً .

عندما دخلتْ إميلي وقفَ جميعُ الحاضرين ، وكانتْ امرأةً صغيرةَ الحجم ولكنَّها بدينةٌ ، وكانتْ ملابسُها سوداءَ اللونِ ، وتضعُ حولَ عنقِها سلسلةً ذهبيةً رفيعةً تتدلى حتى خاصرتِها ، وتنتهي مختفيةً تحتَ حزامِها ، وكانت تتكىء على عكازةٍ أبنوسيةٍ ذاتِ مقبضٍ مذهّبٍ قد بهتَ لونُه . لقد بدتْ بُنيَتُها صغيرةً ، ولكنها ممتلئةٌ أكثرَ مما ينبغي ، وهذا الامتلاءُ في حقٍّ غيرِها من النساءِ يعتبرُ امتلاءً محموداً ، ولكنَّه في حقِّها يعتبرُ سمنةً زائدةً . لقد بدتْ منتفخةً وشاحبةً كجسمٍ غُمرَ في الماءِ الراكدِ لفترةٍ طويلةٍ ، وعيناها غائرتانِ في تجاعيدِ وجهِها وثناياه المتورِّمَة . لقد بدتْ تلك العينانِ كقطعتي فحم ضغطتا في قطعةٍ من العجينِ وهما تُجيلانِ النَظَرَ في وجوهِ الحاضرين ، وفي هذهِ الأثناءِ كانَ الوفدُ الزائرُ يذكرُ لها ويعرضُ عليها مهمتهُ ورسالتهُ التي جاء من أجلِها لزيارتِها .

لم تتصرف إميلي بلياقة ، فلم تُشرْ أو تطلبْ من زوارِها الواقفين بالتفضُّلِ بالجلوسِ ، وإنما بقيتْ واقفةً عندَ عتبةِ البابِ ، وهي تستمعُ بهدوءٍ إلى الشخصِ المتحدِّثِ حتى تلعثمَ وتوقَّفَ عن

الكلامِ ، وفي هذهِ اللحظةِ سمعَ الجميعُ صوتَ تكتكةِ ساعةِ إميلي المعلقةِ في نهايةِ السلسلةِ الذهبيةِ والتي أخفتْها تحت حزامِها .

وهنا تكلمتْ بجفاءٍ وببرودةِ أعصابٍ وقالتْ : ليس عليَّ من ضرائبٍ في جيفرسون . لقد شرحَ لي العقيدُ سارتوريس الأمرَ من قبلُ ، ويستطيعُ أحدُكم ، إنْ رغبَ في معرفةِ حقيقةِ الأمرِ ، أنْ يعودَ إلى السجلَّاتِ الموجودةِ في دارِ البلديةِ ، والتي سوفَ تُشفِي غليلَهُ وتجعلُه يقتنعُ بما أقولُ .

فقالَ المتحدِّثُ باسمِ الوفدِ : لقد قمْنا بذلكَ يا آنسة إميلي ، وكما تعلمينَ ، فنحنُ الموجودينَ هنا نمثِّلُ السلطةَ في هذه المدينةِ . ألمْ يصلْكِ إخطارٌ موقعٌ من رئيسِ بلديةِ المدينةِ؟

أجابتْ إميلي : نعمْ ، لقد وصلتْني ورقةٌ منْه ، ربما يعتبرُ نفسَهُ رئيساً للمدينةِ . . . على كلِّ حالٍ ، ليس عليَّ من ضرائبٍ في جفرسون .

فردَّ عليها : لا يوجدُ شيءٌ من هذا القبيلِ فيما بينَ أيدينا مِنْ سجلاتٍ وكتبٍ رسمية ، وكما ترينَ فإنَّه يتعيَّنُ علينا أن . . .

فقاطعتْه إميلي قائلةً : إذهبْ لرؤيةِ العقيدِ سارتوريس واسألْه . ليسَ عليَّ من ضرائبٍ في جفرسون .

فسارعَ في الردِّ وقالَ لها : ولكنْ ، آنسة إميلي . . .

ولكنَّ إميلي لم تدَعْهُ يواصلُ حديثَه بلْ قاطعتْه وأكدتْ عبارتَها السابقة قائلةً : إذهبْ واسألْ العقيد سارتوريس . ليسَ عليَّ منْ ضرائبٍ في جيفرسون . [وهذا الشخص الذي تذكُرُهُ إميلي قدْ

توفيَ قبلَ حواليْ عشرِ سنواتٍ] ثم نادتْ بصوتٍ عالٍ : توب . **فظهر** الخادمُ الزنجيُّ على الفورِ . فقالتْ له : إذهبْ مع هؤلاءِ السادةِ وشيِّعْهمْ إلى خارجِ المنزلِ .

الجزءُ الثاني

وهكذا صنعَتْ إميلي بهذا الوفدِ كما فعلتْ بأشياعِهم من الآباءِ الذين جاءوا لزيارتِها للتحدث معها بشأنِ شكوىً ضدَّها من الروائحِ العفنةِ التي تخرجُ من بيتِها . وقد حدثَ هذا قبلَ ثلاثينَ سنةً ، وذلك بعد سنتينِ من وفاةِ والدِها ، وبعد فترةٍ قصيرةٍ من هجرانِ حبيبِها لها ، وكنَّا ، أهلَ المدينةِ ، نعتقدُ أنَّه سيتزوجُها . لقد كانَ ظهورُ إميلي نادراً بعد وفاةِ أبيها ، ولكنَّه أصبحَ شبهَ معدوم بعدَ أنْ هجرَها حبيبُها ، فلمْ يقلْ أحدٌ منْ أهلِ المدينةِ إنَّه رآها . لقدْ تجرأَتْ بعضُ النسوةِ وذهبْنَ إلى بيتِها لزيارتِها ، ولكنَّها ردَّتْهُن على أعقابِهن . والحقيقةُ أنَّه لم يبقَ أثرٌ من آثارِ الحياةِ أو علامةٌ من علاماتِها في دارِ إميلي إلا ذاكَ الخادمُ الزنجيُّ ، والذي كانَ شاباً في حينِه ، وكانَ يُرى وهو يحملُ سلَّتَه ذاهباً بها إلى السوقِ خماصاً ثم يعودُ بها إلى الدارِ وهي بطاناً .

وقالتْ نسوةٌ في المدينة : إنَّ على الخادمِ الذي عندَ إميلي ، وكأيِّ رجلٍ يعملُ كخادم ، أن يقومَ بواجباتِه فينظفَ المطبخَ ويعتنيَ به حتى لا تخرجَ منه الروائحُ الكريهةُ المؤذيةُ لمنْ حولَه مِنَ السكانِ . ولكن ، ومعَ مرورِ الوقتِ ، لم يكنْ ازديادُ تلكَ الروائحِ

العفنةِ وإيذاؤُها أمراً مثيراً للدهشةِ . ومنَ المفارقاتِ أنْ تكونَ هذه الروائحُ الكريهةُ هي إحدى حلقاتِ الاتصالِ ما بين هذهِ الطبقةِ العليّةِ من عائلةِ جريرسون العريقةِ وما بينَ الدهماءِ من الناسِ .

لم تستطعْ إحدى الجاراتِ ، بالرغمِ منْ كبرِ سنِّها وبلوغِها الثمانينَ عاماً ، الصبرَ على هذهِ الروائحِ المؤذيةِ ، والتي لا تطاقُ ، والمنبعثةِ من دارِ إميلي ، فذهبتْ إلى رئيسِ البلديةِ جاج ستيفنز وشَكَتْ لهُ ما يلحقُ بها من أذىً .

فردَّ عليها استفنز قائلاً : ولكنْ ، ماذا عساني أنْ أفعلَ أيتُها السيدةُ؟

أجابتْه المرأةُ : ماذا تفعلُ؟ أرسلْ لها خطاباً بوقفِ هذهِ الروائحِ . أليسَ هناكَ قانونٌ؟

فأجابَها ستيفنز : أعتقدُ أنَّ هذا ليسَ ضروريا ، فلربَّما أنَّ الخادمَ الزنجيَّ قدْ قتلَ أفعىً أو فأراً في حديقةِ منزلها فتعفنتْ ، وأنَّ هذهِ الروائحَ الكريهةَ انبعثتْ لهذا السببِ ، ومعَ هذا سنتحدَّثُ بالأمرِ مع صاحبِ الشأنِ .

وفي اليومِ التالي لهذهِ الشكوى ، استلمَ ستيفنز شكويين أخريين ، إحداهَما من رجلٍ جاءَ يشكو على استحياءٍ قائلاً : لا بدَّ منْ عملِ شيءٍ ما يا جاج . إنني آخرُ من يفكرُ في إزعاجِ الآنسةِ إميلي أو تعكيرِ صفوِ حياتِها ، ولكنْ لا بدَّ منْ إجراءٍ ما . في تلكَ الليلةِ عَقدَ المجلسُ البلديُّ جلسةً ، وهو مكونٌ من ثلاثةِ أعضاءٍ كبارٍ في السنِّ ، وعضوٍ رابعٍ من الشبابِ والذي يمثلُ الجيلَ الصاعدَ .

قالَ أحدُهم : إنَّ المسألةَ بسيطةٌ ، ولا تتعدَّى إرسالَ إشعارٍ إلى إميلي نخبرُها بأنَ عليها تنظيفَ دارِها ، وإعطاءها مهلةً للقيامِ بذلك ، وإذا لمْ تقم بهذا الأمرِ . . .

فقاطَعَه استفنز صارخاً : تباً لك! كيفَ تستطيعُ أن توجِّهَ كلماتِكَ الجارحةَ إلى سيدةٍ وجْهاً لوجهٍ متَّهماً إياها بعدمِ النظافةِ وخروجِ الروائحِ الكريهةِ من بيتِها؟

في الليلةِ التي تلتْ هذا الاجتماعَ ، وبعد منتصفِ الليلِ ، دخلَ أربعةٌ من الرجالِ إلى مرجةِ الآنسةِ إميلي الصغيرةِ ذاتِ البساطِ الأخضرِ من الأعشابِ المقصوصةِ والمُعتَنى بها والموجودةِ حولَ بيتِها ، ثم اجتازوها إلى حيثُ منزلِ إميلي ، وهم يتسللونَ خلسةً كاللصوصِ إلى هناك ، ثم بدأوا يُفتشونَ حولَ البيتِ ، وهم يتشمَّمونَ حولَ مبنى الدارِ ، وأسفلَ واجهاتِها المبنيةِ بالآجرِ ، ويتشممونَ الفتحاتِ الموجودةَ والظاهرةَ من أقبيةِ الدارِ ، وكانَ أحدُهم يحملُ كيساً متدلياً من كتفِهِ ويقومُ بأخذِ مادةٍ منْ داخلِهِ ، وبشكلٍ منتظم ويرشُّها حولَ الدارِ بطريقةٍ تشبهُ ما يقومُ به الفلاحُ وهو يبذرُ الحبوبَ في الأرضِ لزراعتِها . ثم قاموا بكسرِ بابِ القبوِ ورشوا مادةَ الجيرِ داخلَه ، ورشوا كذلكَ المبانيَ الملحقةَ بالدارِ ، وبعدَ أنْ أنهُوا مهمتَهمْ وعادوا أدراجَهمْ ليجتازُوا المرجةَ الصغيرةَ مرةً أخرى ، أُضيئتْ إحدى الغرفِ المطلَّةُ على المرجةِ ، وصارتْ النافذةُ المظلمةُ تُري ما خلْفَها ، فبدتْ الآنسةُ إميلي جالسةً ، ومصدرُ الضوءِ منْ خلفِها ، وكانَ جذعُ جسمِها منتصباً دونَ حراكٍ وكأنَّها

صنمٌ أو تمثالٌ . وهنا بدأوا بالزحفِ وبهدوءٍ وهمْ يجتازونَ المرجةَ ، حتى وصلوا إلى ظلالِ أشجارِ الخرنوبِ التي سترتْهُم ، والتي كانتْ تصطفُّ على جانبيٍّ الطريقِ . وقدْ أثمرتْ جهودُ هؤلاءِ الرجالِ ، فبعدَ أسبوعٍ أو اثنين اختفتْ الروائحُ الكريهةُ التي كانتْ منبعثةً منْ دارِ الآنسةِ إميلي .

وقعَ ما نتحدثُ به ، والناسُ عامةً يتعاطفونَ مع الآنسةِ إميلي ، وهم آسفونَ على أحوالِها . والناسُ في البلدةِ يتذكرونَ كيفَ أنَّ عمَّةَ أبيها والمدعوةَ السيدةَ وايت ، قد رُدَّتْ إلى أرذلِ العمرِ . ويعتقدُ الناسُ أنَّ عائلةَ جريرسون يترفعونَ عن العوَّامِّ من الناسِ ، ويعتبرونَ أنفسَهُم أعلى مكانة من الآخرين ، ولكنَّ هذا الاعتقادَ هو أكبرُ مما يستحقونَ وأكثرَ مما يصدّقهُ الواقعُ . ولكنَّ هذا الترفُّع قادَ هذهِ العائلةَ إلى الاعتقادِ بأنَّه لا يوجدُ من بينِ شبابِ المدينةِ مَنْ هوَ أهلٌ للآنسةِ إميلي لكي يطلبَ يدَها ويتزوَّجَها . لقدْ اعتادَ الناسُ على تخيُّلِ هذهِ العائلة على شكلِ لوحةٍ مرسومةٍ . ففي خلفيةِ اللوحةِ تظهرُ إميلي النحيلةُ بملابسَ بيضاءَ ، وفي واجهةِ اللوحةِ يظهرُ والدُ إميلي في صورةٍ ظلِّيةٍ ، وهو يجلسُ مفرجاً ما بينَ رجليْهِ على كرسيٍّ ، وظهرَ الكرسيُّ أمامَه وهو يقبضُ على سوطِهِ ، وكلاهُما يبدو داخلَ إطارِ البابِ الأماميِّ والذي يرتدُّ مُندفعاً بعدَ فتْحِهِ . لم نكنْ مسرورينَ عندما وصلتْ الآنسةُ إميلي إلى الثلاثينَ من عمرِها وهي لا تزالُ عزباءَ ، ولكنَّ عدمَ السرورِ هذا لمْ يكنْ بمعناهُ الحرفيِّ ، ولهذا ما يبرِّرُه . فبالرغمِ من الحماقاتِ في هذهِ

العائلةِ ، والتي تصلُ إلى حدٍّ يشبهُ تصرفاتِ من بهِ مسٌّ من جنون ، فإن إميلي ما كانتْ لترفضَ كلَّ تلكَ الفُرَصِ من المتقدمينَ لطلبِ يدِها لو كانتْ هناكَ نيَّةٌ حقيقيةٌ في تحقيقِها .

عندما توفي والدُ الآنسةِ إميلي لمْ يكنْ لها من تركةٍ سوى هذه الدارِ ، وبالمناسبةِ ، فإنَّ الناسَ كانوا سعداءَ ، وذلكَ لأنَّهم في نهايةِ الأمرِ استطاعوا النظرَ إلى إميلي نظرةَ اشفاقٍ ورحمة ؛ لأنَّها أصبحتْ وحيدةً وفقيرةً وهذا ما يجعلُها أكثرَ انسانيةً . الآنَ تستطيعُ الآنسةُ إميلي أنْ تتذوقَ طعمَ أهميةِ الأموالِ ويصبحَ القرشُ لديها ذا قيمة بعدَ أنْ كانتْ لا تحسبُ للمالِ حساباً .

في اليومِ التالي لوفاةِ والدِ إميلي ، استعدتْ النساءُ للذهابِ الى بيتِها لتقديمِ واجبِ العزاءِ ولعرضِ مساعدتِهنَّ على الآنسةِ إميلي ، كما جرتْ عليه التقاليدُ الاجتماعيةُ . ولكنَّ الآنسةَ إميلي قابلتْهُن عندَ البابِ وهي تلبسُ ملابسَها العاديةَ ، ولمْ تفسحْ لهنَّ بالدخولِ ، ولم يبدُ على محيَّاها أيةُ علامةٍ من علاماتِ الحزنِ ، وقالتْ لهنَّ بوضوح لا يقبلُ التأويلَ بأنَّ والدَها لم يمتْ . وظلتْ على هذا الموقفِ لثلاثةِ أيام متتاليات ، وقد زارَها عددٌ من الكهنةِ والأطباءِ لإقناعها بالسماحِ لهمْ بأخذِ الجثةِ ودفنِها ، ولمَّا لم تفلحْ جهودُهم ، وعلمتْ الآنسةَ إميلي بأنَّهم سيلجأونَ للقانون لأخذِ الجثةِ عُنوةً ، أُسقطَ في يدِها وانهارتْ ، وقاموا بدفنِ الجثةِ على عجلٍ .

لَم نقلْ في ذلكَ الوقتِ بأنَّ الآنسةَ إميلي قدْ أصابَها مسٌّ منَ

الجنونِ بسببِ موقفِها من موتِ أبيها وحجزِ جثتِه ، بلْ جزمْنا بأنَّ ما قامتْ به هو أمرٌ متوقعٌ وطبيعيٌ . لقد تذكرنا أولئكَ الشبابِ الذين ردَّهم والدُ إميلي على أعقابِهم عندما طلبوا يدَ ابنتِه ، وعلمْنا أنَّه لمْ يتركْ لها شيئاً ، ولكنَّ إميلي تشبثتْ بمنْ حرمَها كما يفعلُ كثيرٌ من الناسِ .

الجزءُ الثالثُ

لقدْ مرضتْ إميلي لفترةٍ طويلة ، وعندما رأيناها مرةً أخرى ، شاهدناها وقد قصتْ شعرَ رأسِها قصيراً ، فبدتْ كفتاة شابةٍ بحيثُ أصبحتْ تُشبهُ بشكلٍ غامضٍ ومُبهمٍ صورَ الملائكةِ التي تكونُ مرسومةً على الشبابيكِ الملونةِ للكنائسِ ، وهو منظرٌ يبعثُ على الأسى والسكينةِ في آنٍ واحدٍ .

أعلنتْ بلديةُ المدينةِ عن عطاءاتٍ لتمهيدِ أرصفةِ الشوارعِ ، وذلكَ في فصلِ الصيفِ الذي تلا وفاةَ والدِ الآنسةِ إميلي ، وبدأَ العملُ في تنفيذِ المشروعِ . قامتْ شركةُ الإنشاءاتِ المكلَّفةِ بتنفيذِ المشروعِ بجلْبِ العمَّالِ والبغالِ والمعداتِ اللازمةِ ، وجاءَ هومر بارون وهو كبيرُ العمالِ ، أي رئيسُهم والرقيبُ عليهم ، وهو منحدرٌ منَ الشمالِ الأمريكيِّ ، وكانَ هذا الرجلُ ضخمَ الجثةِ ، وأسودَ البشرةِ ، ومتوثباً على الدوامِ ، وصاحبَ صوتٍ جهوريٍّ ، وعيناهُ أقلُّ سمرةً منْ وجهِهِ . كانَ الأولادُ الصغارُ يفدونَ إلى الورشةِ زرافاتٍ وهم يتتبعونَ خطواتِ هومر أينما ذهب ؛ لكي يستمعوا له وهو

يوسعُ العمّالَ لعناً ، والعمالُ من جهتهِم يغنُّونَ بنغماتٍ تصعدُ وتهبطُ متوافقةً مع وقع أصواتِ الضربِ بالمعاولِ . لمْ يمرْ وقتٌ طويلٌ حتى عَرَفَ هومر كلَّ شَخص في البلدةِ .

وحينما تسمعُ ضحكاً كثيراً في أي مكانٍ من الميدانِ أو حولَه ، فاعلمْ أنَّ هومر بارون هو في وسطِ تلكَ المجموعةِ الضاحكةِ . وفي هذه الفترةِ بدأَ أهلُ المدينةِ يشاهدونَ هومر مع الآنسةِ إميلي في مساءِ أيامِ الأحدِ ، عطلةِ نهايةِ الأسبوعِ ، وهما يركبانِ عربةً ذاتَ عجلتينِ صفراوين ويجرُّها رأسانِ من الخيولِ الكستنائيةِ اللونِ ، وهي منطلقةٌ من إسطبلٍ يؤجِّرُ الخيولَ والعرباتِ .

في باديءِ الأمرِ ، شعرنا بالسعادةِ لأنَّ الآنسةَ إميلي عثرتْ على أمرٍ حازَ اهتمامَها ، والسببُ أنَّ النسوةَ في المدينةِ قلنَ : طبعاً ، فإنَّ مَنْ هي مِنْ عائلة جريرسون لنْ تفكرَ جدياً برجلٍ عاملٍ وآتٍ منَ الشمالِ الأمريكيِّ . ولكنْ هناكَ ، خاصةً الكبارُ في السنِ ، اعتقدوا جازمين بأنَّ الحزنَ وقسوةَ الظروفِ مهما كانتْ شديدةً ، فإنَّها لنْ تُفلحَ في دفع امرأةٍ مِن عائلةٍ عريقةٍ مِن نسيانِ حقيقةِ جريانِ دماءِ النبلاءِ في عروقِها وما يترتبُ عليه من التزاماتٍ وواجباتٍ ، وحتى من دونِ أنْ يُسمي الناسَ هذه الالتزاماتِ والواجباتِ بأسمائِها . وقال أهلُ المدينةِ : مسكينة إميلي ، فعلى أقربائها أن يأتوا لزيارتها ، فلديها بعض الأقاربِ في ولايةِ ألاباما ، ولكنْ ، ومنذُ عدةِ سنواتٍ نشبَ نزاعٌ بينهمْ وبينَ والدِ إميلي على ممتكاتٍ قَرِيْبَةٍ لهمْ اسمُها وايت ، والتي بلغتْ من الكبرِ عتياً

وفقدتْ قواها العقليةَ ، وانقطعتْ الصلاتُ ما بينَ العائلتين منذ ذلكَ الوقتِ ، حتى إنَّ هؤلاءِ الأقاربَ في ألاباما لمْ يُرسلوا بممثلٍ أو مندوبٍ لهم إلى مراسمِ جنازةِ والدِ إميلي .

وما إنْ عبَّر الكبارُ في السنِّ عن تعاطفِهم مع الآنسةِ إميلي ولسانُ حالِهم يقولُ : مسكينةٌ هي ، حتى سُمعتِ الهمساتُ من بعضِهم ، وابتدأوا بسؤال بعضهم بعضاً : أحقاً كما يقالُ عنها؟ وأجابَ بعضُهم بالإيجابِ قائلين : حقاً إنَّ ما يقالُ عنها هو الحقيقةُ ، فإنْ كانَ ما تفعلُه إميلي لا يُثبتُ ما يقالُ عنها ، فأيُّ شيءٍ يُثبتُ؟ كانوا يتداولونَ هذه الأقاويلَ بأصواتٍ خافتةٍ لا تكادُ تُسمعُ ، ويجري هذا الهمسُ كلما مرَّ بسرعةٍ الحصانان الضامران الضابحان المقرونان بالعربةِ التي تركبُها إميلي في الطريقِ أيامَ الأحدِ ، ومِنْ أمامِ النوافذِ التي أُسدلتْ عليها الحُصُرُ ، ومن خلفِ هذهِ الحُصُرِ صدرتْ أصواتُ ستائرِ الحريرِ التي تدلتْ خلفَها لحجْبِ أشعةِ شمسِ الأصيلِ ، والتي أزاحَها الناسُ ليشاهدوا إميلي ، ويُسمعُ الناسُ هنا وهناكَ يهمسونَ قائلين : مسكينةٌ إميلي .

كانتْ شامخةَ الرأسِ حتى عندما كنا نعتقدُ بأنها على وشكِ السقوطِ ، والذي قد يؤدي إلى أنْ تُطأطئَ رأسَها . وكانتْ تبدو في هذه الظروفِ وكأنَّها تطالبُ أهلَ المدينةِ ، أكثر من أي وقتٍ مضى ، بالاعترافِ بعلوِّ مقامِها وضرورةِ احترامِها باعتبارِها آخرَ مَن بَقِي من عائلةِ جريرسون . إنَّها كانتْ بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى هذا الاعترافِ ، وتلكَ اللمسةِ النابعةِ من وجدانِ الناسِ لإعادةِ تأكيدِ صلابتِها وعلوِّ

كعبِها . إنَّ هذِه المعاني التي تدغدغُ نفسَ الآنسةِ إميلي هي التي دمغَتْ تصرفاتِها عندما ابتاعتْ سُمَّ الفئرانِ ، الزرنيخ . وهذا الحدثُ وقع بعدَ أكثر من سنةٍ من تعاطفِ الناسِ معها ، ووصفِهم لها عندَ التحدُّثِ عنها : مسكينةٌ إميلي . حدثَ هذا في أثناءِ وجودِ اثنتين من بناتِ عمِّها في ضيافتِها .

قالتْ الآنسةُ إميلي للصيدلانيِّ : أريدُ بعضَ السُمِّ . وكانتْ قدْ تجاوزتِ الثلاثينَ من عمرِها ، وكانتْ ما تزالُ نحيلةً ، ولكنَّ نحافتَها كانتْ أكثرَ مما ينبغي ، أو مما اعتادَ الناسُ على رؤيتِه ، وعيناها السوداوانِ ترسلانِ نظراتٍ غيرَ حميمةٍ وخاليةً مِنْ أيِّ وُدٍّ ، وتنمُّ في الوقتِ نفسه عن التكبُّرِ والعجرفةِ . هاتان العينان كانتا في وجْه مشدودٍ فوقَ الصدغين وحولَ محجريِّ العينين . إنَّ طبيعتَه تشبهُ ما عليه وجهُ القيِّم على منارةٍ ، وما يصاحبُ وجهَهُ من تكسُّرات بسببِ الضوءِ الباهرِ . أكَّدتْ إميلي قولَها ، قائلةً للصيدلانيِّ : أريدُ سُمّاً .

أجابَها الصيدلانيُّ : نعم ، آنسة إميلي . أيُّ نوعٍ تريدين؟ أللفئرانِ وما شابهَ؟ أنا أنص . . .

وقبلَ أنْ يُكملَ ما ينصحُ به من دواءٍ قاطعتْهُ إميلي قائلةً : أريدُ أفضلَ ما لديك ، ولا يهمُّني النوعُ .

فقامَ الصيدلانيُّ بذكرِ أسماءِ بعضِ الأنواعِ من السمومِ ، وقالَ : هذهِ السمومُ تقتلُ كلَّ شيءٍ وحتى الفيلَ ، ولكنَّ ما تحتاجينَهُ هو . . .

قاطعتْهُ إميلي قائلةً : الزرنيخُ . هل هذا نوعٌ جيدٌ؟

فأجابَها : هل . . . الزرنيخ؟ نعم ، سيدتي . ولكنَّ ما تريدينَه . . .

فقاطعتْه قائلةً : أريدُ زرنيخاً .

نظرَ إليها الصيدلانيُّ بامتعاض ، وردّتْ عليه بنظراتِها ، وهي منتصبةُ القامةِ ، ووجهُها مشدودٌ كالعَلَمِ الذي يرفرفُ على ساريةٍ ، ثم أوضحَ الأمرَ قائلاً : طبعاً ، إذا كنتِ ما ترغبين في شرائِه هو الزرنيخُ ، فإنَّ القانونَ يطالبكِ بالتصريحِ عن دواعي استعمالِه وفي أيِّ مجالٍ سيُستخدمُ .

حدَّقتْ الآنسةُ إميلي به ، وأمالتْ رأسَها للوراءِ قليلاً من أجلِ أنْ تضعَ عينيْها في عينيْهِ ، واستمرتْ في ذلكَ حتى صرفَ نظرَه عنها بعيداً ، وتحركَ وذهبَ وجلبَ الزرنيخَ ولفَّهُ ، ولم يرجع الصيدلانيُّ لرؤيتِها أو إعطائِها الزرنيخَ ، بلْ دفعَهُ إلى الولدِ الزنجيِّ الذي يعملُ عندَه ليُسلِّمَها الزرنيخَ الملفوفَ . وعندما عادتْ إميلي إلى البيتِ فتحتْ الصندوقَ الذي غُلِّفَ به الزرنيخُ ، فوجدتْ مكتوباً على الصندوقِ تحتَ شعارِ التحذيرِ من خطرِ الموتِ (الجمجمة والعظمتان) : للفئرانِ .

الجزءُ الرابعُ

قُلنا في اليوم التالي : إنها ستقتلُ نفسها . وقلنا : إنَّ هذا هو أفضلُ شيءٍ يمكنُ أنْ تفعلَه .

وعندما بدأنا نشاهِدُها بصحبةِ هومر بارون قلنا : إنَّها ستتزوَّجُه .

ثمَّ عَدَلْنا عن هذا القولِ وقلنا : ستقنِعُه أولاً بهذا الأمرِ ، أي الزواج ، لأن هومر ، وكما أشارَ هو لنفسِه ، بأنَّه رجلٌ لا يتزوجُ ، فهو شاذٌ جنسياً ، وعُلِمَ أنَّه يذهبُ لمعاقرةِ الخمرِ مع الشبابِ في النادي المسمَّى نادي الظباءِ من أجلِ ممارسة رغباته الجنسيةِ الشاذةِ ، وهذهِ التصرفاتُ تُؤكِّدُ أنَّه رجلٌ لا يتزوَّجُ النساءَ . ثم بدأنا نقولُ فيما بعدُ : مسكينةٌ إميلي . وفي مساءِ يوم مِن أيامِ الآحادِ ، مرَّتْ العربةُ التي تُقلُّ كلاً من إميلي وهومر ، وكانت إميلي تظهرُ جالسةً في العربةِ الزاهيةِ من خلفِ الستائرِ المصنوعةِ من الحصيرِ ، وكانَ رأسُها مرفوعاً ، وهومر إلى جانبِها وهو يضعُ قبعتَهُ بشكلٍ مائلٍ ولفيفةُ السيجارِ بين أسنانِه ، وكانَ يلبسُ قفازاتٍ صفراءَ ويمسكُ بأعنَّةِ الحصانِ وسوطٍ .

إنّ هذه التصرفاتِ التي أقدمتْ عليها إميلي دفعتْ بعضَ النسوةِ في المدينةِ للقولِ بأنَّ ما تقومُ به إميلي يُلحقُ الخزيَ والعارَ بالبلدةِ ، وهذا عملٌ شائنٌ يُشكِّلُ مثالاً ونموذجاً سيئاً للشبابِ والشاباتِ في البلدةِ . لم يرغبِ الرجالُ في التدخُّلِ في الأمرِ ، ولكنَّ النساءَ تمكَّنَّ في النهايةِ ، وبعدَ الضغطِ على كاهنِ الكنيسةِ الأُسقفيةِ ، مِنْ أنْ يقومَ هذا الرئيسُ للكنيسةِ من استدعاءِ إميلي ومقابلتِها لأنَّها إحدى رعايا هذهِ الكنيسةِ . ولمْ يُفشِ الكاهنُ بأيِّ سرٍّ مما حدَّثتْ به الآنسة إميلي أو ما دارَ بينهما من حديثٍ خلالَ

تلكَ المقابلةِ . ومن ناحيةٍ أخرى فإنَّ هذا الكاهنَ لمْ يعدْ مرةً أخرى لما فعلَهُ سابقاً من استدعاءٍ للآنسةِ إميلي ومقابلتِها . وفي يومِ الأحدِ الذي تلا تلكَ المقابلةِ ، شوهدتْ الآنسة إميلي وهومر يتجولانِ في العربةِ في شوارعِ البلدةِ ، وفي اليوم التالي ، أي يوم الاثنين ، كتبتْ زوجةُ الراعي ، كاهنِ الكنيسةِ ، إلى أقرباءِ الآنسةِ إميلي القاطنون في ألاباما عن تصرفاتِ إميلي .

وفدَ قسمٌ من أقرباءِ إميلي إلى البلدةِ ، وشُوهدوا في بيتِها وتحتَ سقفٍ واحدٍ معها ، مما دفعَنا إلى التراجع لنراقبَ ولنشاهدَ التطوراتِ . في البدايةِ لمْ يحدثْ شيءٌ ، ثم تيقَّنا من أنَّهما ، أي إميلي وهومر ، سيتزوجان ، وعلمنا بأنَّ الآنسةَ إميلي قد ذهبتْ إلى محلٍّ أحدِ الصاغةِ وأوصتهُ على مجموعةٍ من أدواتِ الزينةِ للرجالِ ، على أنْ يكونَ مكتوباً على كلِّ قطعةٍ الحرفان الأوَّلان من اسم هومر بارون (هـ . ب) . وبعد ذلك بيومين ، علمنا أنَّها ابتاعتْ طقماً كاملاً من الملابسِ الرجاليةِ ومن ضمنِها قميصُ نوم ، ولهذا قلنا : لقد تزوجا . وكنَّا سعداءَ حقاً عندما رأينا أنَّ اثنتينِ ممن زارَ إميلي هما من بناتِ عمِّها ، وكانتْ تصرفاتُهما تشي بأنهما أكثرُ اعتزازاً وتشبثاً من الآنسةِ إميلي بجذورِهما النبيلةِ كعضوين من عائلةِ جريرسون العريقةِ .

إن الطرقَ التي أشرفَ عليها هومر بارون قدْ عُبِّدتْ وأُنجزَ العملُ منذُ فترةٍ ، لذلك لمْ نفاجأْ برحيلهِ عن بلدتِنا . ولكنَّنا أصبنا بشيءٍ من خيبةِ الأمل لأنَّه لمْ يكنْ هناك احتفالٌ عامٌ على مستوى البلدةِ

بمناسبةِ انتهاءِ مشروعِ تمهيدِ الطرقِ . لقد اعتقدْنا أنَّ هومر قد رحلَ لكي يتحضَّرَ ويتهيأَ لاستقبالِ الآنسة إميلي ، أو لربما فعلَ ذلك لاعطائها الفرصةَ كي تتخلصَ من ابنتي عمِها . في ذلك الوقتِ كنا نشكلُ شِلَلاً حليفةً لإميلي من أجلِ مساعدتِها على تضييقِ الخناقِ على ابنتي عمِّها من أجلِ دفعِهما للرحيلِ من بيتِها . وقد آتت هذه السياسة أُكُلُها . فبعد أسبوع ، وكما توقعنا ، تأكدَت مغادرتُهما لمنزلِ إميلي . ولم تخبْ توقعاتُنا ، فلم تمضِ ثلاثةُ أيامٍ حتى عادَ هومر بارون إلى بلدتِنا ، وقد شاهدَ أحدُ الجيرانِ خادمَ إميلي الزنجي وهو يستقبلُ هومر من بابِ المطبخِ ويُدخلُه للمنزلِ في مساءِ أحدِ الأيامِ وقتَ الغسقِ .

وكانَ هذا آخرُ عهدٍ لنا بهومر بارون ، فلمْ يرهُ أحدٌ بعد ذلك . واحتجبتْ الآنسةُ إميلي فلم تُرَ لفترةٍ من الوقتِ . ولكنَّ الخادمَ الزنجيَّ كان يُشاهَدُ وهو يحملُ سلةَ التسوُّقِ ، وهو يخرجُ من الدارِ ويدخلُ إليها ، مع إبقاءِ البابِ الرئيسيِّ للبيتِ مغلقاً . ومن حينٍ لآخرَ ، كنَّا نشاهدُ الآنسةَ إميلي للحظاتٍ وهي تطلُّ من النافذةِ ، كما حدثَ عندما شاهدَها رجالُ البلديةِ عندما رشوا محلولَ الجيرِ حولَ بيتِها ، مع العلمِ أنَّها لم تظهرْ في شوارعِ البلدةِ لحوالي ستةِ أشهرٍ متتاليةٍ ، ولم يكنْ هذا بالأمرِ الغريبِ بلْ كانَ متوقعاً . فإنَّ تلك الصفةَ كانتْ موجودةً في والدِها ، وكانتْ تقفُ حائلاً مراتٍ ومراتٍ كَسَدٍّ منيعٍ بين إميلي كامرأةٍ وبين حقِّها في الارتباطِ بالرجالِ وإشباعِ حاجاتِها كأنثى ، قد تركتْ في نفسِها جُرحاً

عميقاً ما زالَ مؤلماً وقاسياً ومُزلزِلاً وعصيّاً على الالتئامِ والشفاءِ من سمومِه .

عندما رأينا الآنسةَ إميلي مرةً أخرى ، وبعد فترةٍ طويلةٍ من احتجابِها عن الأنظارِ ، وجدناها قد تغيرتْ ، فقدْ ازدادت سمنة وانتشر الشيب في شعر رأسها . وبعد مرور بضع سنين ازدادَ الشيبُ شيئاً فشيئاً حتى أصبحَ شعرُها أرقطاً ، فشيبُها شديدُ البياضِ معَ بُقع من السوادِ هنا وهناك . وقد بقيَ شعرُها الأشيبُ الناصعُ محتفظاً بحيويتِه كشعرِ الشبابِ حتى وفاتِها وهي في الرابعةِ والسبعين من عمرِها .

ومنذُ ذلك الوقتِ بقي بابُ بيتِ إميلي الرئيسيُّ مغلقاً باستثناءِ فترةٍ امتدتْ لستِ أو سبع سنوات عندما كانَ عمرُها حوالي الأربعين عاماً ، وذلك عندما كانت تُعطي دروساً في الرسمِ على الخزفِ الصينيِّ في إحدى غرفِ الدَّوْرِ السفليِّ من بيتِها ، والتي أعدَّتْها خصيصاً كمفنً [استديو] لها ، حيثُ أُرسلتْ بناتُ وحفيداتُ العوائلِ اللواتي عاصرنَ فترةَ رئاسةَ الكولونيل سارتوريس لمجلسِ البلدةِ للتعلمِ عندها بانتظام . وكانَ هذا الأمرُ يتمُّ بالروحِ نفسِها من الانتظامِ والانضباطِ كذهابِهنَّ إلى الكنيسةِ في أيامِ الآحادِ . وكانتْ كلُّ متعلمةٍ تحملُ معها خمسةً وعشرينَ سنتاً كأجرةٍ للآنسةِ إميلي تضعُها في صحنٍ للتبرعاتِ ، وفي تلكَ الفترةِ أُعفيتْ إميلي من التزاماتِها الضريبيةِ اتجاهَ البلديةِ .

لقد نمى وترعرعَ جيلٌ جديدٌ بثَّ روحاً جديدةً في البلدةِ

وأصبحَ هو عمودُها الفقري في الإدارةِ ومختلفِ الأعمالِ. وكبرَ أولئكَ التلاميذُ الذين كانوا يقصدونَ الآنسةَ إميلي لتعلُّمِ الرسمِ، فانفضُّوا عنها شيئاً فشيئاً، وهم بدورِهم لم يرسلوا أولادهم إليها لتعلُّمِ الرسمِ على يديْها محمَّلين، كما كانوا هم، بعُلبِ الألوانِ وفراشي التلوينِ وما كانتْ تسبِّبُه لهم من ضجرٍ وملل، وما يأخذونَهُ معهمْ مما هبَّ ودبَّ من الصورِ المقصوصةِ من المجلاتِ المتنوعةِ. ولقد أُغلقَ البابُ الرئيسيُّ لمنزلِ إميلي وراءَ آخرِ تلميذٍ غادرَهُ، وبقيَ مُقفَلاً وبِلا رجعة. وعندما حصلتْ البلدةُ على خدمةِ التوزيع المجانيِّ للبريدِ، فإنَّ الآنسةَ إميلي هي الوحيدةُ من بينِ كلِّ سكانِ البلدةِ التي رفضتْ أن يُثَبَّتَ على بابِ منزلِها رقمٌ بريديٌّ مصنوعٌ من الحروفِ المعدنية، لتعليقِ صندوقٍ للبريد عليه. لقد رفضتْ إميلي الفكرةَ بتاتاً وأَبَتْ أن تسمعَ ممنْ جاءَ إليها لأيِّ شرحٍ أو تعليل.

مرتِ الأيامُ والأشهرُ والسنواتُ ونحنُ نشاهدُ الزنجيَّ وقد ازدادَ الشيبُ في رأسِه اشتعالاً، وازدادَ ظهرُه انحناءً، وهو يخرجُ ويدخلُ من وإلى بيتِ الآنسةِ إميلي حاملاً سلةَ التسوُّقِ. كنا نرسلُ لإميلي في شهرِ كانون الأول من كلِّ عام إشعاراً ضريبياً، والذي كانَ يُعاد إلينا بعد أسبوع من تاريخ إرسالِه بواسطةِ مكتبِ البريدِ دونَ تحصيلٍ. ومن حينٍ لآخرَ كنا نشاهدُ إميلي من خلالِ بعضِ النوافذِ في الدورِ السفليِّ دونَ العلويِّ، وهذا أحدُ الدلائلِ على أنَّ الطابقَ العلويَّ من البيتِ قد أَغلقتْه إميلي تماماً. وكانتْ تبدو من

النافذةِ كجذعِ تمثالٍ موضوع في كُوَّة ، وكنَّا لا نستطيعُ البتَّ في أمرِ هلْ تنظرُ إلينا أم لا . وهكذاً تناقلتِ الأجيالُ إميلي كآنسةٍ عزيزةٍ ومميَّزةٍ وهادئة ، ولا يمكنُ للمجتمعِ تجاهلَ وجودِها بالرغمِ من انغلاقِها وعنادِها .

وأخيراً حانتْ مَنِيَّةُ الآنسةِ إميلي وتوفيتْ . فقدْ أصابَها المرضُ في بيتِها المعتمِ والمليءِ بالغبارِ ، ولا أحدٌ بجانبِها غيرَ الرجلِ الزنجيِّ الذي يقومُ على خدمتِها والعنايةِ بها ، والذي رقَّ عظمُه ووهنَ جسمُه . ونحن لم نكنْ نعلمُ أنَّها كانتْ مريضةً ، ولقد كفَّ الناسُ في البلدةِ ، ومنذ زمنٍ بعيد ، عن محاولتِهم معرفةَ بعضِ المعلوماتِ من الزنجيِّ عن الآنسةِ إميلي ، والذي لمْ يكنْ يتحدثُ معَ أحد ، ولربما لمْ يكنْ يتحدثُ مع الآنسةِ إميلي نفسِها ، وقد صارَ صوتُه خشناً وأجشَّاً . ويبدو أنَّ هذا التحوُّل في صوتِه كانَ بسببِ عدمِ استعمالِه للأعضاءِ المسؤولةِ عن النطقِ لفترةٍ طويلة .

توفيتْ الآنسةُ إميلي في إحدى غرفِ الدورِ السفلي من بيتِها على سريرٍ ثقيلٍ مصنوعٍ من خشبِ الجوزِ وتتدلَّى عليهِ ستارةٌ مسدلةٌ ، وكان رأسُها الأشيبُ مسنداً ويرقدُ على وسادةٍ صفراءَ متعفنةٍ بفعلِ عاملِ الزمنِ ، وبسببِ النقصِ في ضوءِ الشمسِ التي تتعرضُ له وقلةِ التهويةِ .

استقبلَ الزنجيُّ أولَ مجموعةٍ من النساءِ الوافداتِ إلى المنزلِ عندَ البابِ الرئيسيِّ وأذنَ لهنَّ بالدخولِ ، وكانتْ النساءُ الداخلاتُ يتهامسنَ بصوتٍ خافتٍ لا يكادُ يُسمعُ وهنَّ يُجلنَ النظراتِ السريعةِ والفضوليةِ في أرجاءِ المنزلِ . أما الزنجيُّ فقدْ استدارَ بعد دخولِ النساءِ ومشى داخلَ المنزلِ من البابِ الرئيسيِّ حتى آخرِ المنزلِ وخرجَ من بابِه الخلفيِّ ، ثم اختفى ولم يشاهدْه أحدٌ بعدَ ذلك .

حضرتْ ابنتا عمٍّ الآنسةِ إميلي فوراً عندما سمعتا بنبأِ وفاتِها ، وأقامتا مراسمَ الجنازةِ والدفنِ في اليومِ التالي لوفاتِها . وقد حضرَ جنازتَها أهالي البلدةِ الذين توافدوا لإلقاءِ النظرةِ الأخيرةِ عليها ، وهي مسجَّاةٌ تحتَ كومةٍ من الورودِ والتي وضعتْ على نعشِها ، والتي ابتيعتْ خصيصاً لهذهِ المناسبةِ ، وعلا النعشُ صورةٌ رسمتْ بخطوطِ أقلامِ الرصاصِ الملوّنِ لوجهِ والدِ إميلي ، والذي يبدو من خلالِ قسماتِ وجهِهِ بأنهُ مستغرقٌ في التأملِ والتفكيرِ ، وتهامستِ النساءُ في الموكبِ الجنائزيِّ وهن مستشعراتٌ لرهبةِ الموقفِ ، وحضرَ الرجالُ الطاعنونَ في السنِ الجنازةَ ، وكانَ بعضُهُم يلبسُ البزَّاتِ الرسميةَ الأنيقةَ والتي اعتمدَها اتحادُ الولاياتِ الأمريكيةِ ، وكانوا موجودين على الشرفةِ وفي مرجةِ المنزلِ الخضراءِ ، وكانَ هؤلاءِ الكبارُ في السنِّ يتحدثونَ عن الآنسةِ إميلي وكأنَّها قد عاصرتْهم ، وكما لو أنَّها كانتْ أحدَ أفرادِ جيلِهم ،

واعتقدَ البعضُ واهماً بأنَّهم رقصوا معَها ، وأنَّ بعضهُم توهَّم معتقداً أنه لربما غازَلَها ، وهذا التشوشُ في حسابِ الأوقاتِ والأحداثِ وخلطِها وتداخلِها أمرٌ معهودٌ عند كبارِ السنِّ ، فالماضي بأحداثه بالنسبةِ لهم ليسَ طريقاً مليئاً بالضبابِ وعدمِ الوضوحِ ، أي كلَّما سِرْتَ فيه وتفحصْتَه فإنَّه يضيقُ ويضمحلُ ، بل على العكسِ من ذلكَ فإنَّه طريقٌ يؤدي إلى مروجٍ واسعةٍ مترامية الأطرافِ أُكلُها دائمٌ وظلُّها وافرٌ ، والتي لا يمسُّها زمجرةُ رعودِ الشتاءِ ولا عواصفُه العاتيةُ . فالآنسةُ إميلي لا يفصلُها عن جيلِ المسنين في البلدةِ سوى عنقُ زجاجةٍ والمتمثلُ بعقدٍ من الزمانِ .

ولقدْ علمْنا أنَّ هناكَ غرفةً في الدورِ العلويِّ من منزلِ إميلي والتي لم يدخلْها ولم يُشاهدْ ما بداخِلِها أحدٌ منذُ أربعين عاماً . لقد انتظروا ولم يفتحُوا بابَ الغرفةِ حتى ووريت الآنسة إميلي الثرى وبكلِّ احترامٍ وبما يليقُ .

أدى كسرُ بابِ الغرفةِ بقوةٍ وبعنفٍ إلى إثارةِ سحابةٍ من الغبارِ ملأتْ جنَباتِ الغرفة . إنَّ كلَّ شيءٍ في الغرفةِ يبدو كئيباً ، وتخرجُ منْ جنباتِها رائحةٌ نفَّاذةٌ وحادةٌ ، ولكنَّها في الوقتِ نفسه ليستْ بالقويةِ ، ويشبهُ حالُ هذه الغرفةِ حالَ ما تكونُ عليه بعضُ الأضرحة ، مع أنَّها كانتْ مزينةً ومزخرفةً ومؤثثةً كغرفةِ عروسٍ : فهناك الستائرُ ذاتُ اللونِ الورديِّ الفاتحِ ، والمصابيحُ الملونةُ ذاتُ الأنوارِ الورديةِ ، وطاولةُ الزينةِ ، وقطعٌ من البلورِ المرتبةِ بعنايةٍ وذوقٍ ، وأدواتُ زينةٍ رجاليةٍ في علبٍ من الفضةِ ، والتي تغيَّرَ لونُها وفقدتْ

كلٌّ بريق مما أخفى رموزَ بداياتِ اسمِ هومر بارون (هـ.ب.) المنقوشةَ عليها. وإلى جانبِ تلكَ الأشياءِ المذكورةِ سابقاً، وجدتْ ياقةٌ وربطةُ عنق وكأنَّهما قد خُلعتا منذ عهد قريب، وعندما رُفعتا من موضعيْهما، تركتا أثراً في الغبارِ المتراكمِ يشبهُ هلالاً باهتاً، ووُجِدَ تحتَ الكرسيِّ زوجٌ من الأحذيةِ نعلاهما من مادةٍ لا تخرجُ صوتاً عند المشي، وجواربُ مطروحةٌ أرضاً.

وكانَ الرجلُ نفسُه، هومر بارون، هو الذي يرقدُ على السريرِ.

وقفنا لبرهةٍ من الزمنِ ونحنُ نتأملُ وننظرُ إلى هذا العبوسِ العميقِ في هذا الوجهِ العظميِّ المجردِ من كلِّ لحم. إن من الواضحِ أنَّ بقايا جسدِ هومر بارون تدلُّ على أنه كان في حالةِ عناق. إن هذا الرقادَ الطويلَ قد خانَهُ وتخطى به عتباتُ الحُبِّ، وأزاحَ عنهُ كلَّ ما لَهُ علاقةٌ بهذا الحبِّ. فإنَّ الموتَ وإميلي خانا هومر بارون. إنَّ ما بقيَ من هومر هو بلىً تحت ما تبقى من قميصِ نومِه، والذي تحوَّلَ إلى جزءٍ لا يتجزأُ من السريرِ الذي يرقدُ عليه، وقد لاحظنا أنَّ الغبارَ قد غطى كلاً مما تبقَّى من هومر ومنَ الوسادةِ بجانبِه، ولكنَّ هذا الغبارَ الذي أخفى ما حدثَ ليسَ عصيًّا على التنظيفِ، بل إنَّ نفضَ هذا الغبارَ سهلٌ وميسورٌ لكشفِ ما حدثَ.

ثم لاحظْنا على الوسادةِ التي بجانبِ بِلى هومر فجوةً لأثرِ رأسِ شخصٍ استخدمَها، فقامَ أحدُنا بالتقاطِ شيءٍ من على تلك الوسادةِ ورفعَها، ثم انحنينا لتفحُّصِه، فانتشرتْ رائحةُ الغبارِ

لتطايُرِهِ بسببِ خفتِه وجفافِه . وعند استنشاقِه كانتْ الرائحةُ لاذعةً للأنوفِ ، وقد رأينا ، وتأكَّدَ لنا ، بأنَّها ضفيرةٌ طويلةٌ من الشعرِ الأشيبِ الرماديِّ .(٦)

(٦) أي أنَّها خصلةٌ من شعرِ الآنسةِ إميلي .

مكانٌ نظيفٌ ومضاءٌ جيداً

إيرنست هيمنجواي

كانَ الوقتُ متأخراً جداً ، وقدْ غادرَ كلُّ الزبائنِ المقهى ما عدا شيخ كبيرٍ جلسَ في ظلٍّ أوراقِ شجرةٍ . وسببُ هذا الظلّ هو سقوطٌ الضوءِ من مصباح كهربائيٍّ على تلكَ الشجرةِ . إن الشارعَ الذي أمامَ المقهى يكونُ مليئاً بالغبارِ خلالَ النهارِ ، أما أثناءَ الليلِ فإنَّ الندى يُسَكِّنُ ترابَ الشارعِ فلا يتصاعدُ الغبارُ ، ولهذا فإنَّ هذا الشيخَ الكبيرَ يحبُ أن يبقى جالساً في المقهى حتى وقتٍ متأخرٍ من الليلِ لأنَّه كانَ أصماً ، ففي هذا الوقتِ المتأخرِ كانَ يسودُ هذا المكانَ الهدوءُ ، وكانَ هذا الشيخُ الكبيرُ ، وبالرغمِ من صمَمِه ، يشعرُ بالفرقِ ما بينَ هدوءِ الليلِ وصخبِ النهارِ . وكانَ النادلان القائمانِ على خدمةِ الزبائنِ داخلَ المقهى يدركان أنَّ الشيخَ الكبيرَ في حالةِ سُكْرٍ خفيف . وبالرغم منْ أنهُ كانَ زبوناً جيداً ، إلا أنَّهما كانا يعلمانِ أنَّه لو سَكِرَ وأخذَ الشرابُ منه كلَّ مأخذٍ فإنه سوفَ يغادرُ المقهى دونَ أنْ يدفعَ ثمنَ ما طلبَه ، ولهذا فقدْ كانا يراقبانِه باستمرارٍ .

قال أحد النادليْن : لقد حاولَ الانتحارَ في الأسبوعِ الماضي .

فاستفسرَ النادلُ الآخرُ عن السببِ قائلاً : لماذا؟

فأجابَه النادلُ الأولُ : لأنه كانَ مصاباً باليأسِ .

فاستفسرَ النادلُ الثاني : مَ كانَ يائساً؟

فأجابَه النادلُ الأولُ : مِنْ لا شيءٍ .

فرد النادلُ الثاني مستغرباً : وكيفَ عرفتَ أنَّ محاولتَه الانتحارَ كانتْ بلا سببٍ ومنْ لا شيءٍ؟

فأجابَه النادلُ الأولُ : إنَّ لدى الشيخِ الكبيرِ مالاً وفيراً .

وجلسَ النادلان معاً على طاولةٍ ملتصقةٍ بالحائطِ بجانبِ بابِ المقهى ، ونظرا إلى رصيفِ المقهى ، فكانت جميعُ طاولاتِ المقهى خاليةً فيما عدا الطاولةِ التي جلسَ عليها الشيخُ الكبيرُ في ظل أوراق الشجرةِ التي كانت تتحركُ قليلاً بفعلِ الريح . مرّتَ في الشارعِ فتاةٌ وجنديٌّ ، وشوهدَ الرقمُ النحاسي المثبَّتُ على ياقةِ الجنديِ عندما لمعَ تحتَ نورِ ضوءِ الشارعِ . وأما الفتاةُ فقد كانت تغطي رأسَها وكانت تسرِّع الخُطى وهي تمشي بجانبِ الجندي .

قال أحدُ النادلين : سوفَ يمسكُ به الحارسُ .

فأجابه النادل الآخرُ : وماذا يضيرهُ ذلك إذا ما حصلَ على بغيتِه وما يسعى إليه؟

فقال النادل الأولُ : من الأفضلِ له أن ينجوَ ويتركَ الشارعَ الآن ، لأن الحارسَ سوف يمسكُ به ، فقد مرَّ الحرسُ من هذا الشارعِ منذُ خمسِ دقائق .

طقطقَ الشيخُ الكبيرُ الجالسُ في الظلِّ على صحنِ الفنجانِ مستخدماً الكأسَ التي شربها ، فذهبَ النادل الأصغرُ سناً إليه .

قال النادل للشيخ الكبير : ماذا تريد؟

فنظر إليه الشيخُ الكبير وقال : أريدُ قدحاً آخرَ من خمرِ البراندي .

فقال له النادل : سوف تسْكَر . فنظرَ الشيخُ الكبيرُ إليه ، فانصرفَ النادلُ .

قال النادلُ لزميلِه : إن هذا الشيخَ الكبيرَ سيبقى طوالَ الليلِ . ثم أردفَ قائلاً : إنني أشعرُ الآن بالنعاسِ وميلٍ إلى النومِ ، فأنا لا أذهبُ إلى فراشي قبل الساعةِ الثالثةِ . كان على هذا الشيخِ الكبيرِ أن يقتلَ نفسَه الأسبوع الماضي .

أخذ النادلُ زجاجةَ خمرِ البراندي وصحناً آخر من على الطاولةِ داخلَ المقهى ، والتي عليها أشياءُ لخدمةِ الزبائنِ ومحاسبتِهم عند مغادرتِهم ، وسار نحو طاولةِ الشيخِ الكبيرِ ، ووضعَ الصحنَ والقدحَ عليه ثم صبَّ البراندي حتى امتلأَت الكأسُ .

قال النادلُ مخاطباً الشيخَ الكبيرَ الأطرشَ : كان عليكَ أن تقتلَ نفسَك في الأسبوعِ الماضي . فأشارَ الشيخُ الكبيرُ بإصبعِه وهو يقولُ : أضف قليلاً . فصبَّ النادلُ البراندي في القدحِ حتى طفحَتِ الكأسُ وسالَ الخمر على جوانبِها وساقِها ، وتجمّعَ الخمرُ في الصحنِ الأعلى من مجموعةِ الصحونِ التي وضعَها الشيخُ الكبيرُ بعضها فوقَ البعض . فقال الشيخُ الكبيرُ : شكراً . وأعاد

النادلُ زجاجةَ البراندي إلى داخلِ المقهى ، وجلسَ مع زميلِه على الطاولةِ مرة أخرى ، وقالَ : لقدْ سكرَ الآن .

فقال النادلُ الثاني : إنه يسكرُ كلَّ ليلة .

استفسر النادلُ الأول : لأي شيء أرادَ أنْ يقتلَ نفسَه؟

فأجابَ النادلُ الثاني : وكيف لي أنْ أعلمَ ذلك؟

استفسرَ النادلُ الأول : وكيفَ فعلَ ذلك؟

فأجابَه النادلُ الثاني : شَنَقَ نفسَه بحبلٍ .

سأل النادلُ الأولُ : مَن الذي أنقذَه من الحبلِ؟

فأجابَه النادلُ الثاني : ابنَةُ أخيه .

سأل النادلُ الأول : ولماذا فعلوها؟

فأجابه النادلُ الثاني : خوفاً على حياتِه .

فسأل النادلُ الأولُ : كمْ لديه من المالِ؟

فأجابَه النادلُ الثاني : لديه الكثير .

قال النادل الأولُ : لابدَّ أنَّ عمرَه ثمانون سنةً .

قال النادلُ الثاني : على أيةِ حالٍ أستطيعُ القولَ إنَّه ابنُ ثمانين .

قال النادل الأولُ : أتمنى أن ينصرفَ هذا الشيخُ الكبيرُ ، ويعودَ إلى منزلِه . أنا لا آوي إلى فراشي قبل الثالثةِ . أيُّ ساعةٍ متأخرةٍ تلك التي يُذْهَبُ بها إلى الفراشِ؟

قال النادل الثاني : إنه يبقى هنا ويسهرُ طويلاً لأنه يحبُّ ذلك .

قال النادل الأول : إنه وحيدٌ . أما أنا فلستُ وحيداً . أنا عندي زوجةٌ تنتظرني في الفراشِ .

قال النادل الثاني : لقد كانتْ له زوجةٌ مثلك أيضاً في وقتٍ من الأوقاتِ .

قال النادل الأولُ : لكن لن تكونَ الزوجةُ ذاتَ منفعةٍ له بشيءٍ الآن .

فرد عليه النادلُ الثاني : لا يمكنكَ أنْ تحكمَ . فلربما يكونُ أفضلَ حالاً مع زوجةٍ .

قال النادل الأول : إنَّ ابنةَ أخيهِ تعتني به . أنتَ قلتَ إنَّها هي التي أنقذَتْه من الحبلِ .

فأجابَ النادلُ الثاني : نعمْ ، أنا أعلمُ ذلك .

قال النادل الأولُ :أنا لا أحبُّ أن أصبحَ مثلَ هذا الشيخِ الكبيرِ . إن الشيخَ الكبيرَ هو شيءٌ كريهٌ .

فردَّ النادلُ الثاني : ليسَ دائماً . فهذا الشيخُ الكبيرُ نظيفٌ . إنه يشربُ دونَ أن يُسقطَ أيَّ شيءٍ مما يشربُ . وحتى الآنَ وهو سكرانٌ فإنه لا يُسقطُ شيئاً . أُنظر إليه .

فقال النادلُ الأولُ : لا أريدُ أن أنظرَ إليه . كلُّ ما أتمناهُ أنْ يغادرَ ويعودَ إلى بيتِه . إنه لا يعيرُ أيَّ اهتمامٍ لأولئكَ الذينَ يضطرونَ للعملِ .

رفعَ الشيخُ الكبيرُ بصرهُ عن القدحِ وسرّحَه إلى حيثُ الميدانُ ثم عادَ ببصرِه إلى النادلين .

نادى الشيخُ الكبيرُ وهو يشيرُ بإصبعِه إلى القدح أمامَه : كأساً أخرى من البراندي . فجاءَهُ النادلُ الذي هو في عجلةٍ من أمرِه وقالَ له وهو يتكلمُ حاذفاً بعضَ ما تتركبُ منه الجملُ ، وهو أسلوبٌ يستخدمُه الناس عندَ التكلُّم مع السكارى أو الأجانبِ : انتهى . لا مزيدَ هذه الليلة . مغلقٌ الآنَ .

قال الشيخ الكبيرُ : كأساً أخرى .

فردَّ النادلُ : لا ، انتهى . وبدأ النادلُ بمسحُ حافةَ الطاولةِ بمنشفةٍ وأخذ يهزُّ رأسَه علامةً على رفضِه .

وقفَ الشيخُ الكبيرُ وأخذَ يعدُّ الصحونَ التي أمامَه لأنَّ كل صحن يقابلُه كأسٌ من الخمرِ ، ثم أخرج من جيبِه كيسَ نقوده المصنوعِ من الجلدِ ودفعَ ثمنَ ما شربَه ، تاركاً نصفَ بيزيتا(٧) كإكراميةٍ للنادلين . وأخذَ النادلُ يرقبُه وهو يسيرُ في الشارعِ . إنه شيخ كبير قد بلغَ من الكِبرِ عتيًّاً ، فهو يترنَّح في مِشيتِه ، فرجلاه غيرُ ثابتتين ، ولكنَّ مِشيتَه تنمُّ عن مهابةٍ ووقارٍ .

سألَ النادلُ الثاني والذي ليسَ على عجلةٍ من أمرِه النادلَ الأولَ وهما يغلقانِ المقهى ويقفلانِه : لماذا لم تتركْهُ يبقى في المقهى ويشرب؟ ثم أضافَ :إن الساعةَ لم تصلْ إلى الثانيةِ والنصفِ بعدُ .

---

(٧) البيزيتا هي وحدة النقد الإسبانية قبل اليورو .

فأجابَ النادلُ الأول : أريد أن أعودَ إلى البيتِ لآوي إلى فراشي .

فسأل النادلُ الثاني : وماذا تعني ساعة؟

فأجاب النادل الأول : الساعة بالنسبةِ لي تعني أكثر مما تعني له .

فقال النادل الثاني : الساعةُ هي نفسُها الساعةُ .

قال النادل الأول : أنت نفسُك تتحدثُ مثل شيخٍ كبيرٍ . إن بإمكانِه أن يشتريَ زجاجةَ الخمرِ وأن يشربَها في بيتِه .

فقال النادل الثاني : ليسا سواءً .

قال النادل الأول الذي عندَهُ زوجةٌ : أنا أوافقُك ، فليسا سواءً . فالنادلُ الأولُ لم يُردْ أن يكونَ غيرَ مُنصفٍ ، ولكنَّه كانَ في عجلةٍ من أمرِه فحسبُ .

فسأل النادل الثاني : وأنتَ؟ ألا تخشى أن تذهبَ إلى منزلِك قبلَ الوقتِ المعتادِ؟

فرد النادلُ الأول : هل تحاولُ إهانَتي؟

قال النادل الثاني : لا يا رجلُ ، أنا أمزحُ ، أمزحُ .

قال النادل الذي هو في عجلةٍ من أمره ، وهو ينهضُ بعد أن أغلقَ بابَ المقهى بإنزالِ المغلاقِ المعدنيِّ : لا أخافُ أن أرجعَ إلى البيتِ قبل الوقتِ المعلومِ . إن عندي ثقةً بزوجَتي ، بل إنني كلِّي ثقةٌ بها .

قال النادل الثاني والذي هو أكبر سناً من النادل الأول : لديك

الشبابُ والثقةُ والوظيفةُ . أنت تحوزُ كلَّ شيءٍ .

سأل النادل الأول : وأنت ماذا ينقصُكَ؟

فأجاب النادل الثاني : كلَّ شيءٍ ما عدا العملُ .

قال النادل الأول : إنَّ لديكَ كلَّ ما هو عندي .

فرد عليه النادل الثاني : لا ، فأنا أفتقرُ إلى الثقةِ دائماً ، كما أنني لست شاباً .

قال النادلُ الأولُ : هيّا بنا ، فلنتوقفْ عن هذا الكلامِ الفارغِ ودعنا ننظرُ إلى ما هو أفضلُ .

فقال النادل الثاني : أنا مِن أولئكَ الذين يرغبونَ في البقاءِ حتى وقتٍ متأخرٍ في المقهى . وأضافَ النادلُ الأكبرُ سناً قائلاً : أنا مع أولئك الذين لا يرغبونَ في الذهابِ إلى الفراشِ ، ومع أولئك الذين يحتاجون إلى إضاءةٍ في الليل .

قال النادل الأول معقباً : أنا أحبُّ أن أعودَ إلى البيتِ وأن آوي إلى فراشي .

قال النادل الأكبرُ سناً ، والذي ارتدى ملابسَه للتوِّ للعودةِ إلى منزِله : أنا وأنت من نوعين مختلفين . ثم تابعَ قائلاً : إن الأمرَ ليسَ فقط مسألةَ شبابٍ وثقة ، بالرغم من هذه الأشياءِ الجميلةِ والرائعة حقاً ، فأنا كلَّ ليلةٍ أكونُ متردداً وكارهاً في إغلاقِ المقهى فلعلَّ هناك شخصاً ما بحاجةٍ إليه .

عقّبَ النادلُ الأول على ما قالَه النادلُ الثاني قائلاً : أيُّها الرجلُ ، هناك حوانيتُ تبيعُ الخمورَ مفتوحةٌ طوالَ الليلِ .

قـال النادل الثـاني : أنت لا تفـهـمُني ، هذا مـقـهى نظيفٌ وجذّابٌ ، فهوِ حسنُ الإنارةِ ، وإضاءتُه أيضاً جيدةٌ جداً ، وهناك الآن ظلالُ الأوراق .

قال النادل الأول الأصغر سناً : طابتْ ليلتُك .

فـرد النادل الثـاني : طابتْ ليلتُك . وقـام هذا النادلُ بإطفـاءِ الضوءِ الكهربائي ، واستمرَ في الحديثِ مع نفسه قائلاً : إنه الضوءُ بالطبع ، ولكنْ من الضروري أن يكونَ المكانُ نظيفاً وممتعاً . بالتأكيدِ لا ترغَبُ في الموسـيـقى . لا يمكنُك أن تقفَ أمـامَ حـانةٍ بكرامـةٍ واحـترام بالرغـم من أنَّ هذا هو كلُّ مـا يُقدمُ في هذه السـاعـاتِ . مِمَ يخشَ؟ إنَّه ليسَ خوفاً؟ إنه لا يعلمُ بشكلٍ حسنٍ وكثيرٍ عن أي شيء . كلُّ شيءٍ هو لا شيءَ البتةَ ، وكذلك الإنسـانُ هو لاشيءٌ أيضاً . هو شيءٌ وحيدٌ فحسب ، والضوءُ هو كل ما تحتاجُه معَ قدْرٍ من النظافةِ والترتيبِ . البعضُ يعيشونَ فيه ولكنَّهم لا يشعرونَ به بتاتاً ، ولكنَّه يعرفُه ، إنه يعرفُه كلَّه ، إنه العدمُ ، إنه اللاشيءُ ، إنه عـدمُ فـهمِ أي شيءٍ . عـدميتُنا هي صـاحـبةُ الفنِّ في العـدميةِ ، واللاشيءُ هو اسـمُك ومملكتُك ، وإرادتُك سـتكونُ العـدمـيـةُ في العـدمـيةِ ، كـمـا سـتكونُ هذه العـدمـيةُ في العـدمـيةِ واللاشيءِ . امنحونا هذه العدميةَ لعدميتِنا اليومية ، وعدميتُنا لعدميتِنا ، ونحنُ عدمٌ في عـدميتِنا ، ولا تجعلِ العدمَ أباً لنا ، بلْ اجعلْنا نتـحـرَّرُ من العـدمـيـةِ ؛ العـدم وعـدم فـهـم أيِّ شيء . تحيـا العـدمـيـةُ المليئـةُ بأيِّ شيءٍ ، واللاشيءُ هو مَنْ معكَ . ابتسمَ النادلُ ووقفَ أمامَ حانةٍ بها

آلةً تلمعُ وهي تعملُ بضغطِ البخارِ لتحضيرِ مشروبِ القهوةِ .

سـألَ نادلُ الحـانةِ النادلَ الذي وقف أمـام الحـانةِ : مـا هو مشروبُك؟

أجابَه النادلُ : اللاشيء .

فعقَّبَ نادلُ الحانةِ على هذهِ الإجابةِ وهو يستديرُ مبتعداً : شخصٌ معتوهٌ آخرٌ .

قال النادل : كأساً صغيرةً .

استجابَ نادلُ الحانةِ لطلبِه وصبَّ له كأساً .

قال النادل : إن الاضواءَ متألقةٌ تماماً وجذّابةٌ ، ولكن الحانة لا تلمع من النظافة .

نظرَ نادلُ الحانةِ إليه ، ولكنَّه لم يجبْه لأنَّ الوقتَ كانَ في ساعة متأخرةٍ من الليلِ ، وهو وقتٌ غيرُ مناسبٍ للبدءِ في حديث معه .

سألَ نادلُ الحانة النادلَ الزبونَ : هل تريدُ كأساً صغيرةً أخرى؟

فأجابَ النادلُ : لا ، شكراً لك . قالَ النادلُ هذه الكلماتِ وخرجَ من الحانةِ . إنَّ هذا النادلَ يكرهُ الحانات والحوانيتِ التي تبيعُ الخمورَ . لا شك بأنَّ المقهى النظيفُ والمضاءُ بشكلٍ حسنٍ هو شيءٌ مختلفٌ تماماً . والآن ، وبدونِ مزيد منَ التفكيرِ ، سوف يعودُ هذا النادلُ إلى غرفتِه في منزلِه ويأوي إلى فراشِه ، وأخيراً ، ومع بدايةِ ضوءِ النهارِ ، سيخلدُ للنومِ . وبعدَ كلٍّ ما حدثَ ، حدّث النادلُ نفسُه قائلاً : إن كل ما في الأمرِ لربما لا يعدو كونُه أرقاً . كثيرونَ همْ ممنْ يتَملَّكَهُم مثلُ ذلك .

قائد الجماهير[٨]

جون ستاينبك

بعدَ ظهرِ يومِ السبتِ ، قامَ بِلِي بَكْ والذي يعملُ في مزرعةٍ للمواشي ، بجمعِ ما تبقى من السنةِ الماضيةِ منْ كومةِ القشِّ المجفَّفِ الذي تُعلفُ به الماشيةُ ، وكانَ يقذفُ بالقشِ المجففِ فوقَ سياجٍ من الأسلاكِ ، وبكمياتٍ قليلةٍ وهي التي يمكنُ للمذراةِ حملُها ، وكان في الجانبِ الآخرِ من السياجِ عددٌ قليلٌ من الماشيةِ وقد تلقتْ هذا العلفَ بقليلٍ من الاهتمامِ . وكانتْ تَظْهرُ في السماءِ سُحبٌ صغيرةٌ عاليةٌ والتي تشبهُ نفثاتِ الدخانِ التي تصاحبُ إطلاقَ المدافعِ للقذائفِ ، وكانتْ ريحُ شهرِ آذارَ تدفعُ تلك السحبَ إلى جهةِ الشرقِ . وكانَ صوتُ حفيفِ الريحِ يُسمعُ في

(٨) إن عنوانَ هذهِ القصةِ قدْ يوهمُ القارىءَ فيظنُّ أنَّها عن أمورٍ سياسيةٍ أو ثورةٍ شعبيةٍ أو أمورٍ تتعلقُ بأوقاتِ الحربِ ، ولكنَّها في الحقيقةِ ليستْ كذلك ، بل هي عبارةٌ عن زيارةٍ يقومُ بها جدٌّ لابنتِه وزوجِها وابنِهما الصغيرُ ، وتبرزُ المشاعرُ والأحاسيسُ التي تبينُ سماتِ الشخصياتِ وعلاقاتِها ومواقفِها ، وسيتبينُ القارىءُ الكريمُ من خلالِ القصةِ من هو القائدُ أو الزعيمُ .

الأجمةِ الموجودةِ على قممِ سلسلةِ التلالِ ، ولكنَّ هباتِ الريحِ لم تكنْ تنفذُ إلى صحنِ مزرعةِ المواشي .

ظهر الولدُ الصغيرُ جودي من بيتِه وهو يأكلُ قطعةً سميكةً من الخبزِ بالزبدةِ ، ورأى بِلي وهو يعملُ على ما تبقى من كومةِ القشِّ المجفَّفِ . كان جودي يمشي وهو يجرُّ قدميهِ من غيرِ أن يرفعَهُما عن الأرضِ ، وهي طريقةٌ في المشيِ قيلَ له عنها إنها تتلفُ الأحذيةَ الجلديةَ الجيدةَ . طارَ سربٌ من الحمامِ الأبيضِ من شجرةِ السروِ السوداءِ عندما مرَّ جودي بالقربِ منها ، ثم حامَ ذاكَ السربُ فوق الشجرةِ وحطَّ عليها مرة أخرى . قفزتْ هرّةٌ من شرفةِ مبنى بسيطٍ للعمالِ مزودٍ بأشياءَ بسيطةٍ ، وهي هرّةٌ ليست بالصغيرةِ ولكنَّها في الوقتِ نفسه لم تصلْ مرتبةَ الهرّةِ المكتملةِ النموِّ ، وكانتْ مرقطةً كظهرِ السلحفاةِ ، وأخذتْ تعدو بأرجلٍ قويةٍ وهي تعبرُ الطريقَ ، ثم استدارتْ فجأةً راجعةً تعدو من حيثُ أتت . التقطَ جودي حجراً لجعلِ الهرةِ تعدو في الاتجاهِ نفسه ولكنَّهُ كان متأخراً جداً ، لأنَّ الهرّةَ كانتْ تحتَ الشرفةِ قبل أن يتمَ قذفُ الحجر ، فرمى به على شجرةِ السروِ وهنا طارتِ الحماماتُ البيضاءُ وبدأتْ بالحومِ حولَ الشجرةِ مرة أخرى .

وصل الولد الى كومة القش المستنفدة وانحنى متكئاً على سياج الأسلاك الشائكة وقال : أتظن أن هذا كل ما تبقى؟

توقفَ العاملُ في مزرعةِ المواشي ، والذي هو في منتصفِ العمرِ ، عن عملِه في جمعِ العشبِ المجففِ بعنايةٍ بواسطةِ أسنانِ

المذراةِ ، وقامَ بغرزِ المذراةِ في الأرضِ . خلعَ قبّعَتَه السوداءَ وسوّى شعرَه إلى الأسفلِ وقالَ : لمْ يبقَ شيءٌ من الكومةِ غيرَ ذلك الذي أُشبعَ بالماءِ بسببِ ما طالَه من رطوبةِ الأرضِ . ثم قامَ بوضعِ قبعتِه على رأسِه ، وفركَ يديْه الجافتينِ والمتينتينِ بعضَهما ببعضٍ .

ذكّرَ جودي بلي قائلاً : لا بد أن تكونَ هناكَ فئرانٌ كثيرةٌ .

فقال بلي : وكثيرٌ من القملِ معهن . فهي تزحفُ مع الفئرانِ .

فعقّبَ جودي قائلاً : حسناً ، فلربما ، عندما تنتهي من عملِك وتجمعُ كلَّ ما يمكنُ جمعُه ، أستطيعُ استدعاءَ الكلابِ لاصطيادِ الفئرانِ .

قال بِلِي : بالتأكيد . أظنُّ أنَّه يمكنُك ذلك . رفعَ بالمذراةِ ما يمكنُ رفعُه من على الأرضِ من القشِ الرطبِ وذراها في الهواءِ . وعلى الفورِ قفزتْ ثلاثةُ فئرانٍ من بينِ القشِ وهربتْ بشكلٍ محموم واختبأتْ تحت القش مرة أخرى .

تنهَّدَ جودي بارتياح . إنَّ مصيرَ هذهِ الفئرانِ السمينةِ وذاتِ الفراءِ الأملسِ والمتغطرسةِ محتوماً . لقد عاشتْ هذه الفئرانُ لمدة ثمانيةِ أشهرٍ في كومةِ القشِ وتضاعفتْ أعدادُها ، وكانت محصَّنةً وفي مأمنٍ من القططِ والفخاخِ والسُمِّ وجودي . وقد نمتْ الفئرانُ وترعرتْ وهي معتدَّةٌ بما هي فيه من أمنٍ وأمانٍ ، وكانت سيدةً في مكانِها لا ينازعُها فيه أحدٌ ، وهي أيضاً سمينةٌ وممتلئةُ الأجسامِ . وقد حانَ وقتُ الكارثةِ على هذه الفئران التي لن تبقى على قيدِ الحياةِ ليومٍ واحدٍ قادمٍ .

نظرَ بِلي إلى أعالي التلالِ التي تحيطُ بالمزرعةِ ، وقال مقترحاً على جودي : ربما من الأفضلِ أن تسألَ والدَك قبلَ أن تفعلَ ذلك .

فرد جودي قائلاً : حسناً ، أين هو؟ سأطلبُ منه ذلك الآن .

قال بلي : لقد ركبَ وذهبَ إلى المنطقةِ العليا من المزرعةِ بعد الغداءِ وسوف يعودُ قريباً جداً .

مال جودي على السياج وهو مسترخٍ وقال : لا أعتقدُ أنَّ والدي يهتمُ بهكذا موضوع .

قال بلي ، وهو راجعٌ إلى عملِه ، بطريقةٍ تحملُ في طياتِها الإنذارَ لجودي : على أيةِ حالٍ ، الأفضلُ أن تسألَه ، فأنتَ تعرفُ كيفَ هو .

والحقيقةُ أنَّ جودي يعرفُ ذلك ، فوالدُه ، كارل تفلن ، يصرُّ على أن يُستأذنَ في كلِّ شيءٍ يتمُّ القيامُ به في المزرعةِ ، سواءٌ أكان مهماً أم لا . اتكأ جودي وهو مسترخٍ بشكلٍ كبيرٍ على عمودٍ في سياجِ المزرعةِ ، فبدأ جسمُه ينزلُ حتى استوى جالساً على الأرضِ . نظرَ إلى تلكَ السحبِ والتي تشبهُ النفثاتِ الصغيرةِ والتي تحركُها الرياحُ وقال : هل هناك مَيْلٌ لأنْ تمطرَ السماءُ يا بلي؟

فأجابَه بلي : لربما . فالريحُ التي تهبُ تساعدُ على ذلك ، ولكنها ليستْ قويةً بما فيه الكفايةُ .

قال جودي : حسناً ، آملُ ألاَّ تمطرَ إلاَّ بعد أن أقوم بقتلِ تلك الفئرانِ اللعينةِ . وترقَّبَ جودي أمراً غيرَ سارٍ سيأتيهِ ، فنظرَ إلى ما إذا كانَ بِلي قد لاحظَ استعمالَه لألفاظٍ تجديفيةٍ تدلُّ على نضجِ

قائلِها ، ولكنَّ بلي استمرَ في العملِ دون تعليق .

تحول جودي وأدارَ نفسَه إلى الجهةِ التي كانتْ مقابلةً لظهرِه ونظرَ إلى جانبِ التلِّ الذي مِنْه تأتي الطريقُ من العالم الخارجيِّ ثم تنحدرُ إلى أسفلِ التلِّ الذي تغمرُه أشعةُ شمسِ آذار المائلةِ . على سفح هذا التلِ توجدُ هناك نباتاتُ الأشواكِ الفضيةِ ، والترمسُ الأزرقُ ، وقليلٌ من الخشخاشِ المزهرِ بين شجيراتِ المريميةِ . في منتصفِ الطريقِ إلى أعلى التلِّ ، يمكنُ لجودي أن يرى الكلبَ الأسودَ المهجَّنَ من سلالتين وهو يقومُ بالحفرِ في جحرِ السنجابِ . مشى الكلبُ ببطءٍ لفترةٍ من الوقتِ ، ثم توقَّفَ وقفةً قصيرةً من أجلِ أنْ يُخرجَ الأوساخَ من بين ساقيهِ الخلفيتينِ على شكلِ رشقات مندفعة . أخذَ الكلبُ يحفرُ بكلِّ اهتمام وجديةٍ ، وكأنَّه يريدُ أن يُكذِّب المَقولةَ التي وصلتْه حتماً ، من أنَه لَم يستطعْ أيُّ كلبٍ فيما مضى من الأزمانِ الإمساكَ بسنجابٍ عن طريقِ حفرِ جحرِهِ .

وفجأةً ، وبينما جودي يرقبُ ، تسمَّرَ الكلبُ الأسودُ في مكانه ، ثم إنسحبَ مما كانَ يقومُ به من حفرِ جحرِ السنجابِ ونظرَ إلى أعلى باتجاه شقٍّ في قمةِ التلِّ ، والتي من خلالِه تأتي الطريقُ ، وكذلكَ فعلَ جودي أيضاً فنظرَ إلى هناكَ . للحظةٍ ظهرَ كارل تفلن على ظهرِ حصانٍ على خلفيةِ لونِ السماءِ الشاحبةِ ، ثم تحركَ في الطريقِ نزولاً نحو المنزلِ ، وكانَ يحملُ في يدِه شيئاً أبيضَ .

أطلقَ جودي لساقيهِ العنانَ وصاحَ : لقدْ جلبَ رسالةً . هرولَ

مبتعداً باتجاهِ منزلِ المزرعةِ ، لأنَّه منَ المحتملِ أن تُقرأَ هذهِ الرسالةُ بصوتٍ عالٍ ، ويريدُ أنْ يكونَ هناكَ لحضورِ ذلك . وصلَ جودي المنزلَ قبلَ والدِه ودخلَه راكضاً . ترجَّلَ كارل من على سرجِه الذي أخرجَ صريراً ، ثم صفعَ جانبَ الحصانِ لإرسالِه إلى الحظيرةِ حيث سيقومُ بلي بحلِّ السرجِ وإنزالِه من على ظهرِ الحصانِ ، ثم يقومُ بإخراجِ الحصانِ خارجَ الحظيرةِ .

ركضَ جودي إلى داخلِ المطبخِ ، وصاحَ : لقد جاءتْنا رسالةٌ!

حولّتْ أمُّه نظرَها من الفاصوليا التي تُطبخُ في المقلاةِ واستفسرتْ : مَنْ الذي لديه الرسالةُ؟

فأجابها جودي : أبي لديه الرسالة . لقد رأيتُها في يدِه .

سار كارل حتى دخل المطبخَ ، فسألتْه أم جودي : من أين الرسالةُ يا كارل؟

فعبس بسرعة وسألَها : كيف علمتِ أنَّ هناكَ رسالةً؟

هزتْ رأسَها وأومأتْ به في اتجاهِ الصبيِّ وقالتْ : البنطالُ الكبيرُ[٩] جودي قالَ لي ذلك .

---

(٩) والمقصودُ بالبنطالِ هنا هو بنطالٌ قصيّر ، فضفاضٌ من أعلاه ومزمومٌ من أسفلِ ، وقد يكونُ مطرزاً من أسفلِه وكانَ يلبسُه الرجالُ عند ركوبِ الخيلِ وكانَ منتشراً من بدايةِ القرنِ السابعِ عشرَ وحتى بدايةِ القرنِ التاسع عشرَ ، فهذا اللقبُ لهذا الولدِ كان تيمناً في أن يصبحَ فارساً وسيداً . وسأستعملُ كلمةَ الفارسِ عندَ ورودِ هذا اللقبِ فيما بعد في القصة .

شعَرَ جودي بالحرج .

نظرَ إليه والدُه نظرةً تدلُّ على ازدرائه لجودي وتفاهتِه وقالَ : إنَّه في طريقِه ليكونَ فارساً . إنه يهتمُّ بكلِّ شؤونِ الآخرين ، ولكنه لا يهتمُّ بالأمورِ التي تخصُّه . إنه يدسُّ أنفهُ في كلِّ شيءٍ .

خففتْ السيدةُ من حدَّتِها قليلاً وقالتْ : حسناً ، جودي ليس لديه ما يكفي من الأمورِ لإبقائه مشغولاً . من أينَ الرسالةُ؟

مازالَ كارل عابساً في وجهِ جودي وقالَ : سوفَ أُبقيهِ مشغولاً إذا لم يكنْ حريصاً ومنتبهاً . وخاطبَ كارل زوجتَه وهو يحملُ في يدِه رسالةً مختومةً قائلاً : أظنُّها من والدِك .

أخذتِ السيدةُ تفلن دبوسَ شعرٍ من رأسِها وشقتْ به لسانَ ظرفِ الرسالةِ لفتحِها ، وشفتاها مزمومتان بهدوءٍ ودونَ توترٍ . رأى جودي عينيَّ والدتِه تتحركانِ بخفةٍ ذهاباً وإياباً على أسطرِ الرسالةِ . أخذتْ السيدةُ تفلن تشرحُ ما تحويهِ الرسالةُ فقالتْ : إنه يقولُ إنَّه سينطلقُ في رحلتِه يومَ السبتِ للبقاءِ عندنا لبعضِ الوقت . ماذا ، هذا هو يومُ السبت . هناك حتماً تعمّدٌ في تأخيرِ الرسالةِ . نظرتْ إلى ختمِ البريدِ وقالتْ : وُضعتْ هذهِ الرسالةُ في البريدِ يوم قبلَ أمس . كان ينبغي أن تكونَ هذهِ الرسالةُ هنا يومَ أمسِ . نظرتْ إلى زوجِها نظرةَ تساؤلٍ ثم اكفهرَ وجهُها غضباً ، وقالت مخاطبةً زوجَها : الآن ، ما الذي جنيتَه وحصلتَ عليه مما كنتَ تصبو إليه؟ إنه لا يترددُ لزيارتِنا كثيراً .

حوّل كارل عينيهِ عن النظرِ إليها ليتجنبَ غضبَها . قد يكونُ

صارماً اتجاهَها معظمَ الوقتِ، ولكن، في بعضِ الأحيانِ، عندما تحتدُّ وترتفعُ عصبيتُها، فإنَّه لا يمكنهُ تحدِّيها ومنازعتِها.

سألَتْه مرةً أخرى طالبةً منهُ تفسيراً لموقِفه: ماذا دهاكَ يا هذا؟

في شرحِه للأمرِ كانت نبرتُه نبرةَ اعتذارٍ كتلك التي يمكن لجودي أن يستخدمها، وقال بصوتٍ ضعيفٍ: إنها مجردُ أنهُ يتكلَّم. مجرَّدُ كلام.

فردت عليه زوجتُه قائلةً: حسناً، ماذا يعني ذلك؟ أنتَ نفسُك تتكلمُ.

فقال كارل: حقاً، أنا أقوم بذلك، ولكنَّ والدَك يتحدثُ عن شيءٍ واحدٍ فقط.

فانفجر جودي صائحاً بحماسة: الهنودُ! الهنودُ وعبورُ السهولِ!

استدار كارل بعنفٍ نحو جودي وقال له: أنتَ إلى الخارجِ أيها الفارسُ جودي. إمشِ من هنا الآن. أُخرج.

خرج جودي من البابِ الخلفيِّ وهو مغلوبٌ على أمرِه وأغلقَ الستارةَ بعد أن بذلَ غايةَ الجهدِ لإغلاقِها بهدوءٍ. تحتَ نافذةِ المطبخِ وقعتْ عيناهُ اللتان خفضَهما خجلاً على حَجَرٍ يلفتُ شكلُهُ النظرَ. إنه حجرٌ يأخذ بِلُبِّ من يراه، فجلسَ جلسةَ القرفصاءِ والتقطهُ وبدأ يقلِّبه في يديه.

جاءت الأصوات لجودي بشكل واضح من خلال نافذة المطبخ المفتوحة، فسمع والده يقول: لعنةٌ تُصيب جودي. الحديثُ فقطْ عن الهنودِ وعبورِ السهولِ. لقد سمعتُ تلك القصةَ حولَ كيفيةِ

سياقةِ الخيولِ نحو ألفِ مرة . إنه فقط يسردُ ويسردُ الحكايةَ ، ولا يغيِّرُ كلمةً واحدةً فيما يسردهُ من قصصٍ .

عندما أجابتْه السيدةُ تفلن كانت نبرةُ صوتِها قد تغيّرتْ مما استرعى انتباهَ جودي الذي هو في الخارجِ ، ويسمعُ الأصواتَ من النافذةِ ، وجعلَه يتركُ تفحُّصهُ للحجرِ الموجودِ بين يديه . أصبحَ صوتُها ليناً كصوتِ من يقومُ بتفسيرِ الأمورِ وتعليلِها . يعرفُ جودي كيف تتغيرُ معالمُ وجهِ والدتِه من أجلِ أن تتناسبَ مع نبرةِ صوتِها . قالت بهدوء : أُنظرْ يا كارل للأمرِ بهذهِ الطريقةِ . إنَّ تلك القصصَ هي الشيءُ الكبيرُ في حياةِ والدي . إنه يقودُ عربةً في دربٍ واضحٍ عبرَ السهولِ نحوَ الساحلِ ، وعندما تنتهي الطريقُ ، فإنَّ حياتهُ قد خُتمت . إن القيامَ بهذا الأمرِ لهوَ شيءٌ كبيرٌ وعظيمٌ ، ولكن تلك الرحلةَ لا تستغرقُ وقتاً طويلاً بما فيه الكفاية . وتابعت قائلة : أنظر! يمكنُ أن نقولَ إنَّ والدي جاءَ إلى هذه الحياةِ الدنيا كما لو أنَّه وُلِدَ ليقومَ بذلك ، وبعد أن يُنهيَ ما يقومُ به ، فإنَّه لا يوجدُ شيءٌ أكثرُ بالنسبةِ له للقيام به غيرُ التفكيرِ فيما قامَ به والحديثُ عنه . لو كان هناك امتداد للغرب(١٠) أبعد مما هو موجود ليذهب هناك لفعل ذلك . وقد قال لي ذلك بنفسه ، ولكن في النهاية هناك المحيط في الغرب . إنه يعيش هناك قرب المحيط في المكان الذي كان عليه أن يقف فيه .

---

(١٠) المقصود بالغرب هنا هي مناطق الغرب الأمريكي .

لقد أمسكت السيدة تفلن بزوجها كارل ، فقد وقع في شَرَكِها وأخذته بنبرة صوتها الناعمة .

وافق كارل زوجتَه بهدوءٍ وقال : لقد رأيتُه وهو يذهبُ إلى أسفلِ المنطقةِ ويحدقُ بنظرِه إلى جهةِ الغربِ حيثُ المحيط . احتدَّ صوتُ كارل قليلاً وقال : وبعد ذلك يذهبُ إلى النادي المسمَّى حدوةَ الحصانِ والموجودَ في منطقةِ بستانِ المحيطِ الهادئِ ، ويقولُ للناسِ عن كيفيةِ قيادةِ الهنودِ للخيولِ .

حاولت السيدةُ تفلن أنْ تجذبَ زوجَها مرةً أخرى فقالتْ له : حسناً ، إنَّ ما يقولُه هو كلُّ شيء بالنسبةِ إليه . يمكنك أنْ تكونَ صبوراً اتجاهَه وتتظاهرَ بالاستماعِ إليه .

تحوّلَ كارل من مكانه للانصرافِ وقد نفد صبرُه وقال بانفعال : حسناً ، إذا ساءت الأمور للغايةِ ، فإنَّ باستطاعتي أن أذهبَ دائماً إلى مكانِ سكنِ العمالِ للجلوسِ مع بِلِي . مشى في المنزل حتى خرج من البابِ الأماميِّ وأغلقَه وراءه بعنفٍ .

ركضَ جودي للقيام بأعمالِه الخفيفةِ والمنتظمةِ في المزرعةِ . قامَ بإلقاءِ الحبوبِ للدجاجِ دونَ أن يقومَ بمطاردةِ أيٍّ منها ، ثم جمعَ البيضَ من الأعشاشِ . هرول جودي إلى داخلِ المنزلِ ومعهُ ماعونٌ خشبيٌّ على شكلِ برميلٍ وقد شبَّكَهُ بعنايةٍ داخلَ صندوقٍ خشبيٍّ ، وبدا أنَّ مقدارَ حِمْلِ ذراعين تجعلُ هذا الصندوقَ يمتلئُ إلى حدِّ الفيضانِ .

انتهتْ والدةُ جودي من طهو الفاصوليا الآن . حركتْ النارَ ،

ونظَّفتْ أعلى الموقـدِ بجناحِ ديكٍ روميٍّ . حـدّقَ جـودي النظرَ ، وبحذرٍ ، في والدتِه لمعرفةِ ما إذا كـانَ قد بقيتْ هناك أيةُ ضغينةٍ اتجاههُ ، ثم سأل : هل سيأتي هذا اليومَ؟

فأجابتْه والدتُه : هذا ما أخبرتْ عنْهُ الرسالةُ .

قـال جـودي : ربَّمـا من الأفضلِ أن أذهبَ وأمـشي في الطريقِ لملاقاته .

أغلقتْ السيدةُ تفلن الموقدَ بغطاءٍ أخرجَ رنيناً ، وقالتْ : إنَّ هذا لأمرٌ ممتازٌ ولطيفٌ ، فلربما يرغبُ في أن يُلاقى .

قال جودي لوالدتِه : سأفعلُ ذلك إذاً .

خرجَ جودي من المنزلِ وأصدرَ صفيراً حاداً للكلابِ ، وأصدرَ أوامرَه : هيا إلى أعلى التلِّ . فقامَ كلبانِ بالتلويحِ بذيلَيْهما فسبقاهُ وركضا أمامَه .

على طولِ الطريقِ كـانت فـروعُ نبـاتاتِ المريميـةِ تُخـرجُ رؤوسـاً جديدةً وطريةً . قطع جودي بعضاً من هذهِ الفروعِ وفركَهن بيديْه حتى امتلأَ الهواءُ برائحةٍ طبيعيةٍ حادةٍ . اندفع الكلبانِ وقفزا عن الطريقِ ودخلا الأجمةَ وهما ينبحانِ ويطاردان أرنباً ، ولمْ يَرَ جودي الكلبين بعد اختـفـائِهمـا في الأجمـةِ لأنَّهمـا عندمـا فشـلا في الإمساكِ بالأرنبِ ، رجعا إلى البيتِ .

مشى جودي ببطءٍ صاعداً التلَّ ونحوَ أعلى قمةِ التلِّ . وعندما وصل الشقَّ الصغيرَ ، والذي منه تأتي الطريقُ ، تعرَّضَ للريحِ التي تهبُّ بعدَ الظهرِ ، فطيّرتْ شعرهُ ونفختْ قميصَه . نظرَ إلى الأسفلِ

إلى التلالِ والقممِ الصغيرةِ التي هي أدنى من مستوى التلِّ الذي يقفُ عليه ، ثم تجاوزَ بنظرِه تلكَ التلالَ ، ونظرَ إلى وادي ساليناس الأخضرِ والهائلِ . يمكنُه أنْ يرى مدينةَ ساليناس البيضاءَ بعيداً في هذا الوادي المنبسطِ ووِمضاتِ نوافذِها تحتَ أشعةِ الشمسِ الضعيفةِ . وأدنى منه مباشرةً ، توجدُ شجرةُ البلوطِ ، والتي تجمعتْ عليها الغربانُ في اجتماعٍ لها ، وكانتْ الشجرةُ سوداءَ مما عليها من الغربانِ ، وكانت الغربانُ تنعبُ كلُّها في آنٍ واحد .

ثم تتبعتْ عيونُ جودي طريقَ العرباتِ التي تأتي من التلِّ حيثُ يقفُ ثم تنزلُ للأسفلِ ، وتَتَبَعَهَا حتى فقدَ إمكانيةَ تتبُعِها لأنَّها صارتْ وراءَ تلة ، ثم ظهرت مرةً أخرى من الجانبِ الآخرِ من التلةِ . في هذا الامتدادِ الواسع ، رأى عربةً يجرُّها ببطءٍ حصانٌ بنيُّ اللونِ ، وعليه نقاطٌ سوداءُ ، ثم اختفت وراءَ التل . جلسَ جودي على الأرضِ وراقبَ المكانَ الذي منه سوف تعودُ العربةُ للظهورِ مرةً أخرى . أزّت الرياحُ على قممِ التلالِ ، وكانت تسوقُ نحوَ الشرقِ وبسرعةٍ سُحُباً صغيرةً وخفيفةً كنفثاتِ الدخانِ .

ثم ظهرتْ العربةُ لنظرِ جودي وتوقفتْ . نزلَ رجلٌ يرتدي ملابسَ سوداءَ من على مقعدِه ومشى نحوَ رأسِ الحصانِ . وبالرغم من المشهدَ الذي كان بعيداً جداً ، إلا أنَّ جودي عرفَ أن الرجلَ قد حلَّ العنانَ القصيرَ الذي يمنعُ الحصانَ من أنْ يخفضَ رأسَه ، لأنَّ رأسَ الحصانِ نزلَ إلى الأمامِ . تحركَ الحصانُ ومشى ، ومشى الرجلُ ببطءٍ بجانبِه وهو يصعدُ التلَّ . أصدرَ جودي صرخةَ سعادةٍ

ونزلَ يركضُ في الطريقِ نحوهم . وكانت السناجبُ تجري إلى الأعلى وإلى الأسفلِ على طولِ جنباتِ الطريقِ ، وكان هناكَ طائرُ الجوّابِ الذي كان يحرِّكُ ذيلَه حركةً سريعةً وخاطفةً ، ويندفعُ طائراً نحو قمةِ التلِّ ثم يهبطُ نحوَ أسفلِ التلِّ بسرعةٍ كالمتزلج .

حاولَ جودي أن يقفزَ إلى منتصفِ ظِلِّه في كلِّ خطوةٍ ، فتدحرجَ حجرٌ في إحدى القفزاتِ تحتَ قدمِه فوقَع . ركضَ حول منحنى صغيرٍ في الطريقِ ، ولم يبقَ هناكَ بعد هذه المنطقةِ أمامَه إلا مسافةٌ قصيرةٌ للوصولِ لجدِّه والعربةِ . أوقفَ الولدُ الركضَ والذي هو غير لائقٍ لاستقبالِ جدِّه ، واقتربَ من جدِّه يمشي بطريقةٍ تدلُّ على الاحترامِ والتبجيلِ .

مشى الحَصانُ ببطءٍ وتعثرتْ أرجلُه مراتٍ وهو يصعدُ التلَّ ، والرجلُ الكبيرُ في السنِّ يمشي بجانبِه . ظهرتْ ظلالُهم العملاقةُ والداكنةُ وهي تترجرجُ خلفَهم بسببِ الشمسِ المنخفضةِ في الأفق . وكانَ الجدُّ يرتدي بزَّةً سوداءَ واسعةً من الجوخِ ، ويلبسُ فوقَ حذائِه حذاءً واقياً قدْ خِيطَ وجُمعَ ما بين قسمِه الأسفلِ المصنوعِ من جلدِ الجَدْي وقسمِه الأعلى المصنوعِ من القماشِ ، ويرتدي ربطةَ عنقٍ سوداءَ على ياقةٍ قصيرةٍ وصلبةٍ . وكانَ يحملُ في يدِه قبعتَهُ السوداءَ المترهلةَ وهي قبعةٌ عريضةُ الحافةِ مسترخيتُها ، وشعْرُ لحيتِه البيضاءِ مقصوصاً قصاً قصيراً جداً ، وحواجبُه البيضاءُ متدليةٌ فوقَ عينيهِ كالشواربِ ، وعيناهُ الزرقاوان بهما مرحٌ وبهجةٌ قويان . أما عن وجهِه وشخصيتِه بشكلٍ عامٍّ فهوَ

يشبهُ صفاتِ حجرِ الغرانيتِ أو الصَّوانِ ، لذلك تبدو أيةُ حركة له أمراً مستحيلاً . عندما يكون مستريحاً ، فإنَّ هذا الرجلَ الكبيرَ في السنِّ يبدو كالحجرِ ، وأنَّه لنْ يتحركَ أبداً مرةً أخرى . خطواتُه بطيئةٌ ولكنَّها ثابتةٌ وواثقةٌ . وعندما يقومُ بهذا الأمرِ ويخطو خطوةً واحدةً ، فقد لا تكونُ هناك خطوةٌ أخرى تتبعُها . وعندما يسيرُ في اتجاهٍ ما ، فلنْ يكونَ هناك مسارٌ محددٌ أبداً ، ولن تكونَ هناكَ زيادةٌ في سرعةِ الخطى أو إبطائها .

عندما ظهرَ جودي بعد أن قطعَ مسافةَ المنعطفِ ، لوَّحَ الجدُّ بقبعتِه ببطءٍ كعلامةِ ترحيبٍ وصاحَ : لماذا ، جودي! نزلتَ وجئتَ للقائي ، أليس كذلك؟

مشى جودي مشيةً جانبيةً ليكونَ قريباً من جدِّه ، ثم تحوَّل في مشيتِه لتتوافقَ خطوتُه مع خطوةِ الرجلِ الكبيرِ في السنِّ ، وشدَّ جسدَهُ وجرَّ عقبيه قليلاً وقال : نعم ، سيدي . لقدْ وصلتْنا رسالتُك هذا اليوم ليس إلاّ .

قال الجدُّ : يجبْ أن تكونَ الرسالةُ هنا بالأمسِ . بالتأكيدِ يجبُ أن تكونَ . كيفَ حالُ الجميع؟

فأجابَه جودي : إنَّهم بخيرٍ ، يا سيدي . تردَّد جودي ثمَّ اقترحَ على جدِّه بخجلٍ قائلاً : هل ترغبُ في أنْ تأتيَ معي غداً لصيدِ الفأرِ ، يا سيدي؟

ضحكَ الجدُّ ضحكةً خفيفةً وقال : صيدُ الفأرِ ، يا جودي؟ هل الناسُ في هذا الجيلِ يذهبونَ لصيدِ الفئرانِ؟ الناسُ في هذا

الجيلِ الجديدِ ليسوا أقوياءَ جداً ، ولكنني لا أكادُ أفكرُ في أنَّ الفئرانَ قد تكونُ لعبةً بالنسبةِ لهم .

قال جودي : لا ، يا سيدي . إنَّها مجردُ لَعِب . لقد ذهبتُ إلى كومة القشِ . وأنا سأقوم بطردِ الفئرانِ للكلابِ . ويمكنكَ مشاهدةُ ذلك ، أو حتى يمكنُك أن تضربَ على القشِ قليلاً .

تحولتْ تلك العيونُ المرحةُ إلى جودي وقال الجدُّ : أَفْهَمُك . إذاً أنت لا تأكلِ الفئرانَ . أنت لم تصلْ بعدُ إلى هذا الحد .

أوضحَ جودي الأمرَ قائلاً : الكلابُ تأكلهنَ ، يا سيدي . وأعتقدُ أنَّ الأمرَ لنْ يكونَ كبيراً مثلَ صيدِ الهنودِ الحمرِ .

قال الجدُّ : لا ، ليسَ كثيراً ، ولكنْ في وقتٍ لاحقٍ بعد ذلكَ ، عندما كانتْ القواتُ العسكريةُ تصطادُ الهنودَ الحمرَ وتطلقُ النارَ على الأطفالِ وتحرقُ خيامَ الهنودِ الحمرِ المخروطيةِ ، فإنَّ هذا لا يختلفُ كثيراً عما تقومُ به منْ صيدِ الفأرِ .

تجاوزوا الصعودَ وبدأوا بالانحدارِ إلى الأسفلِ إلى صحنِ المزرعةِ ، وقدْ توارتْ الشمسُ عمَّا تحتَ المناكبِ ، فقال الجدُّ لجودي : أودُّ أن أقولَ إنك قد نَمَوْتَ ما يقربَ من بوصة .

قال جودي متباهياً : أكثر . لقدْ وضعوا علامةً لطولي على البابِ ، وقد زادَ طولي أكثرَ من بوصةٍ حتى منذُ عيدِ الشكرِ .

قال الجدُّ بصوتٍ عميقٍ يخرجُ من حلقهِ : ربَّما أنكَ تشربُ الكثيرَ من الماءِ الذي يتحولُ إلى مخٍ للعظمِ وما يقوي بُنْيَتك . انتظرْ حتى تبدأَ بالقيامِ بما تريدُ وما تمليهِ الأوضاعُ والظروفُ المحيطةُ ، ثم نقررُ .

نظرَ جودي بسرعة إلى وجهِ الرجلِ الكبيرِ في السنِ لمعرفةِ ما إذا كانتْ مشاعرهُ قد أُوذيتْ ، مع أنَّه لم تكنْ هناكَ أيةُ نيةٍ لجرحِ مشاعرِهِ ، أو معاملتِهِ معاملةً سيئةً ، ولا حتى أنْ يضعَ نفسَه مكانَه فينظرُ من خلال عينيه الزرقاوين الحادتين . اقترح جودي على جده قائلاً : ربما نقتل خنزيراً .

فرد عليه جدُّهُ قائلاً : أوه ، لا! أنا لا يمكنُ أنْ أسمحَ لكَ أنْ تفعلَ ذلك . أنتَ فقطْ تمازحني ، ولكنَّ هذا ليس الوقتَ المناسبَ ، وأنتَ تعرفُ هذا .

قال جودي : أنت تعرفُ رايلي ، الخنزيرَ الكبيرَ ، يا سيدي؟

أجابَه جدُّه : نعم . أتذكر رايلي بشكلٍ جيد .

قال جودي : حسناً ، أَكَلَ رايلي من كومةِ القشِ التي كانتْ على شكلِ حُزَم وأحدثَ فيها فجوةً ، فسقطتْ هي نفسُها عليه فاختنقَ ونَفَقَ .

قال الجدُّ معلقاً : الخنازيرُ تقومُ بذلكَ عندما تستطيعُ .

قال جودي : كان رايلي خنزيراً لطيفاً ، كخنزيرٍ ذكرٍ ، يا سيدي ، كنتُ في بعضِ الأحيانِ أركبهُ ولا يمانعُ .

أحدُ الأبوابِ أُغلقَ بشدةٍ في المنزلِ الذي يقعُ أسفلَ منهما ، وشاهدا أمَّ جودي تقفُ على الشرفةِ وهي تلوِّحُ بمئزرها كعلامةِ ترحيبٍ بأبيها . وشاهدا كارل تفلن وهو يمشي خارجاً من الحظيرةِ نحو المنزلِ ليكونَ هناكَ قبلَ وصولِ والدِ زوجته .

اختفتِ الشمسُ عن التلالِ الآن . والدخانُ الأزرقُ المتصاعدُ

من المدخنةِ مُعلَّقٌ على شكلِ طبقاتٍ مسطَّحةٍ في صحنِ المزرعةِ الأرجوانيِّ . والغيومُ الصغيرةُ التي على شكلِ نفثاتٍ كرويةٍ توقفتْ عن الحركةِ بسببِ خمودِ الرياحِ فبقيتْ معلقةً في السماءِ .

خرج بِلِي بَكْ من منزلِ العمالِ الموجودِ في المزرعةِ ، وقذفَ من وعاءٍ الماءَ والصابونَ المنحلَّ فيه على الأرضِ . وكانَ بِلِي قد حَلَقَ في منتصفِ الأسبوعِ ، وهو يحملُ الاحترامَ والتبجيلَ للجدِّ ، وبدورِه قالَ الجدُّ بأنَّ بلِي هو مِنَ الرجالِ القلائلِ من الجيلِ الجديدِ الذين لَمْ يُصبحوا ضعفاءَ ناعمين . على الرغمِ من أنَّ بلي كانَ في منتصفِ العمرِ ، إلا أنَّ الجدَّ ينظرُ إليه باعتبارِه ولداً . والآن أسرعَ بِلِي نحوَ المنزلِ أيضاً .

عندما وصلَ جودي وجدُّه كانَ الثلاثةُ في انتظارِهما أمامَ بوابةِ فناءِ المنزلِ .

قال كارلُ : مرحباً بك يا سيدي . كنّا نتوقعُ مجيئَكَ وننتظرَهُ .

قبَّلتْ السيدةُ تفلن جانبَ لحيةِ الجدّ ، ووقفتْ بلا حراكٍ ، بينما رَبَّتَ هو بيدِه الكبيرةِ على كتفِها . صافحَ بِلِي الجدّ بطريقةٍ تدلُّ على تبجيلِه إيّاه ، والجدّ يبتسمُ وابتسامتُه باديةٌ تحتَ شاربِهِ الأصفرَ ، وقال بِلِي : سآخذُ الحصانَ لإراحتِه وتقديمِ الطعامِ والمبيتِ له . وقامَ باقتيادِ الجوادِ ومعهُ العربةُ التي يجرُّها بعيداً .

راقبَ الجدّ بِلي وهو يذهبُ ، وبعدَ ذلك تحوَّلَ الى المجموعةِ التي معه وقالَ ، كما قال مئة مرة من قبل : إنه ولدٌ جيدٌ . كنتُ أعرفُ والدَه العجوزَ ذيل البغل بَكْ . لا أعرف لماذا دعاه الناس ذيل

البغل مع أنَّه لم يكنْ يقومُ سوى بتحميلِ وتحزيم البغالِ .

حولّتْ السيدةُ تفلن وجهتَها وقادتْ والدَها في الطريقِ الى المنزلِ وسألَتْه : إلى متى ستبقى هنا يا أبي؟ فإنَّ رسالتَكم لم تذكرْ ذلك .

فأجابَها والدُها : لا أعرفُ . أعتقدُ أنَّني سأظلُّ أسبوعين تقريباً . ولكنني لنْ أمكثَ إذا ما اعتقدتُ أنَّ عَليَّ المغادرةَ .

خلالَ فترةٍ قصيرةٍ ، كانوا يجلسونَ على الطاولةِ المغطاةِ بالمُشمَّع الأبيضِ لتناولِ عشائهم . والمصباحُ ذو العاكسِ القصديريِّ مُعلقٌ فوقَ الطاولةِ . وخارجَ غرفةِ الطعامِ ، كانت فراشاتٌ كبيرةٌ تضربُ بلطف زجاجَ النوافذِ .

قطَّعَ الجدُّ شريحةَ اللحمِ إلى قطع صغيرةٍ جداً وأخذَ يمضُغُها ببطءٍ وقال : أنا جائعٌ ، فإنَّ رحلتي إلَى هنا رفعتْ من شهيتي ، كما كانت ترتفعُ شهيتُنا عندما كنَّا نعبرُ السهولَ . وكنَّا جميعاً نشعرُ بالجوعِ الشديدِ في كلِّ ليلةٍ ، ونادراً ما كنا ننتظرُ حتَّى ينضجَ اللحمُ . ويمكنني أكلُ خمسةِ أرطالٍ إنجليزيةٍ من لحمِ الجاموسِ في كلِّ ليلةٍ .

قال بِلِي : إن التحرُّكَ من مكانٍ إلى آخرَ هو الذي يَفعلُ ذلك . كان والدي موظفاً كعتَّالٍ عندَ الحكومةِ . وكنتُ أساعدُه عندما كنتُ طفلاً . وكنا نحنُ الاثنان يمكننا أن نأكلَ تقريباً فخذَ غزالٍ كاملاً .

قالَ الجدُّ : لقد كنتُ أعرفُ والدَكَ يا بِلِي . إنهُ رجلٌ ممتازٌ ،

ودعاهُ الناسُ باسم ذيلِ البغلِ بَكْ ، ولا أدري لماذا ، سِوَى أنَّهُ كانَ يقومُ بتحميلِ وتحزيمِ البغالِ .

وافقَ بلي الجدَّ قائلاً : هذا ما كانَ وهذهِ هي القصةُ ، إنه كانَ يُحمِّلُ على البغالِ ويحزِّمُها .

وضعَ الجدُّ السكينَ والشوكةَ ونظرَ إلى المجتمعين حولَ الطاولةِ وقالَ : أتَذكَّرُ أنَّه في مرةٍ من المراتِ نفد من عندِنا اللحمُ . انخفضَ صوتُ الجدِّ إلى درجةٍ منخفضةٍ غيرِ طبيعيةٍ ؛ انخفضَ إلى نغمةٍ رتيبةٍ والتي تشبهُ رتابةَ حكايةِ تلك القصةِ الممجوجةِ التي أكلَ عليها الدهرَ وشربَ وقالَ : لمْ يكنْ هناكَ جواميسُ ، ولا ظباءُ ، ولا حتى أرانبُ . الصيادونَ لم يتمكنوا من أن يصطادوا حتى قيُّوطاً(١١) . وكان هذا هو الوقتُ الذي على القائدِ أن يكونَ فيه في حالةِ يقظةٍ تامةٍ لاحتمالِ وقوعِ خطرٍ ما . كنتُ أنا القائدُ ، وأبقيتُ عينيَّ مفتوحتين ، هل تعلمونَ لماذا؟ حسناً ، في الوقتِ الذي بدأ الناسُ يجوعونَ ، بدأوا بذبْحِ قطيعِ الثيرانِ . هل تصدقونَ ذلك؟ لقدْ سمعتُ عن جماعاتٍ قدْ أكلتْ ماشيتَها من الجواميسِ مبتدئين بعَمَلِيَةِ الأكلِ من الجواميسِ المتوسطةِ فما دونَ حتى نهايةِ القطيعِ . وفي نهايةِ المطافِ أكلوا زوجَ الثيرانِ القائدين ، واللذين يجرّانِ العربةَ وبعدَها الثيرانَ الاحتياطيةَ للجرِّ ، والتي تُربطُ بجانبِ عجلةِ

---

(١١) القيوط ذئبٌ صغيرُ الحجمِ يعيشُ في شمالِ أمريكا .

العربةِ خلفَ الثورينِ اللذينِ يجرانِ العربةَ . وعلى قائدِ الجماعةِ ألاّ يتركَهم يفعلونَ ذلك .

بطريقةٍ ما ، دخلتْ فراشةٌ كبيرةٌ إلى داخلِ الغرفةِ وبدأتْ تحومُ فوقَ القنديلِ المضاءِ بالكازِ . نهضَ بِلِي وحاولَ قتْلَها بالتصفيقِ عليها بين يديهِ فلمْ يستطعْ ، فضربَها كارل براحتي يديهِ المقعرتين وأمسكَ بها وسحقَها ، ثم مشى نحوَ النافذةِ ورمى بها إلى الخارجِ .

وابتدأ الجدُّ مرةً أخرى قائلاً : وكما كنتُ أقولُ . ولكنَّ كارل قاطعَهُ قائلاً : الأفضلُ أن تتناولَ المزيدَ من بعضِ اللحومِ ، فكلُّنا جاهزون لتناولِ الحلوى(١٢) .

رأى جودي ومضةً من الغضبِ في عينيِّ والدته . حملَ الجدُّ السكينَ والشوكةَ وقالَ : حقاً ، أنا جائعٌ جداً . سأحدِّثُكم عن ذلكَ لاحقاً .

عندما انتهى العَشاءُ ، وجلستْ الأسرةُ وبِلِي بَكْ أمامَ المُستوقَدِ في الغرفةِ الأخرى ، راقبَ جودي الجدَّ بلهفةٍ . رأى جودي في جدِّهِ العلاماتِ التي يعرفُها : انحنى رأسهُ الملتحي إلى الأمامِ ؛ فقدتْ عيناهُ صرامَتَهما وتفحَّصتا بدهشةٍ النارَ ؛ أصابعُهُ الكبيرةُ والمتشابكةُ والمشدودةُ على الركبتينِ السوداوين . بدأَ الجدُّ بالقولِ : أتساءلُ ، فقطْ أنا أتساءلُ ما إذا كنتُ قد أخبرتُكم فيما مضى

---

(١٢) وقد ذكرَ كارل اسمَ هذِه الحلوى بالبُودِنْج وهي تُعَدُّ من الدقيقِ أو الأرزِ واللبنِ والبيضِ والفاكهةِ والسكرِ. برأيي لو ترك (البودينغ) كما الأصل وذكر معناها في الحاشية لكان أولى

كيفَ قادَ أولئكَ اللصوصُ من هنودِ البيوتسِ خمسةً وثلاثينَ من خيولنِا وأخذوها .

قاطعه كارل قائلاً : أعتقد أنك فعلت ذلك . ألم يكن ذلك بالضبط قبل أن تذهب إلى بلاد تاهو؟

تحوّلَ الجدُّ بسرعةٍ نحوَ صهرِه كارل وقالَ : هذا صحيحٌ . أعتقدُ أنَّه من الضروري أن أكونَ قد حدَّثْتُكم بتلكَ القصةِ .

قال كارلُ بقسوةٍ معلقاً على كلامِ الجدِّ : العديدُ منَ المراتِ . وتجنبَ كارل النظرَ إلى عينيِّ زوجتِه ، لأنَّه شعرَ بوجودِ الغضبِ فيهِما عليه ، فقالَ : بالطبع ، أودُّ أن أسمعَها مرةً أخرى .

رجعَ الجدُّ ونظرَ إلى النارِ بعد أنْ كانَ قدْ صرفَ نظرَهُ عنها . وكان يشبّكُ بين أصابعِهِ ثم يبعدُها عن بعضٍ . عرفَ جودي كيفَ يشعرُ هذا الجدُّ ، وكيفَ أنَّ دواخِلَه قد انهارتْ وأصبحتْ فارغةً . ألم يُدعَ جودي ويُلقبْ بالفارسِ بعدَ ظهرِ ذلكَ اليوم[١٣] بالتحديدِ؟ لقدْ قبلَ جودي التحدِّيَ مرةً أخرى ليُظْهرَ شجاعتَه ويكونَ على مستوى اللقبِ ، الفارسُ جودي ، فقالَ بلطفٍ لجدِّهِ : أخبرْنا عن الهنودِ .

رَجعتْ ، مرةً أخرى إلى عينيِّ الجدِّ ، الصرامةُ وازدادتْ فيهِما وقالَ : الأولادُ يرغبونَ دائماً أن يسمعوا عن الهنودِ ، مع أنَّ سماعَ هذهِ القصصِ خاص بالرجالِ ، ولكنَّ الأولادَ يحبونَ أن يسمعوا

(١٣) أي اليومَ الذي وصلَ فيه جدُّ جودي لزيارتِهم .

عن ذلك . حسناً ، دعونا نرى . هل حدثْتُكم فيما مضى كيفَ كنتُ أريدُ أنْ تحملَ كلُّ عربةٍ صفيحةً طويلةً من الحديدِ؟

بقي الجميعُ صامتاً باستثناءِ جودي الذي قال لجدِّه : لا ، لمْ تفعلْ ذلك .

قال الجدُّ : حسناً ، عندما كان الهنودُ يهاجمونَ ، كنا نضعُ العرباتِ على شكلِ دائرةٍ ونقاتلُ من بينِ العجلاتِ . اعتقدتُ أنَّه إذا قامتْ كلُّ عربةٍ بحملِ لوحةٍ طويلةٍ بها ثقبٌ للبندقيةِ ، ويمكنُ للرجالِ نصبُ تلكَ اللوحاتِ خارجَ العجلاتِ ، وعندما توضعُ العرباتُ على شكلِ دائرةٍ ، فإنَّ الرجالَ سيكونونَ محميين . وهذا سيؤدي إلى إنقاذِ الأرواحِ والذي من شأنه أنْ يُعوِّضَ عن الوزنِ الزائدِ من الحديدِ الذي تحمِلُه العرباتُ . ولكنْ ، بالتأكيدِ ، لمْ تقمْ الجماعةُ بفعلِ ذلكَ . ولمْ تقمْ أيةُ جماعةٍ بفعلِ ذلكَ من قبلُ ، وذلكَ لأنَّهم كانوا لا يرونَ سبباً لهذا الإنفاقِ وصرفِ الأموالِ على الألواحِ المعدنيةِ ، وهم أيضاً بَقُوا على ما هم عليه .

نظرَ جودي إلى والدتِه ، وعرفَ مما على وجهِها من التعبيرِ بأنَّها لا تستمعُ لحديثِ الجدِّ على الإطلاقِ . تَلهَّى كارلُ بقطعةٍ من القماشِ وضعَها على إبهامِه ، وأما بِلِي بَكْ فقدْ راقبَ عنكبوتاً يَدُبُّ ببطءٍ على الجدارِ .

انخفضتْ نبرةُ الجدِّ في السردِ الرتيبِ للقصةِ من جديد . وكانَ جودي يعرفُ مسبقاً وبالضبطِ ما هي الكلماتُ التي ستسقطُ من القصةِ التي يرويها جدُّه . حكى الجدُّ القصةَ بطريقةٍ سرديةٍ

روتينيـة ، وأسرعَ في السردِ لحكايةِ الهجومِ ، وصارتْ نغمتُه أكثرَ حزناً عندَ حديثِه عن الجروحِ ، وبعد ذلك صارَ سردُه كعزفِ ترنيمةٍ جنائزيةٍ عندما ذكرَ دفنَ القتلى والسهولَ العظيمةَ . كانَ جودي يجلسُ بهدوءٍ ويراقبُ الجدَّ . فعيناه الزرقاوان الصارمتانِ تبدوانِ وكأنهما منفصلتان عمَّا يقصُّه . فهو يبدو كما لو أنَّه غيرُ مهتمٍ ، وإلى أبعدِ درجاتِ عدمِ الاهتمامِ ، في القصةِ التي يسردُها هو بنفسِه .

عندما تمَّ الانتهاءُ من سردِ القصةِ ، وعندما تمَّ احترامُ توقُّفِهِ ، وبلطفٍ ، عن السردِ ، وكانَ توقُّفه علامةً لانتهائِه من القصةِ ، وقفَ بِلي بَكْ ورفعَ بنطالَه وشدَّه وربطَه وقال : سأذهبُ للنومِ . ثمَ أدارَ وجههَ نحوَ الجدِّ وقالَ : عندي قرنٌ أضعُ فيه مسحوقَ البارودِ ، وقبعةٌ للصيدِ ، ومسدسُ كرةٍ(١٤) موجودةٌ في منزلِ المزرعةِ . هل أَرَيْتَكَ هذه الأشياءَ فيما مضى؟

حرَّكَ الجدّ رأسَه بالخفضِ والرفعِ ببطءٍ وقالَ : نعمْ ، أعتقدْ أنكَ فعلتَ ذلكَ يا بِلي . إنَّ هذا يُذكِّرُني بمسدسٍ كنتُ أمْتلكَه عندما كنتُ أقودُ الناسَ عبرَ السهولِ . وقفَ بلي بأدبٍ حتى أُتمتْ القصةُ القصيرةُ ، وبعدها قال : تصبحونَ على خيرٍ . وخرجَ منَ المنزلِ .

---

(١٤) سماهُ مسدس كرةٍ لأنَّ هذا المسدسَ يُطلقُ الرصاصَ الذي على شكلِ كراتٍ ، فقد كانَ الرصاصُ الذي يُستعملُ في القرن التاسعِ عشرَ هو على شكلِ كراتٍ .

حاولَ كارلُ تفلن أنْ يُغيّرَ مجرى الحديثِ الذي كانَ دائراً، فسألَ الجدَّ: كيفَ حالُ البلادِ ما بين هذهِ المنطقةِ هنا ومونتري؟ لقد سمعتُ أنَّها أصيبتْ بجفاف شديد.

فأجابَه الجدُّ: إنَّها جافةٌ. ليس هناكَ من قطرةِ ماءٍ في لاجونا سيكا[١٥]. ولكنَّها رحلةٌ شاقةٌ منذ سبع وثمانينَ [أي منذ سنة ١٨٨٧]. ففي جميع أنحاءِ البلدِ، صارَ الترابُ مسحوقاً ويُذرى ذرواً من الجفافِ، وأعتقدُ أنَّه في سنةِ إحدى وستينَ فإنَّ جميعَ الذئابِ من فصيلةِ القيّوطِ قد نفقتْ من الجوعِ. أمَّا هذا العامُ فقدْ سقطَ خمسَ عشرةَ بوصةً من الأمطارِ.

قال كارلُ: نعم، ولكنْ كلُّ هذهِ الأمطارُ جاءتْ في وقتٍ مبكرٍ جداً، ونحنُ بحاجةٍ إليها الآن. وقعتْ عينا كارل على جودي فقالَ له: أليسَ من الأفضلِ أن تذهبَ للسريرِ؟

وقفَ جودي ممتثلاً لتوجيهِ والدهِ وقالَ: ألا أستطيعُ أن أقتلَ الفئرانَ في كومةِ القشِ القديمِ، يا سيدي؟

فأجابَه والدهُ: الفئران؟ أوه! بالتأكيد، أقتلْها كلَّها عن بكرةِ أبيها، ولكنَّ بِلِي قالَ إنه لمْ يبقَ هناكَ شيءٌ منَ القشِ الجيدِ.

تبادلَ جودي مع جدِّهِ نظرةً سرِّيةً ودالةً على الرضا، وقطعَ على نفسهِ وعداً أمامَ والدِه قائلاً: سأقتلُ كلَّ واحدٍ منها غداً.

رقدَ جودي في سريرِه وهو يفكرُ في ذاكَ العالمِ المتعَذرِ وجودُه

---

(١٥) لاجونا سيكا هي بحيرة موسمية.

من الهنودِ والجواميس ؛ إنه عالمٌ قدْ توقفَ عن الوجودِ وإلى الأبدِ . تمنى جودي لو أنَّه عاشَ في تلك الحقبةِ الحافلةِ بالبطولاتِ ، ولكنَّه يعلمُ أنه ليسَ مؤهلاً بطبيعته للبطولةِ . لا يوجدُ أحدٌ على قيدِ الحياة الآن ، ربما باستثناء بِلِي بَكْ ، مؤهلٌ وعلى مستوىً أنْ يفعلَ الأشياءَ التي كانتْ تُفعلُ في السابقِ في حقبةِ البطولاتِ . كانتْ تعيشُ في تلكَ الحقبةِ سلالةٌ من العمالقةِ ، ورجالٌ لا يعرفونَ الخوفَ ، ورجالٌ أصحابُ عزيمةٍ ومتانةٍ غيرِ معروفةٍ في هذا الزمنِ . أخذَ جودي يفكّرُ بتلكَ السهولِ الواسعةِ وبالعرباتِ التي تتحركُ عبرَها كأم أربع وأربعينَ . وتصوَّرَ جدَّه على حصانٍ أبيضَ ضخمٍ وهو يرتبُ النَاسً . وعبرتْ في ذهنِه صورةُ الأشباحِ الضخمةِ وهي تسيرُ مغادرةً الأرضَ ثم تختفي .

عاد جودي بفكرِه إلى مزرعةِ المواشي للحظة ، وبعدَ ذلكَ سمعَ الأصواتَ المندفعةَ والغامضةَ والتي تحدثُ فجأةً ويصنعُها المكانُ وهدوؤه . سَمِعَ صوتَ أحدِ الكلابِ خارجَ وجارِه يحكُّ برغوثاً ويضربُ بكوعِ رجلِه أرضَ المكانِ معَ كلِّ حكّةٍ يحكُّها . هبّت الريحُ مرةً أخرى ، وخرجَ صريرٌ من شجرةِ السروِ السوداءِ . وعلى وقعِ هذهِ الأصواتِ نامَ جودي .

نهضَ جودي من فراشِه قبلَ نصفِ ساعةٍ من موعدِ الضربِ على المثلثِ[١٦] للإعلانِ للساكنينَ في المنزلِ بالمجيءِ والتجمّعِ

(١٦) المثلث آلة من آلات النقرِ الموسيقيةِ قوامُها قضيبٌ من فولاذٍ على شكلِ مثلث .

لتناولِ طعامِ الفطورِ. عندما مرَّ جودي من المطبخ، كانتْ والدةُ جودي تحركُ وتثيرُ النارَ في الموقدِ لجعلِ لهبِ النارِ يشتدُّ ويزدادُ فقالتْ له: لقدْ استيقظتَ في وقتٍ مبكرٍ. إلى أينَ أنتَ ذاهبٌ؟

فردَّ جودي قائلاً: أنا خارجٌ للحصولِ على عصاً جيدةٌ. فنحنُ سنذهبُ هذا اليوم لقتلِ الفئرانِ.

فاستفسرتْ والدةُ جودي: منْ همْ «نحن»؟

فردَّ جودي: لماذا؟ الجدُّ وأنا.

قالت الوالدةُ لجودي: إذاً لقدْ أدخلتَه في هذهِ الدائرةِ. أنتَ دائماً ترغبُ في أنْ يكونَ معكَ شخصٌ ما كشريكٍ لك في حالِ ما إذا كانَ هناكَ من ملامةٍ قد تلحَقُ بك.

قال جودي: سأعودُ بسرعةٍ. أريدُ أنْ يكونَ لديَّ عصاً جيدةً لأستعملَها بعد تناولِ الفطورِ.

أغلق جودي بابَ المُنخلِ من ورائِه، وخرجَ من المنزلِ ودخلَ في جوٍّ الصباحِ الباردِ والسماءِ الزرقاءِ. كانتْ الطيورُ صاخبةً في الفجرِ، وقططُ المزرعةِ تنزلُ من التلِّ كالأفاعي الكسولةِ والبليدةِ لامتلائِها بالطعامِ. كانتْ القططُ تصطادُ السنجابَ الأمريكيَّ في ظلمةِ الليلِ، وبالرغم منْ أنَّ هذهِ القططَ الأربعَ كانتْ ممتلئةً بلحومِ السنجابِ، إلا أنَّها جلستْ على شكلِ نصفِ دائرةٍ عندَ البابِ الخلفيِّ وبدأتْ بمواءٍ يستدرُّ الشفقةَ للحصولِ على الحليبِ.

كان الكلبُ المهجَّنُ مِن سلالتين والكلب المسمَّى بالمُحطِّمِ يتحركانِ ويشتمَّانِ على طولِ حافةِ الأجمةِ. إنَّهما يقومانِ

بواجبِهما ومتمسكانِ بصرامةٍ بقواعدِ عملِهما ، ولكنْ عندما صفَّرَ جودي ، رفَعا رأسيهما بحركةٍ سريعةٍ ومفاجئةٍ ولوَّحا بذيليْهما . اندفعا بسرعةٍ بالغةٍ إلى الأسفلِ وكلٌّ منهما يلوّي بجلدِه ويفغرُ فاهُ . عندما وصلَ الكلبانِ إلى جودي ربَّتَ على رأسيْهما بطريقةٍ تدلُّ على صرامةٍ وجدّيةٍ ، وتحرَّكَ نحوَ بقايا كومةِ القشِ التي بليتْ وذلك بسببِ تعرُّضِها الدائمِ للهواءِ وتقلباتِ الطقسِ . اختارَ جودي عصا مكنسةٍ قديمةٍ وقطعةً صغيرةً من بقايا الخشبِ مساحتُها بوصةٌ مربعةٌ . أخرجَ من جيبِه رباطَ حذاءٍ ، وربطَ به سلاحَهُ الجديدَ ، وهو قطعةُ الخشبِ المربعةُ والمربوطةُ على طرفِ عصا المكنسةِ ، وقام بعمليةِ الربطِ دونَ وضعِ هذه القِطَعِ على الأرضِ ، بل بقيَ يحملُها في الهواءِ ، ثم ضربَ الأرضَ بها لتجربتِها ، في حين كانَ الكلبانِ يقفزانِ جانباً وينبحانِ بصوتٍ كالولولةِ طويلٍ وعالي النبرةِ يَشِي بإدراكِهما لما يريدُه جودي .

استدارَ جودي وبدأَ بالسيرِ ماراً بالمنزلِ ذاهباً إلى الأرضِ التي عليها كومةِ القشِ القديمةِ ليلقيَ نظرةً على ساحةِ المجزرةِ ، ولكنَّ بِلِي بَكْ ، والذي كانَ يجلسُ على الدرجِ الخلفيِّ للمنزلِ منتظراً بصبرٍ طعامَ الفطورِ ، دعا جودي قائلاً : الأفضلُ لك أنْ ترجعَ ، فلمْ يبقَ إلّا دقيقتان فقط لموعدِ تناولِ الفطورِ .

غيَّرَ جودي مسارَهُ واتَّجهَ نحو المنزلِ . أسندَ المِدْرَسَ اليدويَّ للحنطَةِ والحبوبِ والذي يحملُه بيدِه على الدَرجاتِ وقالَ وهو يشيرُ إلى المِدرسِ : سأستخدمُ هذا لدفعِ الفئرانِ للخروجِ . أراهنُ على

أنهنَّ سمينات. أراهنُ أنهنَّ لا يعرفنَ ما الذي سيحدثُ لهنَّ اليوم.

قال بِلِي معلقاً بطريقة فلسفية على كلام جودي: لا، ولا حتى أنت، ولا حتى أنا، ولا حتى أيُّ شخصٍ آخر.

ذُهل جودي تحتَ تأثيرِ هذهِ الفكرةِ التي أبداها بِلِي، لأنَّه يعرفُ أنها صحيحةٌ. انتُزِعَ خيالُه بعيداً عن اصطيادِ الفئرانِ. ثم خرجتْ والدتُه إلى الشرفةِ الخلفيةِ وضربتْ المثلثَ، فانهارتْ كلُّ أفكارِه ككومةٍ.

عندما جلسَ الجميعُ على طاولةِ الفطورِ لم يظهرِ الجدُّ، فأومأَ بِلِي بهزِّ رأسهِ باتجاهِ الكرسيِّ الفارغِ وقالَ: هل هو بخيرٍ؟ إنَّه ليس بمريض؟

فأجابتْه السيدةُ تفلن: إنه يستغرقُ وقتاً طويلاً ليرتديَ ملابسَه. إنه يُمشِّطُ شعرَ لحيتِه، ويمسحُ حذاءَه ويُنظِّفُ ملابسَهُ بالفرشاةِ.

نثرَ كارل السكرَ على وجهِ عصيدتهِ(١٧) وقالَ وهو يغمزُ طرفَ والدِ زوجتِه: الرجلُ الذي يقودُ قافلةً من العرباتِ عبر السهولِ عليه أن يكونَ منتبهاً تماماً لكيفةِ ارتداءِ ملابسهِ.

أدارتْ السيدة تفلن نفسَها اتجاهَ زوجِها وقالت: لا تفعلْ

---

(١٧) العصيدةُ هي دقيقُ الذرةِ المغليُّ في الماءِ.

ذلك ، كارل! الرجاء ، لا تفعلْ! وكانَ في نبرتِها تهديدٌ أكثرُ مما هو التماسُ . وهذا التهديدُ أثارَ حفيظةَ كارل .

قال تفلن : حسناً ، كم مرةٍ لا بدَّ لي من الاستماعِ إلى قصةِ اللوحاتِ الحديديةِ ، وقصةِ الخمسةِ والثلاثينَ حصاناً؟ ذاك عصرٌ انتهى . لماذا لا يستطيعُ نسيانَه؟ هل تلكَ الأمورُ تحدثُ الآن؟ ازدادَ تفلن غضباً وهو يتحدثُ ، وارتفعَ صوتُه قائلاً : لماذا عليه أن يسردَ تلك القصصِ مراراً وتكراراً؟ إنهُ جاءَ عبرَ السهولِ . حسناً! والآنَ انتهى ذاكَ الأمر . لا يرغبُ أحدٌ في أن يسمعَ عن ذاكَ العبورِ مرةً تلوَ مرةٍ .

أُغلقَ البابُ الذي يؤدي إلى المطبخ بهدوءٍ . جلسَ الأربعةُ على الطاولةِ متجمدين . وضعَ كارل الملعقةَ التي يتناولُ فيها العصيدةَ على الطاولةِ ولمسَ ذقنَه بأصابعِه .

ثم فُتحَ بابُ المطبخِ ودخلَ الجدُّ . ابتسمَ وهو يغلقُ فمهُ بإحكام ، وعيناهُ نصفُ مغمضتين وقال : صباحُ الخيرِ . وجلسَ ونظرَ إلى طبقِهِ من العصيدةِ .

لم يستطعْ كارل أن يتركَ الأمرَ على ما هو عليه ، فسألَ موجهاً كلامَه للجدِّ : هل ، هل سمعتَ ما قلتُ؟

فأجابَه الجدُّ بهزةٍ سريعةٍ وصغيرةٍ من رأسِه ليدُلَّ على سماعِه لما قالَه .

فقالَ كارل : أنا لا أدري ما الذي حصلَ معي ، يا سيدي . أنا لمْ أقصدْ ذلك . أنا أريدُ الفكاهةَ والتسليةَ ليس إلاّ .

ألقى جودي نظرةً سريعةً ممزوجةً بالخجلِ على والدته من تفوهاتِ والدِه ، ورأى أنَّها تنظرُ إلى كارل وقد حبستْ أنفاسَها . إن ما قامَ به كارل هو أمرٌ شنيعٌ . لقد جلبَ كارل على نفسه النقدَ اللاذعَ بسببِ تفوهاته بتلكَ الطريقة . إنَّه لأمرٌ فظيعٌ لكارل أن يسحبَ كلمةً واحدةً مما تفوَّه به ، ولكنْ ، أنْ يتراجعَ بطريقةٍ مهينةٍ عما قالَه لهوَ بالتأكيدِ أسوأُ .

نظرَ الجدُّ هنا وهناكَ ولمْ ينظرْ مباشرةً إلى كارل وقالَ بلطف : أحاولُ أن أضعَ الأمورَ في نصابِها . أنا لست مجنوناً . أنا لا أهتمُّ كثيراً بما قلتَه ، ولكنْ قدْ يكونُ ذلكَ صحيحاً ، وهذا أهتمُّ به .

قال كارل : إنَّ ما قلتُه أنا ليس صحيحاً . أنا لستُ على ما يرام في هذا الصباحِ . أنا آسفٌ لما قلتُه .

قال الجدّ : لا تأسفْ ، يا كارل . الرجلُ الكبيرُ في السنِّ قد لا يرى الأشياءَ في بعضِ الأحيانِ . ربما كنتَ على حق فيما قلتَه . إن عبورَ السهولِ قد انتهى . ينبغي ربما أن تُنسى ، والآنَ يتمُّ ذلك .

نهض كارل من على طاولة الفطورِ وقالَ : لقد تناولتُ ما يكفي من الطعامِ . أنا ذاهبٌ للعملِ . خذْ وقتكَ ولا تعجلْ يا بِلِي . وسارَ كارل بسرعةٍ وهو يخرجُ من غرفةِ الطعامِ . ازدردَ بِلي بقيةَ طعامِه ولحقَ به بعدَ ذلك بقليلٍ . ولكنَّ جودي لم يستطعْ أن يتركَ كرسيَّه .

فسألَ جودي جدّه : ألنْ تُحدِّث بتاتاً بقصصٍ أخرى؟

فردَّ الجدّ : لماذا؟ بالتأكيد سأقُصُهنَّ ، ولكن عندما أكون متأكداً

أن الناس يريدون أن يسمعوهنَّ .

فقال جودي : أنا أحبُّ أن أسمعهنَّ ، يا سيدي .

قال الجد : أوه! بالطبع أنتَ تحبُّ ذلك ، ولكنكَ مازلتَ ولداً صغيراً ، وسماعُها هي من أعمالِ الرجالِ ، ولكنَّ الأولادَ الصغارَ هم فقطْ من يحبونَ سماعَ تلكَ القصصِ .

نهض جودي من مكانه وقال لجده : سأنتظرك في الخارج ، يا سيدي . لقد حصلت على عصاً جيدة لتلك الفئران .

انتظر جودي قريباً من بوابة المنزل الرئيسية حتى أطلّ الجدُّ من على الشرفة فناداه : دعنا ننزل ونقتل الفئران الآن .

فأجابَه جدُّه : أنا أُفضِّلُ فقطْ أن أجلسَ في الشمسِ ، يا جودي . إذهبْ أنتَ واقتلِ الفئرانَ .

فقال له جودي : يمكنكَ أن تستخدمَ عصايَ إذا رغبتَ في ذلك .

فأجابَه جدُّه : لا ، أنا سأجلسُ هنا ، لا غير ، لبعضِ الوقتِ .

استدارَ جودي وهو متفطِّرُ القلبِ من الحزنِ ، ومشى نحوَ كومةِ القشِّ القديمةِ . وحاول إثارةَ حماسةِ نفسِه بالتفكيرِ بوجودِ الفئرانِ السمينةِ والممتلئة . ضرب الأرضَ بمذراته . الكلبانِ اللذانِ معه كانا بجانبِه وهما يلاطفانِه ويصدرانِ النباحَ الطويلَ الذي يشبهُ الولولةَ ، ولكنه لم يتمكنْ من الاستمرارِ بما يقومُ به بسببِ ما أصابَه من الإحباطِ من جدِّه . رجعَ إلى المنزلِ ورأى الجدَّ وهو يجلسُ على الشرفةِ ، وهو يبدو صغيرَ الحجمِ ونحيلاً وأسمرَ .

فقدَ جودي الأملَ وذهبَ للجلوسِ على الدرجاتِ عندَ قدميِّ الرجلِ الكبيرِ في السنِ .

فسألَ الجدُّ جودي : أهل عُدتَ بالفعلِ؟ هل قتلتَ الفئرانَ؟

فأجابَه جودي : لا يا سيدي . سأقتلهنَّ في يوم آخرَ .

كان ذبابُ الصباحِ يطنُّ وهو يطيرُ قريباً من الأرضِ ، واندفعَ النملُ هنا وهناكَ أمامَ الدرجِ ، وانسابتْ الرائحةُ النفَّاذةُ والحادةُ للمريميةِ من على سفحِ التلِّ ، وازدادتْ سخونةً حوافُّ الشرفةِ تحت أشعةِ الشمسِ .

كانَ جودي نادراً ما يَعرفُ متى سيبدأُ الجدُّ بالحديثِ . قال الجدُّ : لنْ أمكثَ هنا ، إذا ما شعرتُ بالشيءِ نفسه الذي أشعرُ به الآن . وبدأَ الجدُّ بفحصِ يديه القويتين واللتين تَقدَّمَ بهما العمرُ ، وأضافَ قائلاً : أنا أشعرُ كما لو أنَّ ذلكَ العبورَ للسهولِ لا يستحقُّ القيامَ به . ثمَّ نظرَ بعينيْهِ وحرَّكهما إلى أعلى سفحِ التلِّ وأوقفَهُما بلا حراكٍ كالصقرِ الذي يَحطُّ على أحدِ أطرافِ حيوانٍ نافقٍ ، وتابعَ حديثَه : أنا أحكي تلك القصصِ القديمة ، ولكنَّها ليستْ هي التي أريدُ حكايتَها . ما أعرفُهُ فقط هو كيفَ أُريدُ أن يشعرَ الناسُ عندما أحدِّثُهم بها .

وتابعَ الجدُّ حديثَه : ليس المهمُّ هم الهنود ، ولا المغامراتُ ، ولا حتى الخروجُ إلى هنا . إنَّها مجموعةٌ كاملةٌ من الناسِ ، مترابطةٌ بعضُها مع بعضٍ ، وتتحركُ وكأنَّها وحشٌ كبيرٌ زاحفٌ ، وكنتُ أنا الرأسُ . إنَّه الزحفُ نحوَ الغربِ وباستمرارٍ نحوَ الغربِ . كلُّ رجلٍ

يريدُ شيئاً لنفسه ، ولكنَّ الوحشَ الكبيرَ الذي يضمُّهم جميعاً كان يريدُ فقط الغربَ . كنتُ أنا القائدُ ، ولكنْ لو لمْ أكنْ أنا هناك ، فإنَّ أحداً غيري سيكونُ قائداً . هذا الأمرُ لا بدَّ له من قائد .

وتابع حديثَه : تحتَ الشجيراتِ الصغيرةِ ، فإن الظّلالَ السوداءَ تكونُ على خلفيةِ بياضِ ضوءِ منتصفِ النهارِ . وعندما نقولُ ، الجبالُ ، في النهايةَ[18] ، فإنّنا نصيحُ جميعاً وبصوتٍ واحدٍ . ولكنْ ليستْ هذه هي القضيةُ ، والمهمُّ هو الحركةُ والزحفُ نحو الغربِ .

وتابع : لقدْ حملنا الحياةَ إلى هنا وأرسيناها بالطريقةِ نفسها التي يحملُ بها النملُ البيضَ ويضعُه ، وأنا كنت القائدُ . الغربُ كبيرٌ وعظيمٌ كالربِّ ، وإنَّ الخطواتِ البطيئةَ قد تراكمتْ مع الحركاتِ الواحدةِ تلوَ الأخرى حتى قُطعتِ القارةُ من أوّلِها إلى آخرِها وتمّ العبورُ .

وأضاف : ثم وصلنا إلى البحرِ ، وهكذا قدْ تمَّ العبورُ . توقفَ الجدُّ وفركَ عينيهِ حتى احمرّتْ حوافُهما . ثم قالَ : هذا ما ينبغي عليَّ أن أقولَه بدلاً من القصصِ .

عندما تحدث جودي ، جَفَلَ الجدُّ ونظرَ إليه ، وقال جودي : ربما أنا أكونُ قائداً للجماهيرِ في يوم من الأيام .

ابتسمَ الرجلُ الكبيرُ في السنِّ وقالَ : ليسَ هناكَ من مكانٍ للذهابِ إليه . يوجدُ هناكَ المحيطُ الذي يوقِفُكَ . هناك طابورٌ من

(١٨) النهايةُ أي بعد عبورِ السهولِ والبراري والوصولِ إلى الجبالِ .

الرجالِ الكبارِ في السنِ على طولِ الشاطئِ والذين يكرهونَ المحيطَ لأنَّه أوقفهم .

فقال جودي : أقدرُ على ذلك ، وأستطيعُه في قواربَ ، يا سيدي .

فأجابَه الجدُّ : لا يوجدُ مكانٌ للذهابِ إليه ، يا جودي . لقد أُخذَ كلُّ مكان ، ولكن ليسَ هذا هو الأسوأ ، ليس الأسوأَ . لقد ماتتْ في نفوسُ الناسِ فكرةُ الغرب . لقد قُضيَ الأمرُ ولمْ يعدْ هناكَ أيُّ محفّزٍ في النفوسِ للغربِ . والدُكَ على حقّ ، لقد انتهتْ تلك الأيامُ . وشبّكَ الجدُّ أصابعَه على ركبتِه ونظرَ إليها .

شعرَ جودي بالحزنِ وقالَ لجدِّهِ : إذا كنتَ ترغبُ بشربِ كأسٍ من عصيرِ الليمونِ المحلّى ، فإنه يمكنني أن أُحضرَه لك .

ركضَ جودي إلى داخلِ المطبخِ حيثُ كانتْ والدتُه تُنظفُ بآخرِ طبقٍ من أطباقِ الفطورِ وقالَ لها : هل أستطيعُ أن أحصلَ على الليمونِ لأصنعَ عصيرَ الليمونِ المحلّى لجدي؟

فَقَلَّدَتْ والدتُه طريقةَ كلامه قائلةً : وحبةُ ليمونٍ أُخرى لصنعِ كأسٍ من عصيرِ الليمونِ المحلّى لكَ .

فأجابَها جودي : لا ، يا أمي . لا أريدُ كأساً .

فقالت والدتُه : جودي! هل أنت مريضٌ! ثم توقفتْ فجأةً وقالتْ بلطفٍ : أخرِجْ حبةَ ليمونٍ من البرّادِ . الآنَ ومن هنا ، سأُنزلُ لكَ العصارةَ .

الحياةُ السرِّيَّةُ لولتر مِتي[(١٩)]

جيمس ثيربر

قال القائدُ بصوتٍ يشبهُ صوتَ تكسُّرِ طبقةٍ رقيقةٍ من الثلجِ : إننا نشقُّ طريقَنا! كانَ القائدُ يلبسُ زيّهُ الرسميَّ الكاملَ ، مع قبعةٍ

(١٩) على القارىءِ الكريمِ أنْ يعلمَ أنَّ كاتبَ هذهِ القصةِ قدْ استخدمَ ما يسمى بتيارِ الوعيِ التدفقي أو ما يسميهِ البعضُ المنولوج الداخلي . وإنَّ أولَ مِنْ استحدثَ هذا المصطلحَ هو وليام جيمس في كتابِه مبادئ في علم النفس سنة ١٨٩٠ ثم استخدمَه كتَّابُ القصصِ والرواياتِ ، وهو عبارةٌ عن أسلوبٍ يسعى الكاتبُ من خلالِه أنْ يسجلَ أو يعيدَ إنتاجَ وتصويرِ الأفكارِ والمشاعرِ والأحاسيسِ والذكريات والتداعيات العاطفية والفكرية وغيرها والتي تمر من خلال ذهن شخصية ما ، والتي تبدو وكأنها متدفقة بلا منطق وأنها متقطعة ، وبدون أية محاولة من الكاتب للتدخل والتفسير . ولكن مع إمعان النظر يكتشف القارئ أن هناك خيطاً يشدُّ كل ما يجري في القصة ومنطقاً يربط جميع أجزائها . في قصة الحياة السرِّية لولتر مِتي فإن هذه الشخصية تلجأ إلى أحلام اليقظة للهروب من الواقع ثم تُشدُّ مرة أخرى إلى واقعها . فمثلاً الفقرة الأولى من هذه القصة تحتوى على أول أحلام اليقظة لولتر متي عندما كان يقود سيارته حيث تخيل نفسه قائداً لطائرة مائية وهو يصدر الأوامر ويتحدث مع الآخرين ، ثم ترده زوجته التي تجلس بجانبه في السيارة =

بيضاءَ مضفَّرةٍ بشكلٍ كبيرٍ ، وقدْ أُنزلتْ القبعةُ للأمامِ بشكلٍ أنيقٍ على إحدى العينينِ ذاتِ اللونِ الرماديِّ والتي بدا عليها الإعياءُ لكثرةِ التعبِ والانتباهِ الدائمِ . فقالَ الملازمُ بيرج : إن كنتَ تسألُني ، لا نستطيعُ ذلك يا سيدي . إنَّ رياحَ الإعصارِ تفسدُ الأمرَ . فقالَ القائدُ : أنا لا أسألُكَ يا ملازمُ بيرج . سرِّعْ في القوةِ والطاقةِ . دعْ المحركاتِ تدورُ بسرعةِ ثمانيةِ آلافٍ وخمسِ مئةٍ . إننا نشقُّ طريقَنا! لقد ازدادتْ أصواتُ الجرسِ والطقطقةِ القويةِ داخلِ حجراتِ الاحتراقِ الأُسطوانيةِ في الطائرةِ . وبدأتْ تُسمعُ أصواتٌ تدلُّ على وجودِ تلفٍ ما في الآلاتِ . حدَّق القائدُ بالجليدِ المتكوِّنِ على زجاجِ قمرةِ قائدِ الطائرةِ . سارَ القائُد إلى لوحةِ أقراصٍ معقَّدةٍ وأدارَ هناكَ صفاً منها . صاح القائدُ : أدرْ رقمَ ثمانيةِ المساعدَ . ثم أعادَ الملازمُ بيرج كلماتِ القائدِ وقالَ : أدرْ رقمَ ثمانيةِ المساعدَ . صرخَ القائدُ : القوةُ القصوى في برجِ الطائرةِ رقم ٣ . أعادَ القائدُ أمره : القوة القصوى في برج الطائرة رقم ٣ . انكبَّ طاقمُ الطائرةِ على العملِ في مهامِهم المختلفةِ في الطائرةِ المائيةِ الضخمةِ والمندفعةِ بقوةِ ثمانيةِ محركاتٍ والتابعةِ لسلاحِ البحريةِ ، وقد نظرَ أفرادُ الطاقمِ بعضُهم إلى بعضٍ وابتسموا قائلينَ لبعضِهم البعضِ : إن الرجلَ الخبير سوف يجعلُنا نشقُّ طريقَنا . فقال القائد : الرجلُ

= إلى واقعه عندما تساءلت عن سرعته الزائدة . وهكذا على القارىء العزيز أن ينتبه إلى أحلام يقظة ولتر مِتي ثم إرجاعه إلى عالم الحقيقة .

الخبيرُ لا يخافُ من جهنَّم . . . .

قالت السيدةُ متي لزوجِها : ليسَ بهذِه السرعةِ! إنكَ تسوقُ بسرعة كبيرة . لماذا تسوقُ بهذِه السرعةِ؟

عبَّرَ متي عن تفاجُئِه من تساؤلاتِ زوجتِه قائلاً : هَمْ مْ؟ ونظرَ إلى زوجتِه التي تجلسُ على المقعدِ بجانبِه في السيارةِ بذهولٍ وكأنَّه مصعوقٌ . بدتْ زوجتُه له وكأنَّها غيرُ مألوفة ، وبما في هذِه الكلمةِ من معنى . بدتْ وكأنَّها امرأةٌ غريبةٌ صاحتْ عليه من بينِ جمهورٍ من الناسِ . قالتْ له زوجتُه : وصلتْ سرعتُك إلى خمسةٍ وخمسين . أنتَ تعلمْ أني لا أحبُ أن تزيدَ السرعةُ على الأربعين ، وقدْ وصلتْ سرعتُك إلى الخمسةِ والخمسين . قادَ والتر متي السيارةَ بصمتٍ نحو واتربري ، وإن هديرَ طائرة س .ن . ٢٠٢ والذي يشقُّ طريقَه داخلَ عاصفةٍ هي الأسوأ في تاريخ طيرانِ سلاحِ البحريةِ منذُ عشرين سنة ، بدأ يتلاشى رويداً رويداً وبعيداً عن ذهنِه مع تلك الخطوطِ الجويةِ التي يرتبطُ بها برباطٍ وثيق . قالت السيدة متي : لقد عادَ إليك التوتر . إن هذا اليوم هو يومٌ من أيامِ توتُّرِكَ . أرجو أن تدعَ الدكتور رينشو القيامَ بفحصِك .

أوقفَ والتر متي السيارةَ أمام المبنى الذي تقومُ زوجتُه بقصِّ شعرِها وتصفيفه فيه . قالتْ له زوجتُه : تذكَّرْ أن تشتري الجرموق[٢٠] وأنا أصفِّفُ شعري . فأجابَ متي : أنا لستُ بحاجةٍ

(٢٠) الجرموق هو الحذاءُ الذي يلبسُ فوقَ الحذاءِ .

إلى الجرموقِ. أعادتْ زوجتُه المرآةَ إلى حقيبتِها وقالتْ: لقد طرحْنا هذا الموضوعَ من قبلُ من البدايةِ إلى النهايةِ. وخرجتْ من السيارةِ وقالتْ له: أنتَ لمْ تعدْ شاباً يافعاً. زادَ متي من سرعةِ المحركِ قليلاً، فسألتْه زوجتُه: لماذا لمْ ترتَدِ قفازاتِك؟ هل فقدتَ قفازاتك؟ فأدخلَ والتر متي يدَه في أحدِ جيوبِه وأخرجَ القفازاتِ ولبسَها، ولكنْ بعد أن استدارتْ زوجتُه وذهبتْ ودخلتْ المبنى، قادَ سيارتَه ووقفَ أمامَ الإشارةِ الضوئيةِ المضيئةِ بالأحمرِ، وخلعَ القفازاتِ مرةً أخرى. فقال له الشرطيُّ بحدَّةٍ وقدْ تغيَّرَ لونُ الإشارة: سِرْ يا أخي. فما كانَ من متي إلا أن سحبَ قفازاتِه بسرعةٍ وانطلقَ بالسيارةِ وهي تتجهُ يميناً وشمالاً بشكلٍ غير متوازن. قادَ متي سيارتَه هنا وهناكَ في الشوارعِ بلا هدفٍ لبعضِ الوقتِ، ومنْ ثم مرَّ من أمامَ المستشفى وهو في طريقِه إلى موقفٍ للسياراتِ.

... قالت الممرضةُ الجميلةُ: إنه صاحبُ البنكِ، المليونير ولينجتون ماكملان. فأجابَها ولتر متي: نعم؟ وقامَ بإزالةِ قفازاتِه ببطءٍ. ثم سألَها: من الذي يشرفُ على حالتِه المرضيةِ؟ فأجابتْه: الدكتور رينشو والدكتور بينبو، ولكنْ هناكَ اثنانِ من المتخصصينَ هنا، الدكتور ريمنجتن من نيويورك والدكتور بريتشارد-متفورد من لندن، والذي طار إلى هنا. فُتح البابُ إلى ممرٍّ طويلٍ وباردٍ وخرجَ الدكتور رينشو منه، وكانَ يبدو عليه القلقُ والانزعاجُ والإنهاكُ. فقالَ: مرحباً، متي. وأضافَ: إننا نواجهُ مشكلةً صعبةً جداً مع حالةِ ماكملان، المليونير صاحبِ البنكِ والصديقِ الشخصيِّ

المقربِ من روزفلت . إنه يعاني من مرضٍ صعبٍ وأرجو منكَ أن تُلقي عليه نظرةً فتفحَصه[٢١] . فلبى متي طَلبَهُ وقال : سعيدٌ للقيامِ بذلك .

في غرفةِ العملياتِ ، سُمعتْ الهمساتُ التي تُعرِّفُ بالأطباءِ الموجودين : الدكتور ريمنجتون ، الدكتور متي . الدكتور بريتشارد-متفورد ، الدكتور متي . قال بريتشارد-متفورد وهو يصافح متي : لقد قرأتُ كتابَك عن داءِ العقدياتِ الشعريةِ[٢٢] . إنه إنجازٌ رائعٌ ، يا سيدي . فأجابَه متي : شكراً لك . قال ريمنجتون بصوتٍ يشبهُ الدمدمةَ : لم نكنْ نعلمْ أنكَ في الولايات المتحدة . لا يُفتى ومالكٌ في المدينةِ ، أن نأتي إلى هنا أنا ومتفود لحالةٍ من الدرجةِ الثالثةِ وأنتَ موجودٌ . فرد متي : أنت لطيفٌ جداً . هناكَ آلةٌ ضخمةٌ ومعقدةٌ متصلةٌ بطاولةِ العملياتِ ، وتخْرُجُ منها أنابيبُ وأسلاكٌ كثيرةٌ ، وبدأتْ في هذه اللحظةِ تلك الآلةُ بإصدارِ الأصواتِ بعدَ تشغيلِها . صاحَ أحدُ الأطباءِ المتدربين : لقد انهارتْ آلةُ التخديرِ الجديدةِ وتعطلتْ . ولا يوجدُ أحدٌ في الشرقِ الأمريكي من يعرفُ عن كيفيةِ إصلاحِها . فقالَ له متي بصوتٍ منخفضٍ وببرود : إهدأ يا رجل . ونهضَ متي وذهب نحو الآلةِ والتي كانتْ تصدرُ أصواتاً تدلُّ على تعطّلِها عن العملِ . بدأ يلمسُ بأصابعه

---

(٢١) استعمل متي أسماء لأمراضٍ غير موجودةٍ في قاموسِ الطبِ وإنما هي من خياله .

(٢٢) داء العقديات الشعرية هو مرض تسببه الفطريات .

بلطف صفاً من الأقراصِ اللامعةِ ، وقالَ بحدَّة : أعطوني قلمَ حبرٍ . فقامَ أحدُهم بمناولتِه إياه . فقامَ متي بسحبِ مكبسٍ به عيبٌ من الآلةِ وأدخلَ مكانَه قلمَ الحبرِ ، وقال : إن هذا يكفي لمدةِ عشرِ دقائقَ ، فاستمرّوا في العمليةِ الجراحيةِ . جاءت إحدى الممرضاتِ مسرعةً وهمستْ في أذنِ رينشو ، وقد رأى متي أن الرجلَ قد انقلبَ لونُه وصارَ شاحباً . قال رينشو بطريقةٍ عصبيةٍ : إن مشكلةً صحيةً صعبةً بدأتْ تواجهُنا . بإمكانِك أن تتولى الأمرَ إنْ رغبتَ في ذلك يا متي . نظرَ متي إليه وإلى بينبو الذي بدا عليه الهلع ، والذي كان مُهتمّاً بشدةٍ لسماعِ ما سيقولُه متي وكانَ في حرج عظيم ، وكان يعلو وجهي المتخصصيْنِ العظيميْنِ علاماتُ الالتباسِ والترددِ . رد متي على طلبِ رينشو قائلاً : إن رغبتمْ في ذلك . فقاموا بإلباسِه ثوباً أبيض ، وقام هو بتعديلِ وضعِ الكمامةِ ، ولبس قفازاتٍ رقيقةً ، وناولتْه الممرضاتُ . . . لامعاً . . .

قال المستَخدَمُ المسؤولُ عن باحةِ وقوفِ السياراتِ لمتي : أرجع السيارةَ إلى الوراءِ يا هذا . انتبهْ فهناكَ سيارةُ بويك[٢٣] . داسَ ولترَ متي على الفراملِ بكلِّ ما أوتيَ من قوةٍ . وقال مسؤولُ مصفِّ السياراتِ لمتي وهو ينظرُ إليه بإمعانٍ : إنك تسيرُ في المسربِ الخطأ يا هذا . فرد عليه متي متمتماً : جي . يَه . بدأَ متي محاولتَه بحذرٍ

(٢٣) سيارة بويك هو نوع من السيارات .

للخروجِ من مسربِ مَصفِّ السياراتِ المُعلَّمِ والمُؤشَّرِ عليه : للخروجِ فقط . قال له مسؤولُ مَصفِّ السياراتِ : دع السيارةَ هناك . أنا سأقومُ بإبعادِها . فخرج متي من السيارةِ . فقالَ له مسؤول مَصفِّ السيارات : يا هذا ، الأفضلُ أن تتركَ مفتاحَ السيارةِ . فأجابَه متي : حسناً . وسلَّمَ له مفتاحَ تشغيلِ السيارةِ . فقفزَ المستَخدمُ المسؤولُ داخلَ السيارةِ ، وقادَها بمهارةٍ ولكن بخشونةٍ وعجرفةٍ وركنَها حيثُ يجبُ أن تكونَ .

دارَ في ذهنِ متي وهو يمشي على امتدادِ الشارعِ الرئيسيِّ أن هؤلاءِ ملعونون لغرورِهم الصفيقِ إلى حدٍّ بعيد ، فهم يعتقدونَ أنَّهم يعرفونَ كلَّ شيءٍ . حاولَ مرةً أن يفكَّ السلسلةَ التي التفَّتْ حولَ محاورِ عجلاتِ السيارةِ خارج نيو ملفورد . جاءَ رجلٌ وخرجَ من سيارةٍ مجهزةٍ لجرٍّ وحملِ المركباتِ التي أصابها التلفُ لسببٍ أو لآخرَ وقامَ بحلِّ السلاسلِ الملتفةِ ، وكانَ هذا الرجلُ شاباً مبتسماً وصاحبَ مرآبٍ للسياراتِ . ومنذُ ذلك الحين ومتي يذهبُ دائماً إلى مرآبِه ليفكَّ السلاسلَ بعد انتهاءِ موسمِ تساقطِ الثلوجِ . جاءتْه فكرةٌ حيثُ قالَ في نفسِه : إنني في المرةِ القادمةِ سأقومُ بوضعِ يدي اليمنى في حمَّالةٍ وتعليقِها ، ومن ثمَّ فإنَّهم لن يبتسموا ابتسامةَ استهزاءٍ بي . إنَّ يدي اليمنى في حمَّالةٍ ومعلقةٌ ، ولهذا فهمْ يرونَ أنه ليس باستطاعَتي فكَّ السلاسلِ بنفسي . ركلَ برجلِه الثلجَ شبهَ الذائبِ الموجودَ على الرصيفِ . فتذكرَ وقالَ لنفسِه : الجرموق . وبدأ بالبحثِ عن متجرٍ للأحذيةِ .

عندما خرجَ إلى الشارعِ مرةً أخرى ، وهو يحملُ الجرموقَ في صندوق وضعَهُ تحتَ ذراعِه ، بدأ والتر متي يتساءَلُ في نفسهِ عن الشيءِ الآخرَ الذي أخبرتْه زوجتُه أن يشتريَه ويأتيَ به . لقد أخبرتْه زوجتُه مرتين قبلَ أن ينطلقا من منزلِهما لوتربري . بطريقة أو بأخرى فإنَّه يكرهُ هذه الرحلاتِ الأسبوعيةَ إلى المدنِ لأنَّه دائماً يواجهُ المتاعبَ ويحدثُ له ما لا يُحمدُ . فكَّرَ وتساءَلَ في نفسِه عمَّا طلبتْه زوجتُه ، كلينيكس ، سكويب ، شفرات الحلاقة؟ لا . ثم تساءَل هل ما طلبتْه هو معجونُ أسنان ، فرشاةُ أسنان ، بيكربونات ، مزيلات ، مبادرةٌ واستفتاءٌ[(٢٤)]؟ تخلَّى متي عن معرفةِ ما طلبتْه زوجتُه ، ولكنَّها ستذكرُ ذلك وستسألهُ : أين هو الذي ما هو اسمُه؟ لا تقلْ لي إنكَ نسيتَ ما هو اسمُه . مرَّ الولدُ الذي يوزعُ الصحفَ وهو يصيحُ عن شيءٍ عن محاكمةِ واتربري .

. . . قال النائبُ العامُ وهو يرفعُ فجأةً سلاحاً أوتوماتيكياً ثقيلاً موجِهاً إياهُ نحوَ شخصيةٍ هادئةٍ على منصةِ الشهودِ قائلاً : لعل هذا ينعشُ ذاكرتَك . هل رأيتَ هذا من قبلُ؟ تناولَ والتر متي البندقية وفحصَها بعينِ خبيرٍ ، وقالَ بهدوءٍ : إنَّها بندقيتي من نوع وبلي-

---

(٢٤) مبادرةٌ واستفتاءٌ ربما هي اسمُ صحيفةٍ وربما المقصودُ هنا أنْ يبتاعَ نشرةً عن المبادرةِ والاستفتاءِ وهي العمليةُ التي يُسمحُ فيها للمواطنينَ في كثيرٍ من الولاياتِ الأمريكيةِ بوضعِ تشريعٍ جديدٍ للاقتراعِ الشعبيِّ ، أو لوضعِ تشريعاتٍ تم إقرارُها في المجلسِ التشريعيِّ للتصويتِ عليها شعبياً .

فايكرز ٥٠,٨٠ . فعمَّتْ أرجاءَ قاعةِ المحكمةِ ضجةٌ ولغطٌ من ردةِ فعلِ الحضورِ . فقامَ القاضي بالطرْقِ بالمطرقةِ لإعادة الهدوءِ والنظامِ . قـالَ النائبُ العـامُ ملمِّـحـاً لمسـؤوليـةِ مـتي عن إطلاقِ النارِ على الضحيةِ : أعتقدُ أنك ممتازٌ ومتفوقٌ في استخدامِ أي نوعٍ من أنواعِ الأسلحـةِ الناريةِ ، أليس كـذلك؟ فـصـاحَ مـحـامي المتهـمِ مـتي : اعـتـراضٌ . لقـد أثبـتْنا أنَّ مـوكِّلي لا يمكنُ أنْ يكونَ هو من أطلقَ الرصاصةُ . لقد أثبتْنا أنَّ ذراعَهُ اليـمنى كانتْ في جرابٍ ومعلقةً في ليلةِ الرابع عشـرَ من تموز . رفعَ والتـر مـتي يدَه لفـتـرةٍ وجيـزةٍ ، فصمتَ النائبُ العامُ ووكيلُ المتَّهم المتشاجران ، وقالَ بهدوءٍ : مع درايتِي ومعـرفـتِي باسـتـخـدامِ البندقيـةِ ، فإنَّ بإمكاني أن أقـتلَ جـريجوري فيـتزهيـرست عن بعـدِ ثلاثمـائةِ قـدم باسـتـخـدامِ يدي اليـسـرى . هبَّتِ الفـوضى داخلَ قـاعـة المحكمـةِ وسـادَ الهـرجُ والمرجُ بشكلٍ لا يمكنُ السيطرةُ عليـه أو ضـبطُه . ارتفعَ صـراخُ امـرأةٍ من وسطِ القاعةِ التي يسودُها الهرجُ والمرجُ ، وفجأةً ظهرتْ فتاةٌ فاتنةٌ ، ذاتُ شـعـرٍ أسـودٍ داكنٍ ورمتْ بنفـسَـهـا بين ذراعـيِّ والتـر مـتي . فهاجمَها النائبُ العامُ وضربَها بوحشيةٍ . ومن دونِ أن ينهضَ من على كرسيِّه ، انتظرَ متي النائبَ العامَ حتى اقتربَ منه وصارَ في المدى المناسبِ ، فوجَّه إليه ضربةً على ذقنهِ قائلاً له : أيها الكلبُ الدنيءُ المسعورُ . . . .

قـال مـتي : بسكويتُ الكلابِ . توقفَ مـتي عن المشيِ ، وارتفعتْ مبـاني واتربري وأحاطتْ به مرةً أخرى ، وقد خرجَ هذا

المشهدُ للحياة الحقيقية من ضبابِ قاعةِ المحكمةِ التي أوجدَها متي في أحلامِ يقظتِه . مرّتْ به امرأةٌ فضحكتْ وقالتْ لمنْ معها : إنَّ ذلكَ الرجلَ يحدِّثُ نفسَه ويقولُ : بسكويتٌ للكلابِ . أسرعَ والتر متي الخطى ودخلَ إلى المتجرِ المسمَّى أ . و ب . وهو ليس أولَ متجرٍ يصادفُه متي في الشارعِ ، ولكنَّه متجرٌ أصغر من المتاجرِ الأخرى ، وموجودٌ في نهايةِ الشارعِ . قال متي لموظفٍ في المتجرِ : أريدُ بعضَ البسكويت لكلابٍ صغيرةِ الحجم والسنِّ . فسألَهُ الموظفَ : هل تريد صنفاً خاصاً يا سيدي؟ فكَّرَ ولتر متي أعظمُ مطلق للرصاصِ من مسدسٍ في العالم للحظة ، وقال : أعطني الصنفَ المكتوبَ على صندوقهِ «الجراءُ تنبحُ من أجلِه .»

علمَ متي عندما نظرَ إلى ساعتِه أن زوجتَه ستكونُ قد انتهتْ من صالونِ التجميلِ وتصفيفِ الشعرِ خلالَ خمسِ عشرةَ دقيقةً ، إلاّ إذا كانت هناكَ مشكلةٌ في تجفيفِ شعرِها ، لأنَّه في بعضِ الأحيانِ تكونُ مثلُ هذهِ المشكلةُ . إنَّها لا ترغبُ في الوصولِ إلى الفندقِ أولاً قبلَ زوجِها ، بلْ إنَّها تريدُ منْه أنْ يكونَ هناكَ في انتظارِها كالمعتادِ . وجدَ متي كرسياً كبيراً من الجلدِ في بهوِ الفندقِ يواجهُ إحدى النوافذِ ، فوضعَ الجرموقَ وبسكويتَ الكلابِ على الأرضِ بجانبِه . التقطَ متي نسخةً قديمةً من صحيفةِ الحريةِ وغطسَ في كرسيِّه وقرأَ العنوانَ التالي : هل يمكنُ لألمانيا أن تحتلَّ العالمَ من خلالَ الجوِّ؟ نظرَ والتر متي إلى صورِ الطائراتِ وهي تقصفُ والشوارعَ المدمَّرةِ .

. . . قـالَ الرقـيـبُ : المَدَافعُ جـاهزةٌ في طائرةِ الشـابِ رالي ، سيـدي . فنظرَ إليـهِ الطيَّارُ متـي من خـلالِ شَعـرهِ الأشـعثِ وقـالَ ببطء : يتعـيَّنُ عليـه الذهابُ للنومِ مع الآخـرينَ . سـأقـومُ بقـيـادةِ الطائرةِ لوحـدي . فـقـال الرقـيـبُ بقلقٍ : ولكنكَ لا تسـتطيعُ ، يا سيدي . فإنَّ هذه القاذفةَ تحتاجُ إلى اثنينِ للعملِ على متنِها ، فإنَّ طائرات آركيز عندما تقصفُ فإنَّها تفتحُ الجحيمَ من السماءِ . إن ميدانَ فون ريتشمَن يقعُ ما بين هذه النقطةِ التي نحنُ فيها وسالير . قـالَ متي : ذهبَ شـخصٌ إلى مـستودع الذخـيـرةِ للحصـولِ على المطلوبِ . أنا ذاهبٌ لتلكَ المهـمـة . شـيـئـاً من البـرانديَ؟ سكبَ الشـرابَ في كـأسٍ للرقـيبِ وآخـرَ لنفسـه . أرعَدتْ الحربُ وولولت حولَ المخبأ والقصفَ بالقنابلِ وصلَ عندَ البابِ ، فتفتت الخشبُ وتطايرتْ شظاياهُ في أرجاءِ الغرفةِ . قالَ الطيارُ متي وبلا مبالاة : إنهُ شيءٌ قليلٌ ولنْ ينجحْ . قال الرقيبُ : إن قذائفَ المدفعيةِ التي تحـاولُ منعَنا من إرسـالِ تعـزيزاتٍ قـد اقـتـربتْ . فـردَّ عليـه مـتي بابتسامةٍ باهتة وعابرة : أيها الرقيبُ ، إنَّنا نعيشُ مرةً واحدةً فقط ، أم أنَّنا نعـيشُ أكـثـرَ من ذلك؟ قـامَ مـتي بصبٍّ كـأسٍ آخـرَ من البـراندي وشـربَه بسـرعة . قـال الرقـيب لمتي : لـم أرَ رجـلاً مثلكَ يُمسك بالبراندي كما تفعلُ أنتَ ، يا سيدي . أستميحك عذراً سيـدي . نهضَ الطيارُ متي واتشحَ ببندقيته الآليةِ من نوعِ وبلي- فايكرز . فقالَ له الرقيبُ : إنها أربعونَ كيلو متراً من خلالِ الجحيمِ يا سيـدي . أنهى متي آخِرَ كـأسٍ من البراندي . قالَ مـتي بصوتٍ

هادىءٍ: بعد أنْ تمَّ النظرَ في كلِّ شيءٍ، ما هو المستثنى وغيرُ موجودٍ؟ ازدادت حدةُ قصفِ المدافع، وسمعتْ لعلعاتُ الرشاشاتِ، ومن مكانٍ ما جاءتْ أصواتَُ تهديدٍ تُنذرِ بالخطرِ من قاذفاتِ اللهبِ الجديدةِ. مشى ولتر متي نحو بابِ المخبأ وهو يطنطنُ بأغنيةٍ كلاسيكيةٍ فرنسيةٍ عنوانُها بجانبِ صديقي الأشقر. التفتَ متي ولوّحَ للرقيبِ وقالَ: وداعاً....

شيءٌ ما ضربَهُ على كتفِه. قالتْ السيدةُ متي: لقد بحثتُ عنكَ في جميعِ أرجاءِ هذا الفندقِ. ما الذي يجعلُك تخفي نفسَك في هذا الكرسيِّ القديمِ؟ كيفَ تتوقعُ مني أن أجِدكَ؟ فردَّ ولتر متي بكلماتٍ غامضةٍ قائلاً: الأشياءُ تتجمعُ من كلِّ جانبٍ وتحاصرُ. فقالتْ له السيدةُ متي: ماذا؟ هل جلبتَ الذي ما هو اسمُه؟ بسكويتَ الكلابِ؟ ماذا يوجدُ في تلكَ العلبةِ؟ فأجابَ متي: الجرموقَ. أليس بإمكانِك وضعُهن في المخزنِ؟ فأجابَ متي: لقد فكرتُ في ذلك. هل دارَ في ذهنِكَ يوماً أنني أفكرُ في بعضِ الأحيانِ؟ فنظرتْ إليه وقالتْ: سأقيسُ درجةَ حرارتِك عندما نعودُ إلى البيتِ.

خرج متي وزوجتُه من خلالِ الأبوابِ الدوارةِ التي كانتْ تصدرُ صوتَ صفيرٍ ضعيفٍ وخشنٍ عندما تُدفعُ. كان هناكَ كتلتانِ من الأبنيةِ للوصولِ من الفندقِ إلى موقفٍ للسياراتِ. وعندَ صيدليةٍ موجودةٍ في زاويةٍ من زوايا الشارعِ قالتْ متي لزوجها: انتظرني هنا. لقد نسيتُ شيئاً. لن أدعكَ تنتظرَني أكثرَ من

دقيقة . ولكنَّها غابتْ أكثر من دقيقة ، فأشعلَ ولتر متي سيجارةً . وبدأتْ تمطر ، وكان مطراً مختلطاً بحبيبات متجمدة داخله . وقفَ ملتصقاً بجدارِ الصيدليةِ وهو يُدخِّن . . . وضعَ كتفيه وراءه وألصقَ عقبيْه ببعضِهما وقال بازدراءٍ : إلى الجحيمِ للمنديلِ الذي تُعصبُ به العيون . سحب آخر نفسٍ من سيجارتِه ورمى بها بعيداً وبعنفٍ . وبعد ذلك ، وبابتسامتِه الباهتةِ والعابرةِ والتي ارتسمتْ على شفتيْه ، واجهَ فرقةَ الإعدامِ بالرصاصِ منتصباً وبلا حراكٍ ، وهو مليءٌ بالفخرِ والازدراءِ . إنه والتر متي الذي لا يُهزمُ ، والرجلُ الغامضُ الذي لا يمكنُ فهمُه حتى النهايةِ .

اليانصيب

شيرلي جاكسون

إنه صباحٌ صافٍ ومشمسٌ ويتدفقُ بالدفءِ المنعشِ في يومِ السابعِ والعشرينَ من حزيران . إنَّه يومٌ يطفحُ بالصيفِ وما فيه ، فالأزهارُ تتفتحُ بوفرةٍ وغزارةٍ ، والأعشابُ شديدةُ الاخضرارِ . في حوالي الساعةِ العاشرةِ ، بدأ أهلُ القريةِ في التجمع في الميدانِ ، وهي الساحةُ التي سيقامُ عليها اليانصيبُ ، وهذه الساحةُ تقعُ ما بين مكتبِ البريدِ والمصرفِ . أما في بعضِ البلداتِ التي فيها عددٌ كبيرٌ من السكانِ ، فإنَّ عمليةَ سحبِ اليانصيبِ تستغرقُ يومين ، وتبدأُ في العشرينَ من حزيران . أما في هذهِ القريةِ التي يبلغُ عددُ سكانِها ثلاثمائةِ نسمةً ، فإنَّ عمليةَ اليانصيبِ تستغرقُ أقلَّ من ساعتين ، ولهذا فإنَّه يمكنُ أنْ تبدأَ في الساعةِ العاشرةِ صباحاً وتنتهي فصولُها ، ويبقى الكثيرُ من الوقتِ الذي يسمحُ للقرويين للعودةِ لمنازِلهم لتناولِ طعامَ الغذاءِ .

تجمَّعَ الأطفالُ أولاً ، فقدِ انتهتِ الدراسةُ منذُ فترةٍ وجيزةٍ ، وبدأتِ العطلةُ الصيفيةُ ، وما زالَ الشعورُ بالحريةِ من المدرسةِ

والدراسةِ غيرَ مستقرٍ في نفوسِ كثيرٍ منهم ، لهذا كانوا يميلونَ للتجمُّع بهدوءٍ ولمدةٍ قصيرةٍ قبلَ أن يبدأوا باللعبِ بصخبٍ ، وما زالَ حديثُهم يدورُ عن الصفوفِ الدراسيةِ والمعلمينَ والكتبِ وما يَطالُهمْ من توبيخ . ملأ بوبي مارتن جيوبَه بالحصى المستديرةِ ذاتِ السطحِ الأملسِ ، ثم حذا حذوَه عددٌ من الأولادِ مثلَ بوبي وهاري جونز وديكي ديلاكوا ، ويلفظُ القرويون اسمَ الأخيرِ ديلاكواي ، وقد استطاعَ هؤلاءِ في نهايةِ المطافِ أن يجمعوا كومةً كبيرةً من الحجارةِ في إحدى زاويا الميدانِ ، وقاموا بحراستِها من غاراتِ الأولادِ الآخرينَ عليها . وقفتْ البناتُ جانباً وهنَّ يتحدثنَ فيما بينهنَّ وينظرنَ من فوقِ أكتافِ بعضِهنَّ بعضاً للأولادِ ، وأما الأطفالُ الأصغرُ سناً ، فقد كانَ قسمٌ منهمْ يتدحرجُ على الترابِ ، وبعضُهم يتشبثونَ بأيدي إخوانِهم وأخواتِهم الأكبر .

وما إنْ بدأَ الرجالُ في التجمع حتى انشغلوا في تجميعِ وتفقُّدِ أطفالِهم ، وكانَ حديثُهم يدورُ حولَ الزراعةِ والمطرِ والجَرّاراتِ والضرائبِ . وقفوا سويةً بعيداً عن كومةِ الحجارةِ الموجودةِ في زاويةِ الميدانِ وكانتْ نكتهم ودعاباتُهم هادئةً وكانوا يبتسمونَ ولا يضحكونَ . بعد فترةٍ قصيرةٍ ، التحقت النساءُ بأزواجهنَ ، وكنَّ يرتدين ملابسَهنَّ المنزليةَ وستراتهنَّ الباهتةَ . وبعدَ أنْ تبادلت النساءُ التحياتِ وتجاذبنَ أطرافَ الحديث ، انصرفتْ كلٌّ منهنَّ والتحقتْ بزوجِها . وما إن وقفتْ النساءُ كلٌّ بجانبِ زوجِها ، حتى بدأنَ بالمناداةِ على أطفالهنَ ، والذينَ استجابوا على مضضٍ ،

وحضروا وهم كارهونَ بعد أن تكرَّرَ نداءُ الأمهاتِ عليهم أربعَ أو خمسَ مراتٍ . تملَّصَ بوبي مارتن من قبضةِ أمِّهِ ورجعَ راكضاً وضاحكاً إلى كومةِ الحجارةِ ، وهنا بدأَ والدُه بالكلامِ معَه بحدةٍ ، فعادَ بوبي مسرعاً وأخذَ مكانَه ما بين أبيهِ وأخيهِ الأكبر .

إنَّ الذي يديرُ عمليةَ اليانصيبِ هو السيدُ سمرز ، وهو كذلكَ يشرفُ على الرقَصاتِ التي تُؤدَّى في الميدانِ ، وفي النادي الخاصِّ بالشبابِ في سنِّ المراهقةِ ، وكذلك في برنامج عيدِ القديسين في الواحدِ والثلاثين من تشرينَ الأولِ ، ومع هذه الأعباءِ فإنَّه يمتلكُ الوقتَ والطاقةَ اللتينِ يكرِّسهما للقيام بنشاطاتٍ مدنيةٍ تخدمُ المواطنين . كانَ وجهُ سمرز مستديراً ، وكانَ رجلاً مرحاً ، ويديرُ تجارةً للفحم . وكانَ الناسُ يتعاطفونَ معه ويشعرونَ بالأسى لأنه لمْ يرزقْ بالأولادِ ولأنَّ زوجتَه امرأةٌ سليطةٌ . وعندما وصلَ سمرز إلى الميدانِ حاملاً الصندوقَ الخشبيَّ الأسودَ ، كانَ سكانُ القريةِ يتهامسونَ فيما يدورُ بينهمْ منْ حديثٍ ، فلوَّحَ بيديهِ قائلاً : أيُّها الناسُ ، لقد تأخرتُ قليلاً اليوم . ثم تبعهُ مديرُ مكتبِ البريدِ السيدِ جريفز وهو يحملُ كرسياً لها ثلاث أرجلٍ وهي بلا ظهرٍ أو ذراعين ووضعَها في وسطِ الميدانِ ، كان قد وضعَ السيدُ سمرز الصندوقَ الأسودَ عليها . حافظ القرويون على بُعدِهم تاركين مسافة فيما بينهم وبين الكرسي . وعندها قالَ السيدُ سمرز : أريدُ بعضاً منكمْ أيُّها الرجال ، فمَنْ يأتي لمساعدتي؟ كانَ هناكَ ترددٌ قبلَ أنْ يتقدَّمَ رجلانِ ، وهما السيدُ مارتن وابنُه الأكبرُ باكستر ، اللذانِ تقدَّما إلى

الأمامِ من أجلِ حملِ الصندوقِ ووضعِهِ على الكرسيِّ بحيثُ يكونُ مستقراً وثابتاً ، وفي هذهِ الأثناءِ كانَ السيدُ سمرز يقومُ بتحريكِ الأوراقِ الموجودةِ داخلَ الصندوقِ وتقليبِها .

لقد فُقدتِ العدةُ الأصليةُ الخاصةُ بهذا اليانصيبِ منذُ مدةٍ طويلة ، وأمَّا هذا الصندوقُ الأسودُ المستقرُّ على الحاملِ ، فقدْ وضعَ في الخدمةِ منذُ زمنٍ بعيدٍ ، ووجودُهُ كانَ قبلَ ميلادِ أكبرِ رجالِ القريةِ سناً وهو وارنر الملقبُ بالرجلِ الأكبرِ وارنر . تكلَّمَ السيدُ سمرز باستمرارٍ إلى القرويينَ من أجلِ صناعةِ صندوقٍ جديدٍ ، ولكنَّ هذا الاقتراحَ لم يلقَ آذاناً صاغيةً ؛ لأنَّهم لا يريدونَ لشيءٍ أنْ يُغيّرَ تقاليدَهم أو يُفسدَها حتى ولو كانَ تغييرُ هذا الصندوقِ الأسودِ والذي يعتبرونَه جزءاً من هذهِ التقاليدِ وممثلاً لها . إنَّ هناكَ قصةً تناقلتْها الأجيالُ في هذهِ القريةِ تقولُ بأنَّ بعضَ الأجزاءِ الخشبيةِ في الصندوقِ الحالي مأخوذٌ من الخشبِ الذي صُنعَ منه أوَّلُ صندوقٍ عندما استوطنَ القرويون الأوائلُ هذه القريةَ وقاموا بإنشائِها . في كلِّ عامٍ ، وبعدَ كلِّ عمليةِ سحبٍ لليانصيبِ ، يبدأُ السيِّدُ سمرز بالتحدُّثِ مرةً أخرى عن صناعةِ صندوقٍ جديدٍ ، ولكنَّ هذا الموضوعَ يتلاشى رويداً رويداً ، ويذهبُ طيَّ النسيانِ دون اتخاذِ أيِّ إجراءٍ . إنَّ هذا الصندوقَ يكونُ أكثرَ إهتراءً في كلِّ عامٍ من العامِ الذي سبقَهُ ، ولم يَعُدْ كما كانَ في السابقِ أسودَ بالكاملِ ، وظهرتْ في أحدِ جوانبِه تشققاتٌ واضحةٌ بحيثُ بدا منها اللونُ الأصليُّ للخشبِ ، وفي بعضِ الأماكنِ فإنَّ هذا اللونَ قد أصبحَ باهتاً أو مُلطخاً .

أمسكَ السيدُ مارتن وابنُه الأكبرُ باكستر الصندوقَ الأسودَ وثبَّتاهُ ليكونَ أميناً من السقوطِ من على الحاملِ حتى انتهى سمرز من خلطِ الأوراقِ بداخلِه بشكلٍ ممتاز بيديه . وبسببِ أنَّ كثيراً من الطقوسِ قد نُسيتْ أو تُركتْ ، فقدْ نجحَ السيدُ سمرز في استبدال القطع الخشبيةِ التي كانتْ تستخدمُ في عمليةِ اليانصيبِ ، ومنذُ أجيالٍ إلى قطع من الورقِ . فقدْ أقنعَ السيدُ سمرز أهلَ القريةِ برأيِه عندما قال بأنَّ الرقاقاتِ الخشبيةَ كانتْ ملائمةً تماماً عندما كانَ عددُ سكانِ القريةِ صغيراً جداً ، أما الآنَ فإنَّ عددَ سكانِها يزيدُ على الثلاثمئةِ نسمةٍ والعددُ مرشحٌ للزيادةِ ، لهذا فإنَّ من الضروري استخدامَ شيءٍ ما ليكونَ أكثرَ سهولةً ومناسباً ، وحتى يكونَ من الممكنِ وضعُهُ داخلَ الصندوقِ الأسودِ . في الليلةِ التي تسبقُ عمليةَ سحبِ اليانصيبِ ، يقومُ السيدُ سمرز والسيدُ جريفز بإعدادِ أوراقِ اليانصيبِ ووضعِها في الصندوقِ ، ومن ثمَّ يقومان بحفظِ الصندوقِ بخزنةِ شركةِ الفحمِ التي يملكُها السيدُ سمرز ، وتُغلقُ هذه الخزنةُ الآمنةُ ، ولا تُفتحُ حتى يحينَ الوقتُ الذي يكونُ فيه السيدُ سمرز جاهزاً لنقلِ الصندوقِ الأسودِ في صباحِ اليومِ التالي إلى الميدان . في بقيةِ العامِ فإنَّ هذا الصندوقَ يُطرحُ جانباً ، مرةً هنا ومرةً هناك ، ففي أحدِ الأعوامِ مكثَ الصندوقُ لمدةِ سنةٍ كاملةٍ في مخزنِ حبوبِ السيدِ جريفز ، وفي عام آخرِ بقيَ على الأرضِ تحتَ الأقدامِ في مكتبِ البريدِ ، ووُضعَ وتُركَ مرَّاتٍ على الرفِّ في بقالةِ مارتن .

يحدثُ كثيرٌ من الهرجِ والمرجِ في الميدانِ قبلَ أن يستطيعَ السيدُ سمرز الإعلانَ عن بدءِ عمليةِ سحبِ اليانصيبِ . أُعدتِ القوائمُ بأسماءِ زعماءِ العائلاتِ ، واسمِ كلِّ ربِّ أُسرةٍ في هذه العائلات ، وأسماءِ أفرادِ كلِّ أسرةٍ . وقامَ السيدُ سمرز بأداءِ يمينٍ تتلاءمُ مع هذه المناسبةِ أمام مديرِ البريدِ كمسؤولٍ مفوضٍ لإدارةِ عمليةِ سحبِ اليانصيبِ . يتذكرُ بعضُ القرويين أنَّه في الأيامِ الخوالي كانَ الشخصُ المسؤولُ عن اليانصيبِ يقومُ بإلقاءِ ترنيمةٍ ما ، وكانتْ تُلقى كلَّ سنةٍ وبسرعةٍ كما ينبغي أن تكونَ ، ولكنْ بدونِ حماسةٍ ، ولا يصاحبُها لحنٌ أو نغمٌ . ويعتقدُ بعضُ الناسِ أنَّ الشخصَ المسؤولَ عن اليانصيبِ كانَ يؤدي هذهِ الترنيمةَ واقفاً ، بينما يعتقدُ آخرونَ بأنَّ منَ المفترضِ أنْ يؤديها وهو يمشي بينَ الناسِ ، ولكنْ ، ومعَ مرورِ السنين ، فإنَّ هذا الجزءَ منَ التقليدِ قدْ أُجيزَ اختفاؤُه وزوالُه . كانَ هناكَ طقسٌ ترحيبيٌّ يؤديه الموظفُ المسؤولُ عن اليانصيبِ اتجاهَ كلِّ شخصٍ يأتي ليسحبَ يانصيبَه من الصندوقِ . ولكنَّ هذا قدْ تغيّرَ معَ مرورِ الوقتِ ليصبحَ الآنَ عبارةً عن الشعورِ بضرورةِ تحدُّثِ المسؤولِ عن اليانصيبِ مع كلِّ شخصٍ وهو آتٍ ويقتربُ من الصندوقِ ليسحبَ اليانصيبَ . وقد عُرفَ عن السيدِ سمرز بتميُّزِه في معرفةِ وأداءِ كلِّ ما يتعلقُ باليانصيبِ . بدا السيد سمرز كشخصٍ مهمٍ ، ومظهرُه لائقٌ وهو يرتدي قميصَهُ الأبيضَ النظيفَ وبنطالَه الجينزَ ذا اللونِ الأزرقِ ، وكانتْ إحدى يديْه موضوعةً بشكلٍ مريحٍ وبلا مبالاةٍ على

الصندوقِ الأسودِ ، وهو يتحدثُ مسترسلاً وبلا توقُّفٍ مع السيدِ جريفز والسيدِ مارتن وزوجتِه .

وبمجردِ أنْ توقفَ السيدُ سمرز في النهايةِ عن الكلامِ ، استدارَ نحو أهلِ القريةِ المحتشدين ، جاءتْ السيدةُ هاتشنسون مسرعةً عبر الطريقِ المؤدّي إلى الميدانِ وقد ألقتْ بسترتِها على كتفيْها ، وانسلَّتْ إلى مكانٍ خلفيٍّ من الجمهورِ المحتشدِ . قالتْ السيدةُ هاتشنسون للسيدةِ ديلاكوا والتي تقفُ بجانبِها : لقد نسيتُ تماماً هذا اليومَ وما فيه . ثم ضحكتا بصوتٍ منخفضٍ . أضافتْ السيدةُ هاتشنسون قائلةً : كنتُ أظنُّ أنَّ زوجي قدْ خرجَ ليرتبَ كومةَ الأخشابِ الموجودةَ خلفَ المنزلِ ، وعندما نظرتُ عبرَ النافذةِ ، لاحظتُ عدمَ وجود الأطفالِ ، عندها تذكرتُ أنَّ هذا اليومَ هوَ السابعُ والعشرون ، فجئتُ مباشرةً راكضاً . قالتْ ذلكَ وهي تجفّفُ يديْها بمئزَرِها ، فقالتْ لها السيدةُ ديلاكوا : لقدْ وصلتِ في الوقتِ المناسبِ ، فما زالوا بعيداً هناكَ يتحدثون .

اشرأبَّتْ السيدة هاتشنسون برقبتِها لترى الحشدَ من أوَّلِه لآخرِه ، فوجدتْ زوجَها وأبناءَها واقفين قريبين من مقدمةِ الجمهورِ . رَبَّتَت السيدةُ هاتشنسون كنوعٍ منَ الوداعِ على ذراعِ السيدةِ ديلاكوا ، وأخذتْ تشقُّ طريقَها مِنْ خلالِ الجمهورِ المحتشدِ ، وتفرّقَ الناسُ ليفسحوا لها الطريقَ منْ خلالِهم برحابةِ صدرٍ . قال شخصان أو ثلاثةُ بصوتٍ يكفي لإسماعِ جميع المحتشدين : ها قدْ حضرتْ السيدةُ هاتشنسون ، وأكملوا قائلينَ لزوجِها : بِلْ ، لقدْ

عملتْها زوجتُك أخيراً ووصلتْ . وصلتِ السيدةُ هاتشنسون إلى حيثُ زوجُها بعدَ أنْ شقَّتِ الجموعَ ، واستقبلَها السيد سمرز بسرور والذي كانَ بالانتظارِ قائلاً : لقد ظننتُ بأننا سنبدأُ بدونِك يا تيسي . فردت هاتشنسون وقد علت وجهَها تكشيرةٌ : أظنكَ لا تقبلْ أن تدعني أتركُ الأطباقَ في حوضِ المغسلةِ ، أليس كذلك ياجو؟ وسَرَتْ وسط الجمهور ضحكة خفيفة والناس يعودون إلى أماكنهم ووضعهم السابق بعدما وصلت السيدة هاتشنسون إلى حيث أرادت وذلك بعد أن شقت طريقها وسطهم .

قالَ السيد سمرز بطريقةٍ تتسمُ بالهدوءِ والوقارِ : حسناً ، أظنُّ أنَّ من الأفضلِ أن نبدأَ الآنَ ، لكي ننهيَ الأمرَ ، ويتسنَّى لكلٍّ واحدٍ منا العودةُ إلى عملِه . هل من أحدٍ ليس هنا؟

ردَّ بعضُ الناسِ : دنبر ، دنبر ، دنبر .

تفحَّصَ السيدُ سمرز القائمةَ التي بين يديهِ ثم قال : كلايد دنبر ، هذا صحيحٌ ، لقد كُسرتْ ساقُه ، أليس كذلك؟ من الذي سيسحبُ عنهُ؟

ردّتْ عليه امرأةٌ قائلةً : أنا سأقومُ بذلكَ . فالتفتَ السيدُ سمرز إليها قائلاً : الزوجةُ يمكنُ أنْ تحلَّ محلَّ زوجِها فتسحبْ . هل لكِ ابنٌ قدْ اشتدَّ عُودهُ ليقومَ بذلكَ عنكِ ياجِني؟ وبالرغم من أنَّ السيدَ سمرز وكلَّ شخصٍ في القريةِ يعرفُ الإجابةَ تماماً ، إلا أنَّ هذا السؤالَ يجبُ أن يُسألَ بطريقةٍ رسميةٍ وأن يطرحُهُ المسؤولُ عن اليانصيبِ ؛ لأنَّه جزءٌ من واجباتِه . انتظرَ السيدُ سمرز إجابتَها ،

وتعابيرُ وجهِهِ تدلُّ على كياستِه واهتمامِه، بينما كانتْ السيدةُ دنبر تُجيبُ عن سؤالِه.

قالتْ السيدةُ دنبر وهي تشعرُ باللوعةِ: ابني هوريس لمْ يبلغْ سوى السنةَ السادسة عشرةَ منْ عمرِه. وأعتقدُ أنني سأنوبُ عن زوجي هذه السنةِ.

قال السيدُ سمرز: هذا صحيحٌ. وقام بتسجيلِ ملاحظةٍ على القائمةِ التي يحملُها. ثم سألَ: هل سيسحبُ ابنُ السيدِ واتسون هذه السنةَ؟

رفع شابٌ طويلٌ يدَه من بين الجمهورِ ونادى لجلبِ الانتباهِ: هنا. ثم قالَ: سأسحبُ لي ولأمي. وطرفتْ عيناه بطريقةٍ تدلُّ على توتُّرِه وأحنى رأسَه، بينما سُمعتْ بعضُ الأصواتِ من الجمهورِ تعلِّقُ على ما حدثَ بأقوالٍ مثل: لا عُدِمَ وجودُ مثل هذا الشابِ العطوفِ والحنونِ، وإنه لمفرحٌ أن يُرى لأُمكَ رجلٌ يقومُ بذلك.

قال السيد سمرز: حسناً. أظنُّ أنَّ الكلَّ حاضرٌ. هل عملَها وارنر أكبرُ مَنْ في القريةِ سناً وحضرَ إلى هنا؟

خرج صوتٌ من الجمهورِ وأجابَ :ها هو. وهزَّ السيدُ سمرز رأسَه.

خيّمَ الصمتُ المفاجئُ على الحشدِ عندما تنحنحَ السيدُ سمرز ليتكلمَ وهوَ ينظرُ إلى قائمةِ الأسماءِ بين يديْه وقال: الكلُّ مستعدٌ؟ الآن، سأقرأُ أولاً أسماءَ أربابِ العائلاتِ، ثم ليتقدمَ

الرجالُ إلى هنا لسحبِ ورقةٍ من الصندوقِ . حافظوا على الورقةِ مطويةً في اليدِ بدونِ النظرِ إليها حتى ينتهيَ كلُّ فردٍ من سحبِ ورقتِه . هل كلُّ شيءٍ واضحٌ؟

لم يُعرْ الجمهورُ الانتباهَ كاملاً لسماعِ التعليماتِ التي تُلقى لأنَّهم قاموا بعمليةِ سحبِ اليانصيبِ عدةَ مرّاتٍ . كانَ معظمُ الموجودينَ هادئين ، يرطِّبون شفاهَم غيرَ آبهينَ لما يدورُ حولهمْ .ثمَّ رفعَ السيدُ سمرز إحدى يديْه عالياً ثم قالَ : آدمز . فاستجابَ الرجلُ وتقدَّمَ على الفورِ شاقاً طريقَه بين الناسِ . فرحَّبَ به السيدُ سمرز قائلاً : مرحباً يا ستيف . فردَّ السيدُ آدمز قائلاً للسيدِ سمرز : مرحباً جُو . ابتسما لبعضِهما البعضِ ابتسامةً خاليةً مما في الابتسامِ من سرورٍ ودعابةٍ وكانا متوترينِ . وكان السيدُ آدمز هو أولُ من سيسحبُ في اليانصيبِ ، فسار حتى وصلَ إلى الصندوقِ الأسودِ وأخذَ منه ورقةً مطويةَ ، وأمسكَ بها من طرفِها بقوةٍ ثم قفلَ عائداً إلى مكانهِ بينَ الجمهورِ ووقفَ بعيداً قليلاً عن عائلتِه ، ولم ينظرْ إلى يدِه .

ثمَّ تابعَ السيد سمرز مناداته : ألن . . . أندرسون . . . بينثام .

قالت السيدة ديلاكوا مخاطبة السيدة جريفز وهما جالستان في الصف الخلفي : لقد بدا وكأنه لا وقت بين عمليات سحب اليانصيب ، إن الوقت يمرُّ سريعاً وكأننا انتهينا من آخر عملية سحبٍ لليانصيبِ الأسبوع الماضي .

أجابتْ السيدةُ جريفز : بالتأكيد ، فإنَّ الوقتَ يمضي بسرعةٍ يا سيدةَ ديلاكوا .

قالــتْ السيـدةُ ديلاكـوا وهي تحـبسُ أنفاسَـها عندما تقـدم زوجُـها إلى الأمامِ نحو الصندوقِ الأسودِ ليسحبَ : ذهبَ زوجي هناك .

نادى السيـدُ سمرز : دنبر . فاستجابتْ على الفورِ وذهبتْ السيدةُ دنبر بثباتٍ نحوَ الصندوقِ ، بينما كانتْ إحدى النساءِ تقول : إذهبي يا جيني . وقالت أخرى : إنها ذاهبةٌ هناك .

قالت السيدةُ جريفز : نحنُ بعدَها . وشاهدَتْ زوجَها وهو يلتفُّ من جانبِ الصندوقِ ، وحيَّا السيدَ سمرز مُظهراً الإجلالَ له ، ثم اختارَ ورقةً من الصندوقِ . حتى هذه اللحظةِ كانَ الرجالُ في هذا الحشدِ ممسكين بتلكَ الأوراقِ الصغيرةِ المطويةِ بأيديهم الضخمةِ ويحركونَها بتوترٍ مراراً وتكراراً . وكانتْ السيدةُ دنبر تقفُ مع ولديْها وهي ممسكةٌ بورقةِ اليانصيبِ .

نادى السيدُ سمرز : هاربرت . . . هاتشنسون .

فقالتْ السيدة هاتشنسون لزوجِها : انهضْ يا بِلْ . فضحكَ الناسُ الواقفين بالقربِ منها .

نادى السيد سمرز : جونز .

قال السيد آدمز مخاطباً السيدَ وارنر الرجلَ الأكبرَ سناً في القريةِ والذي يقفُ إلى جانبِه : هناكَ أقوالٌ بأنَّ سكانَ القريةِ الشماليةِ يتحدثون بأنَّهم سيتركونَ عادةَ سحبِ اليانصيبِ .

أجابه وارنر بعد أنْ أصدرَ صوتاً كالشخيرِ استنكاراً لما سمعَ : إنهمْ مجموعةٌ من الحمقى والمجانين . إنَّ من يسمعُ للشبابِ يدركُ

أنَّ رأيَهم هو أنَّه لا شيء جيدٌ بما فيه الكفاية بالنسبةِ لهم . والشيءُ الآخرُ كما تعلمُ هو أنهمْ يريدونَ أن يُعيدونَا إلى الوراءِ لنعيشَ في الكهوفِ ، ولا أحدٌ يقبلُ أن يكونَ بلا عملٍ أو أنْ يعيشَ بتلكَ الطريقةِ . هناكَ قولٌ مأثورٌ : السحبُ في حزيرانَ يجلبُ الخيرَ والكيزانَ[(٢٥)] . وكما تعلمُ فإننا ، كُلُّنا ، نتناولُ عشبَ الطيرِ مع البلوطِ بعدَ طهيهمَا ، وهكذا دائماً يُقامُ اليانصيب . ثم تابعَ حديثَه بحدَّةٍ قائلاً : إنَّه لأمرٌ سيءٌ بما فيه الكفايةُ أنْ نشاهدَ الشابَ جو سمرز وهو يداعبُ ويُلاطفُ كلَّ شخصٍ يأتي لسحبِ اليانصيبِ ، إنَّ هذا ليسَ من العاداتِ الأصيلةِ السابقةِ .

فقالَ السيدُ آدمز : إن هناكَ بعضَ الأماكنِ تركتْ عمليةَ سحبِ اليانصيبِ .

فعقَّبَ وارنر الأكبرُ سناً في القريةِ على قولِ آدمز بلهجةٍ قويةٍ وصارمةٍ : ليسَ فيما فعلوهُ سوى المشاكلِ ، وهم ليسوا سوى مجموعةٍ من الشبابِ الحمقى .

نادى السيدُ سمرز : مارتن . وبوبي مارتن يراقبُ والدَه وهوَ يتقدَّمُ ليسحبِ اليانصيبِ . ثمَّ نادى السيدُ سمرز : أوفردايك . . . بيرسي .

---

(٢٥) هذا المثلُ يعني أن اليانصيبَ يجلبُ الخيرَ ، فعندما يُقامُ في حزيران ، فإنَّ كيزانَ الذرةِ تصبحُ ملآى ومبكراً وبسرعةٍ .

قالتِ السيدةُ دنبر لابنِها الأكبرِ: أتمنى أن يسرعوا. وكررتْ هذه العبارةَ مرتين.

فأجابَها ابنُها: لقد انتهوا تقريباً، والقائمةُ على وشكِ الانتهاءِ.

قالت السيدةُ دنبر لابنِها: كنْ مستعداً للذهابِ بسرعةٍ لإخبارِ والدكَ عن نتيجةِ سحبِ اليانصيبِ.

نادى السيدُ سمرز على اسمِه، وتقدَّمَ إلى الأمامِ وبانضباطٍ نحو الصندوقِ واختارَ ورقةً من داخلِه. ثم نادى: وارنر.

أخذَ وارنر أكبرُ من في القريةِ سناً يقولُ وهو يمشي بينَ الناسِ نحو الصندوقِ: سبع وسبعونَ سنةً وأنا أقومُ بسحبِ اليانصيبِ. كرَّرَ عبارتِه قائلاً: سبع وسبعونَ مرةً.

نادى السيِّدُ سمرز: واتسون. تقدَّم شابٌ طويلٌ من بينِ الجمهورِ وكانَ مرتبكاً. فخاطبَهُ أحدهُم قائلاً: لا تكنْ متوتِّراً يا جاك. وقالَ له السيدُ سمرز: على مهلِك يا بني وخذْ وقتَك.

نادى السيد سمرز: زانيني.

بعد الانتهاءِ من مناداة الأسماءِ وقدْ سحبَ الجميعُ اليانصيبَ، سادَ الصمتُ المطبقُ المكانَ وكانتْ وقفةً طويلةً حُبستْ فيها الأنفاسُ، ولم يَقطعْ هذا الصمتَ سوى تقدُّم السيدِ سمرز حاملاً ورقةَ اليانصيبِ الخاصةَ به، ورافعاً بها إلى الأعلى، ثم قال: حسناً! أيُّها الأعزاءُ، لنبدأ. مرتْ دقيقةٌ ولمْ يتحركْ أحدٌ، ثم فُتحتْ كلُّ الأوراقِ، وفجأةً أخذتْ جميعُ النساءِ، وبلا استثناءٍ،

بالحديثِ . وبدأ الجميعُ يسألُ : مَنْ هوَ؟ منْ الذي حصلَ عليها وربحَ؟ هل هي عائلةُ دنبر؟ أم عائلة واتسون؟ ثم بدأتْ أصواتٌ تقولُ : إنَّها عائلةُ هاتشنسون . إنه بِلْ . إن الذي حصلَ عليها هو بِلْ هاتشنسون .

قالتْ السيدةُ دنبر لابنِها الأكبرِ : اذهبْ وأخبرْ أباكَ عن نتيجةِ سحبِ اليانصيبِ .

بدأ الناسُ يلتفتون هنا وهناكَ باحثينَ عن عائلةِ هاتشنسون لرؤيتِها . وكانَ بِلْ هاتشنسون يقفُ بهدوءٍ وبرباطةِ جأشٍ وهو يحدِّقُ في الورقةِ التي في يدِه والتي عليها النقطةُ السوداءُ . وفجأةً صرختْ تيسي هاتشنسون في وجهِ السيد سمرز قائلةً : أنتَ لم تعطِ بِلْ الوقتَ الكافي ليختارَ الورقةَ التي يريدُها . لقد رأيتُك . ليس هذا عدلاً .

قالتْ السيدةُ ديلاكوا للسيدةِ هاتشنسون : تحلّي بالروحِ الرياضيةِ يا تيسي . ثم قالتْ السيدةُ جريفز : كلُّنا حظينا بالتساوي وبالفرصةِ نفسها لسحبِ اليانصيبِ .

وقال بل هاتشنسون لزوجتِه : أسكتي ، يا تيسي .

وبعدَ ذلكَ قالَ السيدُ سمرز : حسناً ، أيُّها الحضورُ . لقد تمت العمليةُ بسرعةٍ كبيرةٍ ، والآنَ علينا أن نسرعَ قليلاً لإتمامِ عملِنا في الوقتِ المحددِ . ثم تفحَّصَ القائمةَ التي بينَ يديهِ وقال : بِلْ ، عليكَ أنْ تسحبَ اليانصيبَ بينَ أفرادِ عائلةِ هاتشنسون . هلْ هناكَ أفرادٌ آخرون في عائلةِ هاتشنسون غيرُ ما هوَ موجود هنا؟

فأجابتْ السيدةُ هاتشنسون بصوتٍ عالٍ : هناك دون وإيفا ، دعهُما تأخذان فرصتيْهما .

ردَّ عليها السيدُ سمرز بلطف : البناتُ يسحبنَ مع عائلاتِ أزواجِهن يا تيسي . وأنتِ تعرفين ذلكَ تماماً كما يعرفُه الجميعُ .

فردَّت تيسي قائلةً : ليس هذا عدلاً .

قالَ بِلْ هاتشنسون بمرارةٍ : أنا لا أعتقدُ بما تقولُه زوجتي ، يا جو . ابنتايَ تسحبانِ مع أسرةِ زوجيهِما ، وهذا هو العدلُ . وليسَ لي أحدٌ كفردٍ من أفرادِ عائلتِي سوى الأطفال .

قالَ السيدُ سمرز موضِّحاً : فيما يتعلقُ بسحبِ العائلاتِ لليانصيبِ أولاً وكذلك السحب ثانياً لأفرادها ، فإنَّ ربَّ الأسرةِ ، وهو أنت ، من يقومُ بذلك ، أليس هذا صحيحاً؟

فأجابَه بِلْ هاتشنسون : كلامُك صحيحٌ .

فسألَه السيدُ سمرز بشكلٍ رسميٍّ : كم لديك من الأطفالِ يا بِلْ؟

فأجابَه بِلْ هاتشنسون : ثلاثةٌ . هناك بِلْ الابن ونانسي والطفل الصغير ديف وتيسي وأنا .

قال السيدُ سمرز : حسناً ، هلَّا استرجعتَ أوراقَ اليانصيبِ من الناسِ يا هاري؟

هزَّ السيدُ جريفز برأسِه موافقاً وهو ممسكٌ بأوراقِ اليانصيبِ وقدْ رفعَها بيدِه إلى الأعلى . فوجَّهَ السيدُ سمرز تعليماتِه له قائلاً : إذن ، ضعْها في الصندوقِ ، وكذلك خذْ ورقةَ بِلْ وضعْها فيه .

وجَّهتْ السيدةُ هاتشنسون كلامَها إلى السيدِ سمرز بهدوءٍ وهي تضبطُ نفسَها وتحافظُ على هدوئِها بكلِّ ما أوتيتْ من قوة: أعتقدُ أنَّه يجبُ أن نُعيدَ سحبَ اليانصيبِ من جديد. لقدْ قلتُ لكَ إنَّه ليسَ عدلاً. إنكَ لم تعطِهِ الوقتَ الكافيَ لكيْ يختارَ. الكلُّ رأى ذلك.

اختارَ جريفز خمس أوراقٍ من أوراقِ اليانصيبِ ووضعَها في الصندوقِ ثم رمى بالباقي على الأرضِ فتلقفتْها الرياحُ وذَرتْها.

قالت السيدةُ هاتشنسون مخاطبةً من حولَها: أصغوا، الجميع.

سأل السيد سمرز: هل أنتَ جاهزٌ يا بِلْ؟ فهزَّ بِلْ هاتشنسون رأسَه موافقاً بعد أن ألقى نظرةً سريعةً على زوجتِه وأولادِه.

قالَ السيدُ سمرز مخاطباً أفرادَ عائلةِ هاتشنسون: تذكروا أن تأخُذوا أوراقَ اليانصيبِ وتدَعوها مطويةً حتى يأخذَ كلُّ شخص منكمْ ورقتَه. وطالبَ سمرز هاري قائلاً لهُ: ساعدِ الطفلَ الصغيرَ ديف. أمسكَ السيدُ جريفز بيدِ الطفلِ الصغيرِ والذي جاءَ معه طائعاً إلى الصندوقِ.

وقالَ السيدُ سمرز: خذْ ورقةً واحدةً من الصندوقِ يا ديفي. فوضعَ يدهُ في الصندوقِ وضحكَ. فقالَ له السيدُ سمرز مؤكداً ما قالَه قبلَ قليلٍ: خذْ ورقةً واحدةً فقط. وقال سمرز مخاطباً هاري: أمسكْ له الورقةَ يا هاري. أمسكَ السيدُ جريفز بيد الطفلِ الصغيرِ وانتزعَ الورقةَ المطويةَ التي كانَ يُمسِكها بقبضتِه بإحكامٍ، بينما

كانَ الطفلُ الصغيرُ ديف يقف بجوارِهِ وينظرُ إليه بدهشةٍ .

قالَ السيدُ سمرز : نانسي هي التاليةُ . وكانَ عمرُها اثنتي عشرة سنةً ، وقد ثقُلتْ أنفاسُ أصدقائِها في المدرسةِ وهي تخطو إلى الأمامِ ، وتحرِّكُ تنورتَها من جهةٍ إلى أخرى ، ثم أخذتْ ورقةَ اليانصيبِ بنعومةٍ ولطفٍ من داخلِ الصندوق . نادى السيد سمرز : بِلْ الابن . وقد كانَ وجهُ بِلْ الابن محمراً وبدتْ قدمهُ كبيرةً ، وكانَ على وشكِ أن يُسْقِطَ الصندوقَ عندما وضعَ يدَهُ داخلَه لسحبِ الورقةِ منه .نادى السيدُ سمرز : تيسي . ترددتْ للحظةٍ ، ونظرتْ حولَها بتحدٍ ، ثم سوَّتْ ونظّمتْ شفتيْها وتقدمتْ إلى حيثُ الصندوقُ ، وانتزعتْ ورقةً من داخلِه وأمسكتْها ووضعتْها خلفَ ظهرِها .

نادى السيدُ سمرز : بِلْ . وجاءَ بِلْ هاتشنسون وعندما وصلَ إلى الصندوقِ ، أدخلَ يدهُ في داخلِه وتحسسَ زواياه ، وفي نهايةِ المطافِ أخرجَ يدَه وقدْ أمسكَ بورقةِ يانصيبٍ .

كانَ الجمعُ هادئا . فهمستْ فتاةٌ قائلةً : أتمنى ألا تكونَ نانسي . فسُمعتْ هذه الهمسةُ بسببِ الهدوءِ التامِ ووصلتْ حتى أطرافِ الجمهورِ المُحتشد .

وبوضوحٍ تامٍّ تكلّمَ وارنر الأكبرُ سناً في القريةِ قائلاً : لم تعدْ القرعةُ كما كانتْ في السابقِ ، لأنَّ الناسَ قدْ تغيّروا فلمْ يعودوا كما كانوا سابقاً .

قالَ السيدُ سمرز مخاطباً عائلةَ هاتشنسون : حسناً ، افتحوا

الأوراقَ . وأنتَ يا هاري ، افتحْ ورقةَ يانصيبِ الطفلِ الصغيرِ ديف .

فتحَ السيدُ جريفز ورقةَ الطفلِ الصغيرِ ديف ، فتنفسَ الجميعُ الصعداءَ عندما رفعَها جريفز ، ورأى الجميعُ أنَّها خاليةٌ من النقطةِ السوداءِ .

فتحتْ نانسي وبِلْ الابن ورقتيهما في الوقتِ نفسه ، وطفقَ كلاهُما بالابتسامِ والضحكِ وقدْ بدا السرورُ على وجهيْهما ، ثم استدارا نحو الجمهورِ وهما يرفعانِ بأوراقِ اليانصيبِ البيضاءَ عالياً فوقَ رأسيْهما .

وجَّهَ السيدُ سمرز كلامَه لتيسي قائلاً : تيسي . ثم سكتَ لفترةٍ وجيزةٍ ، ثم نظرَ إلى بِلْ هاتشنسون ، ففهمَ بِلْ مرادَه ، فقامَ بفتحِ ورقتِه فكانتْ خاليةً .

فقالَ السيدُ سمرز وقدْ أصبحَ صوتُه هادئاً : إنها تيسي . أرنا ورقتَها يا بِلْ .

تقدَّم بِلْ هاتشنسون نحوَ زوجتِه وانتزعَ الورقةَ بالقوةِ من يدِها . إنَّها الورقةُ التي تحملُ النقطةَ السوداءَ . إنَّها تلكَ النقطةُ السوداءُ التي وضعَها السيدُ سمرز في الليلةِ السابقةِ وجعلَها داكنةً باستخدامِ قلمِ رصاصٍ في مكتبِه بشركةِ الفحمِ . رفع بِلْ هاتشنسون الورقةَ عالياً ، فسادتْ الجمهورَ ضجةٌ .

قالَ السيدُ سمرز :أيُّها الناسُ ، كلُّ شيءٍ على ما يُرامُ . دعونا ننهي الأمرَ بسرعةٍ .

بالرغمِ من أنَّ القرويين قدْ نسوا الطقوسَ وفقدوا الصندوقَ

الأسودَ الأصليَّ ، إلا أنهمْ ما يزالونَ يتذكرونَ استخدامَ الحجارةِ . فكومةُ الحجارةِ التي حضَّرَها وجمعَها الأولادُ مسبقاً هي جاهزةٌ . كانتْ هناكَ حجارةٌ ملقاةٌ على الأرضِ مع قصاصاتِ ورقِ اليانصيبِ المتطايرةِ من الصُّندوقِ ، فاختارتِ السيدةُ ديلاكوا من على الأرضِ حجراً ضخماً لدرجةِ أنَّها استعملتْ كِلْتَيْ يديْها لتحملَه واستدارتْ نحوَ السيدةِ دنبر قائلةً : هيا ، أسرعي .

وكانتْ السيدةُ دنبر تحملُ أحجاراً صغيرةً بكلتي يديْها ، فقالتْ وهي تلهثُ وتحاولُ أنْ تلتقطَ أنفاسَها : لا أستطيعُ أنْ أركضَ بتاتاً . اسبقوني واذهبوا وسألحقُ بكمْ .

كانَ الأطفالُ قد تزودوا بالحجارةِ مسبقاً ، وقامَ أحدُهم بإعطاءِ الطفلِ الصغيرِ ديف قليلاً من الحصى .

وفي هذهِ الأثناءِ أصبحتْ تيسي هاتشنسون في منتصفِ الساحةِ المكشوفةِ ، وقدْ رفعتْ يديْها للأعلى ، وقدْ امتلأتْ باليأسِ وفقدتْ كلَّ أملٍ بالنجاةِ ، بينما تحركَ القرويون اتجاهَها وهي تقولُ : إنَّه ليس عدلاً . وعندها أصابَ أولُ حجرٍ جانبَ رأسِها . ونادى وارنر الرجلَ الأكبرَ سناً في القريةِ قائلاً : هيّا ، تعالوا ، فليأتِ الكلُّ . وكانَ ستيف آدمز في مقدّمةِ جمهورِ القرويين وبجانبِهِ السيدةُ جريفز .

وكانتْ السيدةُ هاتشنسون تصرخُ : هذا ليس عدلاً . هذا ليس عدلاً . بينما كان الجمهور يتكالبُ عليها ويرجُمُها بالحجارةِ .

المؤلف في سطور

- الدكتورُ مُعتصم تَوفيق قاسِم الخَضر .
- شاعر وأديب فلسطيني .
- أُستاذُ الأدبِ الإنجليزيِّ المُشارِكُ في جامعةِ القُدْسِ المَفتوحةِ .
- عُضْوُ اتِّحادِ الكُتَّابِ والأدباءِ الفِلَسطينيين .

- عُنوانُ العملِ : جامعةُ القدسِ المفتوحةِ ، طولَكرمٍ ، فِلَسطين .
- عُنوانُ السَّكنِ : دَيْرُ الغُصونِ ، فلسطين .

Email: mutasemalkhader@yahoo.com

mkhader@qou.edu

FROM THE GREATEST MODERN AMERICAN SHORT STORIES

SHORT STORY

من روائع القصص الأمريكي الحديث

لا يستطيعُ مترجمُ النصِّ الأدبيِّ أنْ يدَّعيَ أنَّ ترجمتَه لا يُخالطُها نقصانٌ ؛ لأنَّ النصَّ الأدبيَّ غنيٌّ بالمضامين التي قد لا يتلمَّسُ بعضَها المترجمُ ، ولكنَّ المُهمَّ أنْ تنتهيَ الترجمةُ بوجودِ نصٍّ أدبيٍّ ألوانُه بألوانِ اللغةِ المنقولِ إليها النصُّ ، ويشهدُ بجودتِها القارئُ .

ISBN 978-614-419-579-6
9 786144 195796